

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

الزبير باشا رحمت وعلاقته بالقوى المجاورة

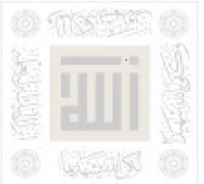
في الفترة من ١٢٤٦-١٣٣١هـ / ١٨٣١-١٩١٣م

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه

إعداد الطالب
جعفر أحمد صديق أبو سوار

إشراف الاستاذ الدكتور
عبد الجواد صابر إسماعيل

١٤١٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

وزارة التعليم العالي

جامعة أم القرى

كلية الشريعة والدراسات الإسلامية

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي): جعفر احمد صديق ابو سوار كلية: الشريعة والدراسات الإسلامية قسم: الدراسات التاريخية والحضارية الأطروحة المقدمة لنيل درجة: الدكتوراه في تخصص التاريخ الحديث

عنوان الأطروحة: ((الزبير باشا رحمت وعلاقته بالقوى المجاورة في الفترة من ١٢٤٦ - ١٣٣١هـ
١٨٣١ - ١٩١٣م))

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين . وبعد

بناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه ، والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٢٢/٧/١٤١٩هـ بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة، وحيث قد تمّ عمل اللازم؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه..

والله الموفق،،،

أعضاء اللجنة:

المشرف	المناقش الأول	المناقش الثاني
الاسم: أ. د. محي الدين محمد مصيلحي	الاسم: أ. د. عبد اللطيف عبد الله دهيش	الاسم: د. عبد الرحمن الرويح
التوقيع: [توقيع]	التوقيع: [توقيع]	التوقيع: [توقيع]

رئيس قسم الدراسات العليا الشرعية

الاسم: د/

التوقيع: ....

٢٤/٦/١٤٢٠هـ

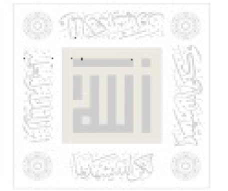
• يوضع هذا النموذج أمام النسخة المقابلة لنسخة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة.





المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية






المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
قسم الدراسات العليا التاريخية والحضارية

الزبير باشا رحمت وعلاقته بالقوى المجاورة
في الفترة من
١٢٤٦ ـــ ١٣٣١ هـ
١٨٣١ ـــ ١٩١٣م

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراة

إعداد الطالب

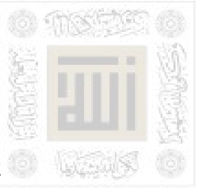
جعفر أحمد صديق أبو سوار

إشراف الأستاذ الدكتور

عبد الجواد صابر إسماعيل

١٤١٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص الرسالة

الزبير باشا رحمت وعلاقاته بالقوى المجاورة في الفترة

من ١٢٤٦ ـ ١٣٣١هـ ـ ١٨٣١ ـ ١٩١٣م

جاء البحث في أربعة فصول سبقتها مقدمة وتمهيد وأعقبتها خاتمة فالمقدمة شملت أهمية الموضوع وسبب اختياره والتمهيد عرض لبعض المصادر ثم عرض لأحوال السودان قبل دخول محمد علي باشا سنة ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م .

الفصل الأول : (الزبير باشا وقيام دولته في بحر الغزال) تضمن أصل الزبير ونشأته وتأسيسه لسلطنة في بحر الغزال وتنظيمات هذه السلطنة فالجيش والادارة والتجارة وصبغة الدولة الاسلامية .

الفصل الثاني : (علاقات دولة الزبير بالقوى المجاورة) ضم علاقاته بجيرانه في سلطنة الفور وحكام السودان من قبل مصر ثم علاقته بالخديوية في مصر وأسباب توتر هذه العلاقات .

الفصل الثالث : (الزبير وتجارة الرقيق) ضم هذا الفصل مقارنة بين الرق عند المسلمين وغيرهم ـ الأوروبيون المستعمرون كانوا وراء انتشار هذه التجارة الذميمة ـ تفنيد تهمة الاتجار بالرقيق التي ألصقها الأوروبيون بالزبير .

الفصل الرابع : (الزبير باشا والصراع مع القوى المجاورة في السودان) تناول الصراع المسلح الذي قاده غوردون الانجليزي وجسي الايطالي اللذين يحكمان السودان من قبل الخديوية ، هذا الصراع الذي أدى إلى مقتل سليمان بن الزبير وإزالة سلطنة أبيه في الجنوب .

تحدث هذا الفصل عن أثر غياب الزبير عن الساحة السودانية واستبقائه في مصر في قيام دولة المهدية ومحاولة الانجليز الاستعانة بالزبير للقضاء على تلك الدولة ـ كذلك أثر غياب الزبير في قيام دولة رابح في منطقة تشاد التي سارت على نمط سلطنة الزبير من حيث تنظيم الجيش والإدارة والتجارة والصبغة الاسلامية للدولة ثم اصطدامها بالفرنسيين والقضاء عليها في عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م .

أما الخاتمة فقد ضمت نتائج البحث ومنها الدور الذي لعبه التجار العرب وعلى رأسهم الزبير في نشر الاسلام واللغة العربية في جنوب السودان .

- ضم سلطنة الفور الى أملاك الخديوية بجهود الزبير الشخصي .
- الأوروبيون كانوا وراء انتشار تجارة الرقيق في العصر الحديث .
- زيف الاتهامات التي ألصقها الأوروبيون بالزبير باعتباره تاجر رقيق .
- غياب الزبير عن الساحة السودانية أدى إلى قيام الدولة المهدية في السودان وقيام دولة رابح حول بحيرة تشاد .

الطالب	المشرف	العميد
جعفر أحمد صديق أبو سوار	أ.د/ محي الدين محمد مصيلحي	د/ محمد بن علي العقلا



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــــــــــــداء

إلى والديّ اللذين كانا سبب وجودي في الحياة بإذن الله، فربياني صغيراً ورعياني كبيراً وما زالا يكلآني بالدعاء صباح مساء.

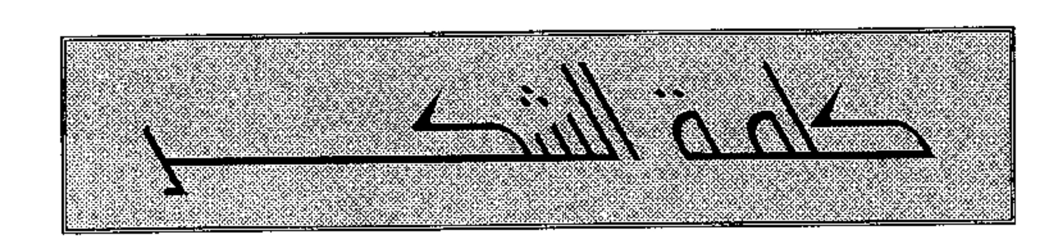
إلى الذي أخذ بيدي في مدارج العلم والتعلم بعد أن كادت خطاي أن تتوقف عند نهاية المرحلة الثانوية المغفور له بإذن الله الدكتور التيجاني عبد الرحمن أبو جديري.

إلى زوجي التي احتملت في صبر وجلد بُعد الزوج وهمّ رعاية الأبناء أملاً وانتظاراً لجني ثمار هذا الغرس.

إلى أبنائي هدى ومحمد ورفيدة وأروى وهم يحلمون مع مشرق كل شمس بعودة الأب الذي افتقدوه كثيراً.

لهم جميعاً ولآخرين غيرهم لهم عليّ يدٌ سلفت ودَيْنٌ مستحق، أهدي ثمرة هذا الجهد.

جعفـــــــــر


كلمة الشكر



كلمـــة الشكــر

الحمد لله رب العالمين حمداً كثيراً طيباً مباركاً الذي وفق و هدى و السلام على سيدنا محمد معلم البشرية و هادي الأمة المصطفى وعلى آله و أصحابه أجمعين والفضل كله لله رب العالمين(رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والديّ و أن أعمل صالحاً ترضاه) النمل الآية ١٩ .

و بعـد :

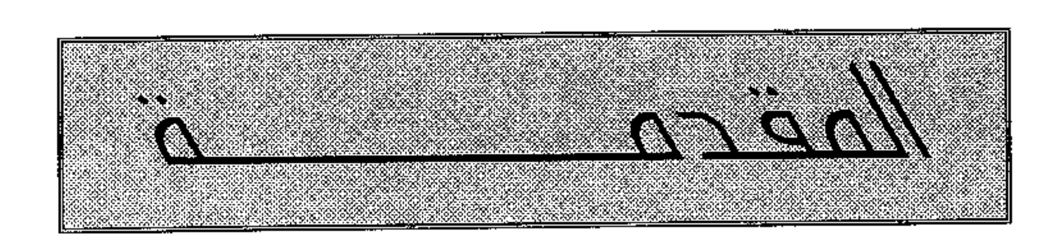
فإنني أتقدم بالشكر الجزيل للأستاذ الفاضل الدكتور محمد السيد محمد ـ شفاه الله المشرف السابق و الذي أشرف على هذا البحث منذ أن كان فكرة و قدم لي كل عون و مساعدة عند إعداد الخطة و تبويبها كما ساهم في إرشادي إلى المصادر و الوثائق و المراجع التي تخدم الرسالة وقد حالت ظروفه الصحية دون إتمام هذا البحـث .

و الشكر أجزله لأستاذي الفاضل الأستاذ الدكتور عبدالجواد صابر إسماعيل الذي تولى الإشراف على هذا البحث بعد المشرف الأول و قد أعطاني الكثير من وقته و إستفدت كثيراً من علمه الثر و توجيهاته السديدة مما كان له الفضل الكبير في إخراج هذا البحث بصورته الحالية ، فأسأل الله سبحانه و تعالى أن يمتعه بالصحة و العافية و يبارك له في وقته و علمه و ينفع به و يتقبل منه .

كما يسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى القائمين على أمر جامعة أم القرى بمكة المكرمة و كلية الشريعة و الدراسات الإسلامية فيها لإتاحتهم لي و لزملائي فرصة تلقي العلم في هذا البلد المبارك.

و الشكر للعاملين بدار الوثائق القومية بالخرطوم و على رأسهم الدكتور علي صالح كرار و الأستاذة مريم عبدالمجيد خيري لما قدموه لي من مساعدة ووضعوه تحت يدي من وثائق .

و أخيراً الشكر لكل من ساهم بإرشادي أو توجيهي أو إعانتي في شئ من أمر البحث سائلاً الله سبحانه و تعالى أن يجزيهم خير الجزاء كما أسأله تعالى أن يوفق الجميع لما يحبه و يرضاه .


المقدمة



المقدمـــــة :

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة و السلام على من بعث رحمة للعالمين سيدنا محمد الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين ، وعلى من تبع هداه إلى يوم الدين . وبعد

فلقد أدرك المسلمون الأوائل منذ القرن الأول أهمية السودان و موقعه و أثره بالنسبة للكيان الأفريقي ، فعملوا على ترسيخ دعوة الإسلام وكانت معاهدة (البقط) التي وقعها عبدالله بن أبي السرح مع ملك النوبة عام ٣١هـ .أولى الخطوات السياسية التي مهدت للاسلام سبل انتشاره في القارة الأفريقية .

فمنذ ذلك الوقت أصبح السودان معبراً للثقافة العربية الإسلامية إلى داخل القارة الأفريقية .

و في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي أدرك الإستعمار الأوروبي أهمية السيطرة على السودان و ذلك لإيقاف المد الإسلامي في القارة السمراء .

ومن ثم أصبح السودان و حتى اليوم تحت دائرة الإهتمام الشديد بالنسبة للذين يسعون لمد تيار الثقافة العربية الإسلامية إلى أفريقيا أو الذين يعملون ضد هذه الرغبة على السواء .

و من هنا جاء اختياري لموضوع ((الزبير باشا رحمت وعلاقته بالقوى المجاورة في الفترة من ١٢٤٦/١٣٣٠هـ ـــ ١٨٣١/١٩١٣م)) فالزبير باشا أحد زعماء السودان في العصر الحديث قد استطاع بما لديه من مقدرة إدارية وعسكرية إنشاء سلطنة في جنوب السودان و هي منطقة يسكنها الزنوج ولم يكن في هذا الوقت بينهم عرب أو مسلمون إلا أفراداً معدودين كانوا يعملون بالتجارة .

وقد أطلق الزبير على تلك السلطنة في المخاطبات العامة (الدولة) وتلقب بالملك وعمل على أن تُحكم تلك السلطنة بنُظم الحكم الإسلامية مما كان له أثره الفعال في نشر الثقافة العربية والإسلامية في تلك البقاع . كما أن الزبير كان يؤكد دائماً



أن دولته تأخذ شرعيتها من الحكومة العثمانية في مصر، و التي تمثِّل السلطنة العثمانية في تركيا ، و التي بدورها كانت تقوم على قواعد الدين الإسلامي، و تقوم بحكم وحماية العالم الإسلامي، ومن هنا كان يرى الزبير باشا أنه يجب على كل حاكم في أي بلد إسلامي الخضوع لحكمها وإدارتها و أن يأتمر بأمرها، ولا يجوز له معاداتها أو الخروج عليها .

وقد كان هذا الترابط الاسلامي لايتفق والمصالح الأوروبية في القارة الأفريقية لهذا عمل الأوروبيون على الوقيعة بين الزبيروالحكومة العثمانية في مصر تمهيداً للقضاء على سلطنته كما اجتهدوا في الإساءة إليه بتشويه سمعته و تاريخه ولاشك في أن هذا المنهج يعد جزءاً من العداء الصليبي ضد الإسلام . فبعد أن تم للأوروبيين القضاء على دولة الزبير باشا عملوا على الإساءة إليه وتشويه سمعته و تاريخه وألصقوا به تهمة الإتجار في الرقيق ، و قد أكد الزبير نفسه كما أكدت الوثائق أنه لم يكن يتاجر في الرقيق، و إنما كان يشتري الأرقاء الأقوياء لاستخدامهم في الجندية فقط بعد أن يمنحهم حريتهم ، و على الرغم من ذلك أصرالأوروبيون على الإساءة لسمعته اذ وصموه بأنه تاجر رقيق، علماً بأنه في الوقت نفسه كان هناك الكثير من التجار الأوروبيين وسلاطين الجنوب السوداني يتاجرون في الرقيق متجرة صريحه لكن لما كانت سياستهم وأعمالهم لاتتعارض مع سياسة الاستعمار الأوروبي في القارة الأفريقية لم يعارضوهم أو يتهموهم بكلمة واحدة.

اذن فلم يكن الغرض من هذه الحملة الأوروبية الشعواء ضد الزبيرالا القضاء على دولته التي لو قُدر لها الاستمرار لكان حال الجنوب في السودان غير حاله اليوم ، بل ربما تغير الوضع في المنطقة الأفريقية بأسرها أن المسيحية لم يعتنقها في الجنوب سوى قلة من الزنوج لاتمثل على الاطلاق تياراً يعتد به فلو قدر لسلطنة الزبير الإستمرار

لكان الجنوب اليوم كله أو معظمه مسلماً واصطبغ بالصبغة العربية ، ولسقطت ادعاءات الكنيسة ولم يكن لوجودها في الجنوب أي مبرر.

و باختياري لهذا الموضوع وتقديمه في رسالة علمية آمل أن أكون قد رددت عن الرجل بعض الافتراءات التي وقعت عليه خدمةً لتاريخ الإسلام والمسلمين عامة و لتاريخ المسلمين في السودان على وجه الخصوص.

و قد قسمت البحث إلى خمسة فصول تسبقها مقدمة و تمهيد ، و تعقبها خاتمة .

فأما المقدمة فقد أشرت فيها إلى أهمية الموضوع و سبب إختياري له كما عرضت فيها ما تناوله كل فصل باختصار .

وأما التمهيد فقد تحدث في الجزء الأول منه عن أهم المصادر و المراجع التي استفاد منها البحث ثم تحدثت في الجزء الثاني منه عن أحوال السودان السياسية والإقتصادية والإجتماعية في العهد العثماني المصري .

وأما الفصل الأول من البحث و الذي جاء تحت عنوان ((الزبير باشا و قيام دولته في بحر الغزال)) فقد تعرضت فيه لنسب الزبير رحمت و أصله العربي العباسي ومولده ونشأته و أثر هذه النشأة في حياته ، كما تحدثت فيه عن اشتغال الزبير بالتجارة و كيف قاده العمل في التجارة إلى تأسيس دولته في جنوب السودان و قد أشرت في هذا الفصل إلى أسس هذه الدولة و تنظيماتها كالجيش و الإدارة والتجارة و صبغة الدولة الإسلامية .

أما الفصل الثاني و الذي جاء تحت عنوان ((علاقات دولة الزبير بالقوى المجاورة)) فقد تحدثت فيه عن علاقة الزبير بقبائل عرب الرزيقات المجاورين له ، و بينت أن هذه العلاقة بدأت علاقة مودة و تعاون ، ثم تحولت إلى علاقة حرب قادت الزبير باشا بدورها إلى احتلال سلطنة الفور وضمها إلى أملاك الخديوية بمصر ، ثم بينت الأحوال التي أدت إلى توتر العلاقات بين الزبير وحاكم السودان الخاضع لحكومة مصر .

كما تحدثت عن وفاء الزبير للسلطات في مصر على الرغم من عدم الثقة التي أبدتها تجاهه الحكومة المصرية .

وجاء الفصل الثالث تحت عنوان ((الرق في السودان حتى العهد العثماني)) وقد تحدثت فيه عن الرق عند الأوروبيين و الرق عند المسلمين مقارناً أحوال الرق و دواعيه عند المسلمين بأحواله عند غير المسلمين، ثم تحدثت عن الرق في السودان حتى نهاية العهد العثماني وبينت أن الأوروبيين كانوا وراء إنتشار هذه التجارة كما ألقيت الأضواء على جهود الحكومة العثمانية في مصرلمحاربة تجارة الرق في السودان ، ثم تحدثت أيضاً عن زيف الإتهامات التي ألصقها الأوروبيون بالزبير والتي ادعوا بها زوراً إنه كان تاجر رقيق ، وأقمت الأدلة التاريخية والمنطقية على أن الزبير برئ مما نسب اليه وأن له من خلقه وشرفه ما منعه من ممارسة هذه التجارة الذميمة.

أما الفصل الرابع و عنوانه ((الصراع بين الزبير باشا والقوى المجاورة)) تحدثت فيه عن الصراع المسلح بين الزبير و البلالي مدير بحر الغزال من قبل السلطة العثمانية في مصر ، ثم بينت كيف أن الصراع بين الزبير وحكمدار السودان دفع االحكومة العثمانية في مصر إلى استدعاء الزبير إلى مصر، واستبقائه هناك خشية الإستقلال بالسودان ، و إرسال غوردون باشا حملةً بقيادة الإيطالي جسي لقتل سليمان بن الزبير. ثم تحدثت في هذا الفصل عن الفراغ الأمني الذي تركه خروج الزبير من السودان وكيف قامت العديد من الثورات في وجه الإدارة الأوروبية الحاكمة في السودان من قبل الحكومة العثمانية في مصر ـ كذلك تحدثت في هذا الفصل عن خروج الزبير من السودان وأثر ذلك في قيام دولتي المهدية ورابح حيث قامت الأولى في السودان وقامت الثانية حول بحيرة تشاد ثم تحدث عن محاولة الانجليز في استغلال الزبير لضرب الدولة المهدية وفشلهم في ذلك ثم محاولة الانجليز والفرنسيين في كسب ود رابح عن طريق الزبير وقد فشلوا في ذلك ايضاً مما أدى الى نهاية الدولة المهدية على يد الانجليز ونهاية دولة رابح على يد الفرنسيين في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي .



أما الخاتمة فقد تحدثت فيها عن أهم الحقائق التاريخية التي توصلت إليها من خلال هذا البحث.

ثم اعقبت الخاتمة بمجموعة من الملاحق والتي ضمت العديد من الوثائق و الخرائط التي لا غنى للبحث عنها . و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

التمهيد

أ ـ عرض لأهم المصادر والمراجع العربية والأجنبية .

ب ـ أحوال السودان السياسية والاقتصادية والاجتماعية

التمهيـــد

أ ـ عرض لأهم المصادرو المراجع العربية و الأجنبيــة:

الأوراق التالية عرض علمــي لأهـم المصــادر و المراجـع التـي إعتمـد عليهـا البحث و ليس معنى هـذا أن المصادر و المراجع التي لـم أتعـرض لهـا ليست ذات أهمية في هذا البحث ولكن هذا العرض لنماذج فقط راعيت أن تشمل هـذه النمـاذج كافة أنواع المصادر و المراجع من وثائق وكتب عربية و أجنبية .

أولاً: **الوثائق** .

يكاد يكون البحث وثائقياً في المقام الأول لذلـك جـاء إعتمـادي علـى الوثـائق كثيراً مقارنةً بغيرها من المصادر و المراجع وقد حصلت على مجموعـة كبيرة مـن الوثائق ورتبناها حسب الجهة التي أحضرت منها وهي كـالآتي دار الوثـائق القوميـة بـالخرطوم ، ودار الوثـائق القوميـة بالقـاهرة ، دار الوثـائق البريطانيـة بلنـدن ، وقـد أطلقنا عليها وثائق الخرطوم ، القاهرة ، لندن .

أ: **وثائق الخرطوم** :

١/ أولى هذه الوثائق تقرير من غوردون تحت رقم 1/15/64 يتحدث فيـه غـوردون عن تمرد سليمان بن الزبير رحمة و المعارك التي دارت بينه و بين جيوش الحكومة و إنتصـار الحكومة عليه في النهاية .

٢/ صـورة خطيـة مـن مذكـرات الزبـير رحمـت تتكـون مـن ١٨ صـفحـة حجـم الفلوسكاب الكبير تحت رقم 1/47/929 وقدتحدث الزبير فـي هـذه المذكـرات عـن نسبه وقبيلته كما تحدث عن رحلته إلى بحر الغزال وما صـادف فيها من أهوال وما كسـب فيها من أموال وعز و رفعة كذلك تحدث عـن فتحـه دارفـور و أسـباب إختلافـه مـع الحكمدار إسماعيل أيوب وسفره إلى مصـر واستبقائه فيها .




٣/ صور خطية تحت رقم 1/72/151 لبعض خطابات الزبير إلى السلطان إبراهيم سلطان دارفور وخطابات بعض علماء دارفور وخطابات أخرى لبعض رجال الحكم في دارفور يحثهم فيها على الاستسلام لسلطة الحكومة الخديوية دون حرب .

٤/ مذكرات خطية بقلم النور عنقرة تحت رقم 1/67.1190 تحدث فيها النور عن عمله مع الزبير رحمة في بحر الغزال أو إنضمامه إلى إدارة الحكومة تحت سلطة غوردون بعد سفر الزبير إلى القاهرة ثم إلتحاقه بقوات الثورة المهديةفيما بعد .

٥/ بعض الأوراق الأخرى التي تتعلق بالزبير وقد إستفاد البحث كثيراً من هذه الوثائق خاصة في لفصل الأول .

ب : وثائق القاهرة .

عبارة عن صور مترجمة للتلغرافات المتبادلة بين الحكومة الحكمدارية في الخرطوم و الحكومة العثمانية في القاهــرة بعضها عربي وبعضها عثماني وهي وثائق تقارب المائة وثيقة مجموعة بين الدفاتر ٢،٣،٥،١٦،١٧،١٨،١٩،٢٠،٢١، ٢٣،٢٤،٢٥،٢٦،٢٧،٢٨، ٢٩،٣٠،٣٢،٣٦ ووثائق أخرى قليلة متفرقة وقد شملت هذه الوثائق كل ما يتعلق بالزبير باشا منذ تم تعيينه مديراً على بحر الغزال حتى مغادرته دارفور إلى مصر وقد إستفاد البحث فائدة عظيمة خاصة في الفصل الأول الذي يتعلق بقيام سلطنة الزبير في بحر الغزال وحروبه مع عرب الرزيقات وسلاطين دارفور وما ترتب على هذه الحروب .

ثانياً : الكتب العربية

١ ـ كتاب الزبير باشا رجل السودان لمؤلفه سعد الدين الزبير والكتاب يقع في ٢٣٠ صفحة من الحجم المتوسط والكتاب عبارة عن سيرة شخصية لحياة الزبير من خلال ما سمعه الابن لأبيه وكذلك من خلال ما تركه الاب من مذكرات .




والبحث قد استفاد من هذا المصدر كثيراً ، بل يعتبر المصدر الأساسي في هذا البحث حيث تكاد موضوعاته تلامس كل موضوعات البحث . ومنها كتاب "تاريخ السودان " لمؤلفه نعوم شقير، قدم له وحققه الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم وقد تم طبعه في بيروت سنة ١٩٨١م ، والكتاب في الأصل جزءين في مجلد واحد يسمى تاريخ السودان وجغرافيته ، ولكن المحقق الدكتور محمد إبراهيم أبوسليم قام بحذف الجزء الخاص بالجغرافيا وحقق و قدم للجزء الخاص بالتاريخ وأسماه تاريخ السودان .

والكتاب يقع في أكثر من تسعمائة وستين صفحة و يحوي تسعة أبواب بالإضافة إلى مقدمة المحقق وتعليقات وملحق للصور و الخرائط وفهارس الأعلام .

فالباب الأول يتحدث عن تاريخ أثيوبيا قبل النصرانية ، وهي تضم الجزء الشمالي من السودان الحديث ، و الباب الثاني يتحدث عن تاريخ النصرانية في بلاد النوبة ، و الباب الثالث يتحدث عن تاريخ البجا ، أما الباب الرابع فيحدث عن تاريخ مملكة سنار ، و الباب الخامس عن تاريخ مملكة دارفور ، و االباب السادس تحدث عن ضم السودان للحكم المصري في سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م ، ومن هذا الباب استفاد البحث حيث حوى تاريخ الزبير و علاقته بالحكم المصري ، ودخول دارفور وضمها للحكومة العثمانية ، و الثورات في عهد الزبير ، و الثورات التي أعقبت خروجه إلى مصر . أما الباب السابع فيتعلق بالثورة المهدية ، و الباب الثامن عن فترة حكم الخليفة عبدالله التعايشي ، خليفة المهدي أما الباب التاسع والأخير تحدث فيه المؤلف عن استرجاع السودان من حكم المهدية على يد الانجليز والحكام العثمانيين في القاهرة في سنة ١٣١٥هـ /١٨٩٩م والكتاب يعتبر مصدراً مهماً من مصادر البحث حيث أن المؤلف عاش في فترة البحث وقابل الزبير باشا شخصياً وسمع منه ودون له حياته .



ومنها " غرائب الزمان في فتح السودان " لمؤلفه محمود طلعت .طبع سنة ١٣١٢هـ في القاهرة .

وترجع أهمية هذا المصدر إلى أن المؤلف عمل في السودان ، و تقابل مع الزبير ، وسمع منه وسمع عنه ، و الكتاب يقع في ١٦٧ صفحة تحوي أربعة عشر فصلاً ، بالإضافة إلى مقدمة ، وخاتمة وقد استفاد البحث من هذا المصدر في الفصلين الثالث و الرابع ، حيث تحدث المؤلف في الفصل الثالث عن دارفور وخضوع سلطاتها على يد الزبير باشا ، وضمها إلى سلطان الخديوي اسماعيل ، وما سبق هذا الضم من حروب دارت بين الزبير باشا و السلطان إبراهيم آخر سلاطين دارفور ، وعمه الأمير حسب الله ، وما طرأ من اختلاف وجهات النظر بين الزبير و الحكمدار إسماعيل أيوب أثر سقوط الفاشر عاصمة سلطنة دارفور.

أما الباب الرابع فقد تحدث فيه المؤلف عن مقابلته للزبير باشا وما حُكي له عن أعمال الزبير في بحر الغزال ، كذلك تعرض المصدر لقضيةالرق وأُتهم غوردون نفسه بممارسة تجارته رغم تشدده في محاربته. ومنها كتاب " برنو في عهد الأسرة الكانمية (١٨١٤ ـ ١٨٦٩م) " لمؤلفه لدكتور مصطفى علي بسيوني أبو شعيشع ، و الكتاب طبعته دار العلوم للطباعة و النشر بالرياض المملكة العربية السعودية (١٤٠٥هـ /١٩٨٤م) و الكتاب يقع في أكثر من ٢٢٠ صفحة يحتوي على ٦ فصول وخاتمة بالإضافة إلى مقدمة وملاحق الصور و الخرائط ، و قد جاء ت فصول الكتاب تحمل العناوين الآتية :

١/ الفصل الأول : قيام الدولة الكانمية .

٢/ الفصل الثاني : سقوط الدولة الكانمية .

٣/ الفصل الثالث : عودة الأسرة الكانمية الى الحكم .

٤/ الفصل الرابع : نظام الحكم في برنو .

٥/ الفصل الخامس: حالة برنو الإجتماعية و الإقتصادية .




وقد استفاد البحث من هذا المرجع في الفصل الثاني حيث كان سقوط الأسرة الكانمية على أيدي القائد رابح فضل الله ، وهو بحث يتعلق بقيام امبراطورية رابح في وسط وغرب أفريقيا و يعتبر هذا الكتاب من المراجع التي إستند إليها البحث فيما يتعلق بحروب رابح حول منطقة نهر شاري .

ومنها كتاب " الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر" لمؤلفه الدكتور محمد خيري ، وطبع في مصر سنة ١٩٤٨م . و الكتاب يقع في أكثر من ٢٩٠صفحة ، وهو يعتبر بحق مرجعاً أساسياً لتاريخ السودان في القرن التاسع عشر فهو يتحدث عن تاريخ السودان بداية من دخول محمد علي السودان سنة١٨٢١م حتى سنة ١٨٩٩م .

وقد قسم المؤلف الكتاب إلى أجزاء سمى كل جزء كتاباً جاءت كالآتي :

١/ الكتاب الأول : ويقع في فصلين (السودان من محمد علي إلى سعيد) .

٢/ الكتاب الثاني : ويقع في خمسة فصول (السودان في عصر إسماعيل من ١٨٦٣م إلى ١٨٧٩) .

٣/ الكتاب الثالث: ويقع في ٣ فصول (السودان من سنة ١٨٨١م إلى سنة ١٨٨٥م ـ الثورة المهدية إلى قرار الإخلاء) .

٤/ الكتاب الرابع : يقع في ٣ فصول ممالك السودان المتطرفة سنة ١٨٨١م إلى ١٨٩٨م .

٥/ الكتاب الخامس : ويقع في ٣ فصول تتعلق بالسودان و الصومال و الحبشة وحدود السودان الشرقية و الحبشة ومديرية خط الإستواء والكنقو البلجيكي وغيرها، وقد إستفاد البحث من هذا المرجع في بعض المواضع وخاصة ما جاء في الكتاب الثاني حول عصر إسماعيل وذلك لأن البحث معظمه يتعلق بهذه الفترة من حكم الخديوي اسماعيل .

ومنها كتاب ((معالم تاريخ سودان وادي النيل)) (من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر الميلادي) لمؤلفه الشاطر بصيلى عبدالجليل ، وقد طبع الكتاب في القاهرة في سنة ١٩٦٦م /١٩٦٧م .

الكتاب في معظمه يتحدث عن سلطنة سنار ، حدودها، وسلاطينها ، ومدة حكم كل منهم ، وطرائق الإدارة فيه ثم تحدث عن نهاية هذه السلطة على يد محمد عل باشا في سنة ١٨٢١م ثم تناول مسألة الرق بشئ من التفصيل ، كيف نشطت تجارة الرق في عهد محمد علي ، ثم دخول الأوروبيين السودان، والإستفادة من امتيازات الدول الأوروبية فعملوا على نشر هذه التجارة بالأموال و استخدام الأسلحة الفتاكة ، ثم كيف دخلت هذه التجارة في المعاهدات الدولية ، وكيف أصبحت أداة للضغط على الحكام في القاهرة ، وقد أفاد الكتاب البحث في قضية الرق كثيراً ، أيضاً تناول الكتاب جزءاً من تاريخ الزبير باشا وبيكر وغوردون وما قام به كل منهم تجاه الخديوية في القاهرة . والكتاب يضم مجموعة من الملاحق كالوثائق و الخرائط .

ومنها كتاب ((عصر إسماعيل)) ـ الجزء الثاني لمؤلفه عبدالرحمن الرافعي وقد طبع الكتاب للمرة الرابعة في سنة ١٩٨٧م في دار المعارف بالقاهرة .

الكتاب يقع في ١٠٨ صفحة و يحتوي على تسعة فصول وقد إستفاد البحث من هذا الكتاب في الفصل السادس حيث تناول فيه المؤلف (السودان في عهد الخديوي إسماعيل باشا وهي الفترة التي جرت معظم حوادث هذا البحث فيها وشمل هذا الفصل أبحاث عديدة ومهمة حيث تعرض إلى تعيين الأوروبيين في المناصب المهمة في السودان ، وعلى رأسهم غوردون وبيكر ، كما تناول تجارة الرقيق وجهود الخديوي إسماعيل لإبطالها ، و استخدامه الأوروبيين في ذلك وما ترتب على هذا المنع من إضرار بمصالح الناس في السودان ، كذلك تناول هذا الفصل جزء من تاريخ الزبير ، وفتحه دارفور ، وضمها إلى سلطان الخديوي .

وقعت

والمؤلف يعتبر معاصراً حيث أن كثيراً من الحوادث وهو في عز الشباب ولا يستبعد أن يكون قد إلتقى بالزبير في مصر رغم أنه لم يشر إلى ذلك ، لذلك يعتبر هذا الكتاب من المصادر المهمة في هذا البحث .

ومنها كتاب ((السودان بين يدي غوردون وكتشنر)) وهو جزءان في مجلد واحد ، لمؤلفه ابراهيم فوزي باشا، وقد طبع الكتاب بالقاهرة في سنة ١٣١٩هـ و الكتاب رغم تناوله لأشياء كان ينبغي تجاوزها إلا أنه مصدر أساسي في تاريخ السودان الحديث ، وخاصة فيما يتعلق بفترة حكم المهدية ، وفترة حكم غوردون وأخبار حملة كتشنر ، واسترجاع السودان . والكتاب يأخذ أهميته من أن مؤلفه كان ضمن الضباط الذين عملوا في السودان في الفترة التي سبقت الثورة المهدية ، وظل في السودان بعد قيام الحكومة المهدية مما جعله شاهداً ومشاركاً في كثير من الأحداث التي تناولتها في هذا الكتاب .وقد أفاد هذا المصدر البحث في كثير من المواضيع خاصة ماتعلق بفترة حكمدارية غوردون وأسباب قيام الثورة المهدية .

الكتاب التاسع هو كتاب ((مصر والسودان)) تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر (١٨٢٠م ــ ١٨٩٩م) لمؤلفه الدكتور محمد فؤاد شكري وطبع الكتاب للمرة الثالثة بمصر في سنة ١٩٦٣م والكتاب يقع في أكثر من ٥٥٠ صفحة بالإضافة إلى مجموعة من الخرائط .

ويعتبر هذا الكتاب مرجعاً مهماً في تاريخ العلاقات المصرية السودانية في الفترة من ١٨٢٠م إلى ١٨٩٩م . وقد أفاد هذا المرجع البحث في الجوانب المتعلقة بتجارة الرقيق والتغلغل الأجنبي في السودان . و أسباب الثورة المهدية واختيار غوردون لتنفيذ سياسة الإخلاء .

ثالثاً/: المراجع الأجنبيــــة :

أولـى المراجـــع الأجنبيـة التـي اعتمـد عليهـا البحـث هـــو ((كتــاب العــاج الأسودأو قصة الزبيررحمت ، تاجرالرقيق والسلطان . لمؤلفه هـ .س جاكسون أحـد موظفـي حكومـة السودان وقـد صـدر الكتـاب لأول مـــرة عـام ١٩١٣م بواسـطة المطبعة السودانية في الخرطوم أعيدت طباعة الكتاب في عام ١٩٧٠م في نيويـورك والكتاب يقع في ١١٨صفحة ذات الحجم المتوسط ويحتوي خمسة أبـواب وملخصين إضافة إلى تعريف ومقدمة .

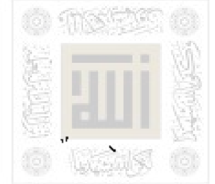
الباب الأول تحـدث عـن رحلـة الزبـير باشـا والبـاب الثـاني تحـدث عـن قيـام دولته في بحر الغزال .

أما الباب الثالث تحدث عن نهايـة دولـة الزبـير وسفره إلـى مصـر و البـاب الرابع تحدث عن محاولات الإنجلـيز لإرجـاع الزبـير إلـى السـودان لضـرب الثـورة المهدية أما الباب الخامس فقد تناول شخصية الزبـير وقـد وصفـه بأنـه ذكـي طمـوح يحمل معاني الإنسانية و الحكمة ، أما الملحقان فقد تحدث الأول عن شـخصية النـور عنقرة أحد رجـال الزبـير و العـاملين معـه فـي بحـر الغـزال والملحـق الثـاني تنـاول تنظيمات غوردون الإدارية و إقتراحه أن يؤول حكم السودان إلى الزبير باشا . وقـد أفاد هذا المرجع البحث في معظم جوانبه .

أمـا الكتـاب الثـاني فهـو((كتـاب الخديـوي إسـماعيل والـرق فــي السـودان)) (١٨٦٣م ـ ١٨٧٩م) والكتاب باللغة الانجليزية لمؤلفه المرحوم الدكتور محمد فـؤاد شكري وقد طبع لأول مرة في سنة ١٩٣٨م ويحتوي ٣٢٢ صفحة وأحد عشرفصلاً

والكتاب يتناول سياسة الخديوي إسماعيل فـي السـودان بـالتفصيل وتـبرير أو إزالة بعض الإعتقاد الذي صاحب تنفيذ تلك السياسة .

والدكتور محمد فؤاد شكري كعادته في كـل كتبـه يعتمـد إعتمـاداً كبـيراً علـى الوثائق بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من المصادر الأخرى .

وقد أفاد هذا المرجع البحث في الفصل الثامن منه حيث حوى هذا الفصل التوسع المصري في أفريقيا وخاصة ضم دارفور إلى سلطنة الخديوي إسماعيل .

أما الكتاب الثالث فهو كتاب جنوب السودان لمؤلفه محمد عمر بشير والكتاب باللغة الإنجليزية طبع لأول مرة في سنة ١٩٦٨م والكتاب يحتوي عشرة فصول بالإضافة إلى الخاتمة وعدة ملاحق والكتاب عرض لحالة الجنوب تحت السياسة البريطانية من قبل عام ١٨٩٨م إلى عام ١٩٥٨م ثم حالة الجنوب تحت الحكم الوطني حتى عام ١٩٦٤م .

وقد أفاد هذا المرجع البحث في بعض الجوانب خاصة تجارة الرقيق في هذا الجزء من السودان .



ب : أحوال السودان قبل أن يضمه محمد علي

الحالة السياسية :

عندما كانت أقدام الجيش العثماني بقيادة إسماعيل بن محمد علي باشا والي مصر تطأ ثرى السودان عام ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م ، لم يكن السودان وقتذاك كياناً سياسياً موحداً و لا عرف الحكومة الواحدة بل كانت تتقاسمه ثلاث حكومات رئيسية تعمل كل واحدة منها بصورةمستقلة عن الأخرى وهذه الحكومات هي :

أ/ سلطنة الفونج

ب/ سلطنة الفور

ج/ سلطنة تقلي

أ:/ سلطنة الفونج :

قبيل الفتح الإسلامي لمصر عام ٢٠هـ /٦٤١م كانت تقوم في بلاد النوبة ثلاث ممالك مسيحية الأولى منهما مملكة النوباويين أو المريس وتمتد من أسوان حتى قرب الشلال الثالث وكانت عاصمتها فرس(١) وهي التي تلي مصر مباشرة والثانية مُقرة وعاصمتها دنقلة وتمتد حدودها من جنوب مصر إلى بلدة الأبواب جنوبا(٢) " كبوشية الحالية" أما المملكة الثالثة فتعرف ب (علوة) وعاصمتها سوبا وتمتد حدودها من مدينة الأبواب شمالاً إلى حدود الحبشة شرقاً (٣) وربما شملت جهات من نهر عطبرة و النيل الأزرق حتى حدود الحبشة شرقاً وبعض أجزاء من كردفان ودارفور غرباً (٤) .

---

(١) دكتور شوقي الجمل ـ تاريخ سودان وادي النيل ج١ ص ٢٠٢ . القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧١م .

(٢) اليعقوبي ـ أحمد بن يعقوب تاريخ اليعقوبي ص ١٩٤ . ج ١ دار صادر بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م

(٣) المقريزي ـ تقي الدين أحمد بن علي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ج١ ص ٢٤٠ / مكتبة احياء العلوم الشياح لبنان .

(٤) مصطفى سعد ـ المكتبة السودانية مكتبة دار الوثائق القومية بالخرطوم ص ١٠٢




هذا وقد سقطت مملكة المقرة عام ٧١٧هـ /١٢١٧م على يد بني الكنز من ربيعة أما المملكة الثانية علوة فقد سقطت عام ١٥٠٤م نتيجة إتفاق ثنائي بين القواسمة من جهينة بقيادة عبدالله جماع وبين الفونج بقيادة عمارة دنقس ومن ثم أسسوا على أنقاضها سلطنة الفونج الإسلامية وهي ماعرفت في التاريخ بالسلطنة الزرقاء أو سلطنة سنار نسبة لتأسيس مدينة سنار عاصمة دولة الفونج(١).

وقد اختلف المؤرخون من أمثال الشاطر بصيلي والرحالة جميز بروس و . أ ج أركل في أصل الفونج فمنهم من قال إنهم فرع من الشلك(٢) ومنهم من قال إنهم من سكان دارفور الأصليين ولكن الروايات السودانية تؤكد أنهم من سلالة بني أمية الذين فروا من وجه العباسيين إلى الحبشة ثم إنحدروا إلى السودان (٣) .

هذا وقد دامت سلطنة الفونج أكثر من ثلاثة قرون حكم خلالها حوالي خمسة وعشرون ملكاً أولهم عمارة دونقس (٩١٠ ـــ ٩٤٠هـــ ـــ ١٥٠٥ ـــ١٥٣٤م) وآخرهم الملك بادي السادس بن طمبل (١٢٠٥ ـــ ١٢٣٦هـ : ١٧٩١ـــ ١٨٢١م) الذي تنازل لاسماعيل باشا بن محمد علي عن عرش السلطنة الزرقاء(٤) .

وكما ذكرنا فإن قيام سلطنة الفونج كانت نتيجة إتحاد بين عرب القواسمة بقيادة عبدالله جماع و الفونج بقيادة عمارة دونقس لذلك أصبح الملوك من الفونج والوزراء من عرب القواسمة الذين أطلق عليهم إسم العبدلاب نسبة لعبدالله جماع وعرفوا بالشيوخ بدلاً من الوزراء كما أطلق على سلطتهم مشيخة العبدلاب وكانت عاصمتهم مدينة (قري)(٥) .

---

(١) يوسف فضل : مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي ١٤٥٠ـــ ١٨٢١م ص ٢٥ ـ جامعة الخرطوم ١٩٧١م .

(٢) الشلك إحدى القبائل الزنجية النيلية التي تقطن جنوب السودان . جميل عيد ـ المديرية الاستوائية ص ٢٣ . دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٧م .

(٣) نعوم شقير : تاريخ السودان ص ٩٧ تحقيق د/ محمد ابراهيم أبو سليم دار الجيل ١٩٨١م

(٤) المصدر السابق ص ١٠٠

(٥) يوسف فضل ـــ تاريخ الممالك مرجع سابق ص ٦٨/٦٩ .



ولم يحكم الملوك من الفونج و الشيوخ من العبدلاب متضامنين متحدين فكانت مدينة أربجي على النيل الأزرق الحد الفاصل بين مملكة الفونج ومشيخة العبدلاب . فمن أربجي فصاعداً جنوباً كانت تابعة لملوك الفونج مباشرة ودون تدخل من مشايخ العبدلاب ومن أربجي حتى الشلال الثالث شمالاً كان تابعاً لإدارة مشيخة العبدلاب تحت سيادة ملوك الفونج .

وقد امتدت مملكة سنار من الشلال الثالث شمالاً إلى أقصى جبال فازغلي جنوباً ومن سواكن على البحر الأحمر شرقاً إلى النيل الأبيض غرباً (١) ، و قد كانت المملكة مقسمة إلى عدة ممالك و مشيخات من سود ونوبة و عرب وحضر وبادية وكان كل ملك أو شيخ يدفع ضريبة لملك سنار إلا أن له نوعاً من الاستقلال ، وأما البلاد الواقعة بين الشلال الثالث والشلال الأول فقد كانت بيد الكشاف(٢) العثمانيون والسلطنة الزرقاء كانت أبعد ماتكون عن الحكومة المركزية فليست هناك مؤسسات إدارية ولم يتعد تدخل السلطات في الشئون الداخلية للممالك و المشائخ جباية الضرائب وتعيين زعيم أو شيخ مكان المتوفى .

وقد اشتهرت مملكة سنار بالثروة و الغنى وكانت لها صلات تجارية مع مصر و الحجاز و الهند والحبشة حيث كانت أهم صادراتها الذهب وسن الفيل و الخرتيت والعسل والسياط و الأبنوس و الجلود والقصاع والنعال والإبل وكانوا يتعاملون بقطع من الدمور (٣) .

---

(١) نعوم شقير – تاريخ السودان - المصدر السابق ص ٩٩ .

(٢) عساكر عثمانية أرسلها السلطان سليم بعد أن ضم مصر إلى بلاد النوبة لإخضاع عرب الجوابرة فاستولى هؤلاء الأتراك على بلاد النوبة في سنة ١٥٢٠م وحكموا النوبة حتى عهد محمد علي وعرفوا هناك بالكشاف نعوم شقير . تاريخ السودان مصدر سابق ص ١٤٢ .

(٣) نعوم شقير . تاريخ السودان مصدر سابق ص ١٢٧ .




وكان كثير من ملوكها يكرمون العلماء وطلاب العلم لذا (١) قامت بين السلطنة و الأزهر والحجاز صلات ثقافية مشهورة ، كما كان لملوك سنار أيام عزهم جيشاً مدرباً يؤدبون به القبائل الخارجة عن سلطانهم وقد دخلوا في حروب مع الحبشة و إنتصروا عليها كما حاربوا سلطنة المسبعات وحكموها فترة من الزمان(٢).

ولم تكن العلاقات بين الحليفين (الفونج والعبدلاب) كلها مودة وصفاء و إنما إعتراها كثير من المشاحنات والضغناء أدت إلى الحروب وسفك الدماء ، فالحرب التي وقعت بينهما في أيام الملك عدلان ولد آبه حيث كانت معركة كركوج الواقعة بالقرب من الجريف شرق (١٦١١ــ ١٦١٢) حيث إنهزم العبدلاب وقتل شيخهم عجيب المانجلك وهرب أبناؤه إلى دنقلة (٣) .

ونتيجة لتدهور سلطات الملك و الخلافات الحادة بين الوزراء و المشائخ وهنت السلطة المركزية وتعرض أمنها ووحداتها للخطر وقد تميزت أواخر أيام الفونج بالمناوشات و الخلافات الحادة بين الممالك و المشيخات من جهة وبينها و بين السلطة المركزية من جهة أخرى . وقد أستغلت الممالك والمشيخات ضعف السلطة المركزية فاستغلت كثير منها عن سلطان سنار إستقلالاً لحقبة محدودة أو إستغلالاً إمتد حتى دخول محمد علي السودان وكان الشايقية أول من تمرد على الفونج في النصف الثاني من القرن السابع عشر وفرضوا سيادتهم على دنقلا بأسرها كما تمكن العبدلاب من تحقيق قدر كبير من الإستقلال بقيادة شيخهم محمد الأمين سنة ١٢٩٦هـ / ١٧٨٠م ، كما صار الشكرية أعظم قوة في البطانة (٤) .

وقد انتهت فترة الإضطراب و الفوضى هذه بحملة اسماعيل كامل بن محمد علي عند دخوله السودان سنة١٣٣٩هـ / ١٨٢١م وضمه السودان الى سلطة الحكومه العثمانية في مصر.

---

(١) أحمد بن علي مخطوطة كاتب الشونة ص ٢٢ تحقيق الشاطر بصيلي القاهرة ١٩٦١م .

(٢) يوسف فضل مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي ص ٧٠ جامعة الخرطوم ١٩٧١ م .

(٣) أحمد بن علي ـ تاريخ ملوك السودان (كاتب الشونة) ص ٢ .

(٤) أحمد بن علي مخطوطة كاتب الشونة . ص٨ ، ٩ مرجع سابق .

يوسف فضل مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية مرجع سابق ص ٧٦ .




ب/ سلطنة الفور :

ومن السلطنات الشهيرة التي كانت تحكم أجزاء من السودان وقت الضم المصري للسودان عام ١٨٢١م سلطنة الفور الإسلامية وقد تأسست في المنطقة التي تعرف اليوم بإقليم دارفور .

ويذكر أهل دارفور أن الداجو (١) أول من أسس دولة في إقليم دارفور ثم تلاهم التنجور (٢) ثم أسرة كبيرة من الفور ومن هذا الإسم جاء إسم سلطنة دارفور والرواة يرجعون سلالة الفور إلى بني العباس الذين نزحوا إلي تونس ثم إلى غرب السودان بعد زوال دولة بني العباس سنة ٦٥٦هـ /١٣٥٤م (٣) .

وقد حكمت دولة الفور أكثر من أربعة قرون جلس على عرشها ملكاً من أصل عربي أولهم السلطان سليمان سنة ٨٤٨هـ/ ١٤٤٥م وآخرهم السلطان إبراهيم الذي قتل على يد الزبير باشا سنة ١٢٩١هـ /١٨٧٥م .

أما حكومة سلطنة الفور فكانت من النوع الملكي المطلق وقد كان السلطان سليمان الأول ولي على البلاد نواباً من أهلها وجعل مع كل نائب عدة شراتي أو مدراء ومع كل شرتاي عدة دمالج أو مامورين ومع كل مامور عدة مشائخ بلد فبقي هذا النظام الى أيام السلطان موسى سنة ١١٢٦ه/١٧١٥م فرأى عدم الإخلاص من النواب الوطنيين فعين عليهم أربعة مقاديم من رجال حاشيته الأخصاء في كل جهة من الجهات الأربع مقدوماً وجرد الواب من السلطة إلا أنه أبقاهم في مراكزهم يحكمون بالإسم فقط و إستمر هذا النظام الى إنتهاء السلطنة (٤) .

---

(١) الداجو : أصلهم مجهول ، جاءوا من إقليم فازوغلي جنوب سنار في الفترة مابين (١٨٤٩ ـ١٨٥٥م) ويطلقون على أنفسهم أناس فرعون) .
مصطفى مسعد ـ سلطنة الفور مكتبة دار الوثائق القومية بالخرطوم ص ٢٢٣ .

(٢) التنجور : خلفوا الداجو على حكم دارفور ، قيل أن أصلهم من عرب بني هلال شمال أفريقيا أومن العباسيين هاجروا إلى السودان بعد زوال دولتهم أو أنهم من نوبة دنقلة ـ محمد عوض ـ السودان الشمالي ص ٢٦٨/٢٦٩ .

(٣) مصطفى مسعد ـ سلطنة دارفور ـ مرجع سابق ص ٢٢٣ .

(٤) مصطفى مسعد ـ سلطنة الفور مرجع سابق ص ٢٤٣ .



أما نظام ملكية الأراضي في سلطنة دارفور فالأرض ومن عليها ملك للسلطان يقطعها لمن يشاء من خاصته ورعاياه وقد قسم سلاطين دارفور الأراضي الزراعية إلى حواكير (إقطاعيات) إقتطعوها لأفراد البيت الحاكم والفقهاء وكبار رجال الدولة بمقتضى حجج مختومة بأختامهم . كما قسمت البادية فحظيت كل قبيلة بأمير من أبناء السلاطين تجبى له زكاتها .

أما القضاء فكان شرعياً بالكتاب والسنة وعرفياً وهو ماعرف بقانون دالي (١) وقد كانت لسلطنة دارفور علاقات تجارية وعلمية مع مدراء كردفان و مصر والحجاز وكانت ترسل الصرة و المحمل إلى الحرمين كل عام فكان موكب المحمل يأتي مصر وهو محمل بخيرات البلاد فتباع ويستبدل ثمنها نقوداً لصرة ثم يرافق حجيج السلطنة الحجيج المصري إلى الحرمين الشريفين .

أما الجانب العسكري فلم يكن للسلطنة جيش منظم حتى قام السلطان حسين سنة ١٢٥٤هـ / ١٨٣٩م فنظم جيشاً من عبيده و سلحهم بالبنادق وبقي هذا الجيش إلى زمن السلطان ابراهيم فحارب به الزبير باشا وقد دخلت سلطنة الفور في حروب مع كل من تقلي(٢) ووادای (٣) والمسبعات (٤).

---

(١) قانون دالي ـ كتاب جمع فيه كل الأحكام العرفية ودالي في لغة الفور تعني (اللسان) ويراد بهذا القانون (لسان السلطان) كما أن هناك إعتقاد بأن دالي أحد سلاطين الفور السابقين .
نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ١٧٩ .

(٢) يوسف فضل ـ تاريخ الممالك الاسلامية مرجع سابق ص ١٠٤ .

(٣) المرجع السابق ص ١٠٨ .

(٤) سلطنة نشأت في الجزء الاوسط الشرقي لكردفان في أواخر القرن السادس عشر الميلادي وملوكها أصلهم من ملوك الفور ولكن غلبت عليهم الدماء العربية واللسان العربي نتيجة مخالطتهم العرب واعتناقهم الديانة الاسلامية .
يوسف فضل ـــ مقدمة في تاريخ الممالك الاسلامية في السودان . مرجع سابق ص ١٠٧/ ١١٣ .




وخلاصة القول فإن سلطنة دارفور ظلت دولة مستقلة لاتدفع ضريبة لأحد ، أما الحرمين الشريفين فقد خصتهما بارسال بعض الأموال هبة وقربة الى الله واكراماً للعلماء وطلاب العلم في الحرمين الشريفين وكانت هذه الهبة ترسل سنوياً الى الديار المقدسة حتى دخلت دارفور تحت الادارة العثمانية سنة ١٨٧٥م وفي سنة ١٨٨٣م دخلت تحت نفوذ المهدية وخلال العهد المصري جرت عدة محاولات من بعض الأمراء الدارفوريين لإسترداد ملك آبائهم و إستطاع أحد أولئك الأمراء و هو علي دينار (١) أن يظفر بحكم دارفور بعد إسترداد السودان سنة١٨٩٦م بشرط دفع الضرائب المقررة لحكومة السودان وتلقب علي دينار بلقب (سلطان) وظل على حكم دارفور حتى سنة ١٩١٦م وفي هذه السنة جردت عليه حكومة السودان حملة أنهت حكم سلالة سلاطين دارفور وأمست دارفور مديرية من مديريات السودان الحديث (٢).

ج/ سلطنة تقلي :

إن القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي الذي شهد قيام سلطنة الفونج الإسلامية في شمال ووسط وشرق السودان الحاضروهي جزء مما عرف سابقاً ببلاد النوبة ، شهد كذلك قيام سلطنة إسلامية أخرى هي سلطنة تقلي التي برزت في إقليم كردفان الواقع بين سلطنتي الفور والفونج ، وقد بدأت سلطنة تقلي تأخذ طابعها الإسلامي عندما جلس على عرشها أول حاكم مسلم هو جيلي أبوجريدة سنة ١٧٥٠م (٣)وقد جلس بعده على عرش تقلي حوالي عشرة حكام مسلمين آخرهم عمر بن أبكر و الذي حكم بين عامي ١٨١٤ ـ١٨٢٧م (٤) .

---

(١) علي دينار إبن الأمير زكريا إبن السلطان محمد الفضل أحد سلاطين دارفور

(٢) نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ١٨٩ .

(٣) جيلي أبوجريدة إبن محمد الجعلي الذي تزوج إبنة ملك تقلي غير المسلم و يسمى كير كير وذلك سنة ١٥٤٠م وكان محمد الجعلي رجلاً صالحاً يدعو الناس إلى تعاليم الإسلام فنشأ الإبن على نهج والده ولما توفى جده لامه (كير كير) ورث العرش عينه فكان أول حاكم مسلم يتولى أمر سلطنة تقلي .
يوسف فضل ـ مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان ط٢ ١٣٩٢ ـ ١٩٧٢م ص ٩٨ .

(٤) يوسف فضل تاريخ الممالك مرجع سابق ص ١٠٢ .




وحكام تقلي يرجعون في أصلهم إلى الجعليين في الشمال و إن كان بعض الروايات تردهم إلى الرباطاب و على كل فقد ضاعت أصول أنسابهم وبقاياهم تعرف بالتقلاويين تمييزاً لهم عن الجعليين و النوبة .

تبلغ مساحة هذه الدولة حوالي أربعين ميلاً مربعاً (١) من أبوحبل شمالاً إلى تلودي جنوباً ومن توكلم وتوجوك غرباً إلى أبي طلحة شرقاً (٢) .

أن ملوك تقلي كانوا يهدفون إلى نشر الإسلام وثقافته وفق خطة معلومة منها التبشير الدعوي و المصاهرة كما شجعوا القبائل العربية للإستيطان في ديارهم كما عملوا على دعوة العلماء و الفقهاء و إكرامهم و إغراءهم على الإستقرار في كنفهم فكان لهذا أثره في نشر الإسلام و الثقافة العربية في تلك المنطقة (٣)

وقد تبادل ملوك تقلي التجارة مع سلطنة الفور و الفونج و الحجاز (٤) .كما دخلوا أيضاً في حروب مع سلطنة الفور و الفونج والمسبعات (٥) كذلك فإن للإنقسامات التي أصابت البيت الحاكم أثرها في إضعاف سلطة الدولة وهيبتها مما أطمع فيها كل من الفونج و الفور و على الرغم من أنها دفعت ضريبة لسلطنة الفونج فترة من الزمن إلا أنها ظلت باقية مع شبه إستقلال عن الفور و الفونج حتى دخول محمد على السودان (٦) .

---

(١) يوسف فضل ـ تاريخ الممالك مرجع سابق ص ١٠٠ .

(٢) محمد عوض ـ السودان الشمالي مرجع سابق ص ٢٥٩ .

(٣) يوسف فضل ـ تاريخ الممالك مرجع سابق ص ١٠٢ .

(٤) نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ١٠٩ .

(٥) محمد عمر التونسي : تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ص ٨٤ القاهرة ١٩٦٥ .

(٦) يوسف فضل تاريخ الممالك مرجع سابق ص ١٠٤ .

الأحوال الإجتماعية :

المجتمع السوداني مجتمع قبلي في طابعه العام ، فكل منطقة من أرضه الواسعة تضم قبيلة أو مجموعة قبائل ، لكل قبيلة أو منطقة شيخ أو زعيم يدين له الجميع بالولاء و الطاعة .

ففي الشرق نجد قبائل البجة أو البجاة و هم يسكنون في المنطقة الواقعة بين البحر الأحمر شرقاً و نهر عطبرة ثم نهر النيل غرباً ، وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب إلى نهاية مديرية أسوان في الشمال . والبجاة شعب عُرف منذ أزمان سحيقة حتى أن قدماء المصريين كانوا يطلقون عليه إسم (المازوي) أو (الماجوي)(١).

و البجا قبائل لا تمت إلى أصول عربية فظلت تحافظ على أصولها إلى حد كبير ، و ظلوا يتكلمون لغة حامية تعرف (بالتبداوى) أو (بداويت) ثم بعد دخول العرب أصبح كثيرون يتحدثون باللغة العربية ، لكنها لم تصبح لغتهم الأصلية (٢) .

وتضم مجموعة البجاة قبائل شتى أهمها البشاريون و الأمرأر ، و الهدندوة وبني عامر ، و الأخيرة و إن كانت من البجة إلا أنها تتكلم لغة سامية تختلف عن لغة البجاة (٣) .

و بالإضافة إلى هذه القبائل الكبيرة تضم مجموعة البجة قبائل أخرى صغيرة أو أقل شأناً مثل الأشراف و الأرتيقا، و الكملاب ، و الحلنقا وغيرهم وبعض هذه القبائل تدور في فلك القبائل الكبيرة و ترتبط بها و لكن أكثرهم يدعي الإستقلال (٤) .

---

(١) محمد عوض ـ السوداني الشمالي سكانه وقبائله مرجع سابق ص ٢٢ /٢٣ .

(٢) محمد عوض ـ السودان الشمالي سكانه وقبائله مرجع سابق ص ٢٧.

(٣) عبدالمجيد عابدين ـ تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ١٥ بيروت ١٩٧٠م .

(٤) محمد عوض ـ السودان الشمالي سكانه وقبائله مرجع سابق ص ٢٦ .



وقد جاور البجاة بعض القبائل العربية فخالطهم بعضها مثل الكواهلة ، و لم يخالطهم بعضها الآخر كقبائل الرشايدة .

و الكواهلة قبيلة من القبائل العربية تنتمي إلى كاهل إبن أسد بن خذيمة و إليه ترجع قبيلة أسد التي كان يحكمها حجر أبو أمرئ القيس الشاعر في شمال نجد .

وقد جاور الكواهلة في السودان البجة و خالطوهم في فترات تاريخية سابقة ، أما في الوقت الحاضر فلا يجاوزون البجة و إنما ينتشرون في أماكن حول النيل الأبيض وفي كردفان (١) .

أما الرشايدة فهم أهل القبائل العربية التي تجاور البجة ، و هم يمثلون أحدث الهجرات العربية التي نزحت من جزيرة العرب إلى السودان ، وقد سكن بعضهم أرتيريا ، كما إستقر معظمهم في منطقة نهر عطبرة ، وعلى الرغم من أن الرشايدة يجاورون البجة إلا أنهم لم يخالطوهم ، و هم يعتبرون أقل القبائل العربية عدداً في السودان (٢) .

و البجة و من جاورهم من القبائل يمتهنون في غالبيتهم رعي الإبل و الماشية و الأغنام ، وبعضهم يعملون في الزراعة وقليل منهم يمارسون التجارة والعمل في المدن الكبيرة مثل القضارف وكسلا و عطبرة و بورتسودان .

أما سهل البطانة الواقع بين النيل الأزرق جنوباً ونهرعطبرة شمالاً فتسكنه قبائل الشكرية وهي قبائل عربية من جهينة يمتهنون الرعي وبعض الزراعة وأهم مراكزهم رفاعة وتمبول وأبو دليق (٣) .

---

(١) محمد عوض : السودان الشمالي مرجع سابق ص ١٤٣ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٦.

(٣) المرجع السابق ص ١٥٦ .




أما إذا تتبعنا النيل من الشمال متجهين إلى الجنوب فإننا نجد على ضفافه قبائل النوبة و هم شعب قديم لا زموا أوطانهم الحالية بضعة آلاف من السنين ورغم أن العرب خالطوهم إلا أنهم ظلوا متمسكين بثقافتهم و بلغتهم الخاصة مما يدل على أن الهجرات العربية لم تكن من القوة بحيث لم تستطع إزالة الثقافة النوبية (١) .

و النوبة شعب يحترف الزراعة على ضفاف النيل و تضم المجموعة النوبية عدداً من القبائل أهمها الكنوز ، و السّكوت ، و المحس ، و الدناقلة و هم يتحدثون اللغة النوبية القديمة إحدى اللغات الحامية في السودان (٢) .

و يلي النوبة جنوباً الشايقية ، و الجعليون وهم قبائل عربية يرجعون في أنسابهم إلى العباس إبن عبدالمطلب و يمتهنون الزراعة و الرعي و التجارة والصيد (٣) قريباً من أوطانهم ،و اليوم نجدهم منتشرون في كافة أنحاء السودان وهذه القبائل هي التي لعبت دوراً عظيماً في نشر الثقافة العربية والإسلامية في معظم أنحاء السودان ، و ذلك لإنتشارهم الواسع وعدم إستقرارهم في مكان معين .

ومن أرض النيل في إتجاه الغرب حيث سهول كردفان و دارفور ، التي يتدرج المناخ فيها من الصحراوي في الشمال إلى الاستوائي في الجنوب فإننا هنا نجد قبائل عربية و أخرى غير عربية : فمن القبائل العربية الكبابيش في الشمال حيث يزاولون رعي الإبل ، أما القبائل العربية التي توغلت جنوباً فقد عجزت إبلهم عن التأقلم في تلك المنطقة لطبيعة المناخ فاستبدلوها برعي البقر فعرفوا بالبقارة وأهم هذه القبائل الرزيقات ، والهبانية ، والتعايشة وبني هلبة (٤).

---

(١) محمد عوض : السودان الشمالي مرجع سابق ص ٢٥٨ .

(٢) عبدالمجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان مرجع سابق ص ١٤ .

(٣) عباس محمد مالك : العرب العباسيون في السودان ص ١ . ط ١ الخرطوم بحري ١٩٨٧م .

(٤) هذه القبائل سيأتي الحديث عنها بالتفصيل في المبحث الأول من الفصل الثاني بمشيئة الله تعالى .

وفي الشمال أيضاً تسكن قبائل الهواوير ، والزيادية والمحاميد والميدوب ، والبديات ، وهي قبائل عربية إختلطت ببعض القبائل المختلفة ذات الجذور غير العربية كالبرتي ، والزغاوة (١).

أما أشهر شعب في هذه المنطقة فهم الفور ، وتضم الفور مجموعة كبيرة من القبائل و هم أهل الإقليم الأصليين ، وقد أخذ الإقليم إسمه منهم ، و الفور زنوج في أصلهم ، ولكن جزءاً كبيراً منهم إمتزج بالعرب ومن هؤلاء الأسرة التي كانت تحكم دارفور قبل دخول الجيش المصري وهم يمتهنون الرعي والزراعة (٢) .

و إذا تركنا كردفان ودارفور و إتجهنا شرقاً إلى أرض الجزيرة و هي السهل المحصور بين النيل الأبيض غرباً و النيل الأزرق شرقاً و الذي يكون مثلثاً قاعدته جنوباً عند منطقة أعلى النيل و تمثل مدينة الخرطوم رأسه شمالاً حيث يلتقي النيلان الأزرق و الأبيض و يكونان معاً نهر النيل الذي يتجه شمالاً ليصب في البحر الأبيض المتوسط .

فقد استوطن أرض الجزيرة هذه ، قبائل عربية صرفة كالكواهلة ، والمسلمية و الحسانية ، واللحويين ، و الخوالدة ، و البطاحين ، والرفاعيين وهي قبائل معظمها تتصل بالجعليين ذات الأصل العباسي (٣).

ونترك شمال السودان حيث غلب عليه الدم العربي و الثقافة العربية الإسلامية و نتجه إلى جنوب السودان حيث تعيش القبائل الزنجية التي لها ثقافة غير عربية ، و أهم هذه القبائل قبيلة الدنكا والشلك والنوير وهي أشهر قبائل الجنوب و أكثرها عدداً (٤) . و قد تأثر بعض هذه القبائل بالدين الإسلامي والمؤثرات العربية (٥) .

---

(١) موسى المبارك الحسن : تاريخ دارفور السياسي ص ١٥ ، ١٦ جامعة الخرطوم

(٢) المرجع السابق ص ١٨ ، ١٩.

(٣) محمد عوض ـ السودان الشمالي سكانه وقبائله ط الثانية ص ٢١٤/٢١٥ .

(٤) د. محمد المعتصم : جنوب السودان في مائة عام ص ٤٤ . ط ١ ١٩٧١ م

(٥) علي حسن عبدالله : الحكم والإدارة في السودان . ص ٥٨ / ٥٩ . القاهرة ١٩٨٦



ذلك هو المجتمع السوداني من ناحية التوزيع الجغرافي بالنسبة للقبائل . وسنتحدث فيما يلي عن بعض عناصر التماسك في هذه المجتمعات السودانية قبل دخول محمد علي ثم نتعرض للعوامل التي تأثر بها المجتمع السوداني بعد ضم محمد علي للسودان .

إن الباحث في المجتمع السوداني يجد خطين متباينين في المجتمع السوداني أولى هذه الخطوط أن القبائل في شمال السودان بأسره شرقه ووسطه و غربه قبائل ذات طابع عربي مسلم ، أما القبائل التي تقع في الجزء الجنوبي من السودان بأسره شرقه ووسطه و غربه فإنها قبائل ذات طابع زنجي غير مسلم . ولذلك استغل الانجليز عند استعمارهم السودان هذا التباين في الاعراف والديانة لبذر بذور الشقاق بين شمال السودان وجنوبه .

وتبعاً لهذا التوزيع العرقي و الديني اختلفت التقاليد والعادات ، فالبنسبة للمجتمع الشمالي تحكمه التقاليد العربية والأحكام الإسلامية في الزواج و الولادة والوفاة .

أما المجتمع الجنوبي غير العربي فتحكمه تقاليد القبيلة الزنجية الموروثة منذ القدم و لما كان عدد الأبقار هو الذي يحدد مركز الشخص الإجتماعي في الجنوب فلذلك نجدهم يحرصون على العناية بالماشية و تربيتها و تبعاً لثروة الرجل يكون عدد الزوجات عنده دون ضابط أو عدد محدد لهؤلاء الزوجات لأن المهر يدفع بالأبقار ، و ما دام الرجل يملك ثروة كبيرة يمكن أن يكون له عدد كبير من الزوجات بالإضافة إلى أن الإبن يرث زوجات أبيه ماعدا أمه ، أما من ناحية الطلاق فيمكن للرجل أن يسترد الأبقار التي مهر بها المرأة متى تم الطلاق (١) .

---

(١) د . محمد المعتصم – جنوب السودان في مائة عام مرجع سابق ص ٥٨ .




أما المسيحية فلم تعرف طريقها إلى الجنوب إلا من خلال الأوروبيين الذين قدموا إليه في العهد التركي (العثماني) و ما بعده (١) ، و على الرغم من إدعاء الكنيسة اليوم أن الجنوب مسيحي الديانة إلا أن المسلمين من الجنوبيين أكثر بكثير من الذين يدعون الإنتساب إلى المسيحية وان كان الحكم المصري التركي يتحمل الكثير من جريرة إدخال الأوروبيين في الجنوب إلا أن التاريخ سجل له أيادي بيضاء بنشر الثقافة العربية و الإسلامية في الجنوب حيث بنيت المساجد و أرسلت الدعاة مما كان له الأثر الفعال في إعتناق الكثيرين للإسلام يضاف إلى هذا ما بذله التجار المسلمون في هذا المضمار و على رأسهم الزبير باشا رحمت ، و سيأتي ذكر ذلك في الفصل الأول من هذا البحث بمشيئة الله تعالى ، و كما أن لكل قبيلة في المجتمع الشمالي العربي شيخاً يأمر فيطاع و يرعى مصالح القبيلة فكذلك الحال بالنسبة للقبائل الزنجية في جنوب السودان بل إن شيخ القبيلة في الجنوب يضاف إليه مكانة روحية بالإضافة لوضعه القبلي و شيخ القبيلة هو الذي يصدر الأحكام ضد اللصوص والقتلة و مرتكبي الجرائم . كما أن القبائل في الشمال مترابطة و كذلك الحال في الجنوب ، بل إن ترابط المجتمعات في الجنوب بلغ درجة جعلت الفرد منها لا يعيش لنفسه بل يتم تكوين مراحل عمره المختلفة على أساس المشاركة التامة بين أبناء الجيل الواحد في كل شئ ، فهناك مجتمع الصبية ، ثم الفتيان ، ثم الشباب ، فالرجال فالكهول ، فالشيوخ ، ولكل طبقة وظيفتها في الحياة كحلب البقر و الصيد و الرعي ، و الزراعة و الحرب ، و غير ذلك (٢).

و الجنوبيون يتحدثون لهجات محلية كثيرة مختلفة وإن اتفقت في بعض الألفاظ أو الكلمات نتيجة لتداخل بعض القبائل (٣).

---

(١) مصطفى خالد وعمر فروخ ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ص ١٤٩/ ١٥٠ ط ١٩٨٦م ـ المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت .

(٢) د/ محمد المعتصم ـ جنوب السودان في مائة عام مرجع سابق ص ٤٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٧ .



أما الناحية الإقتصادية في الجنوب فالمجتمع الجنوبي كالمجتمع في الشمال موزع بين حرفتي الرعي و الزراعة ، و إن كانت حرفة الرعي هي الغالبة في الجنوب و بينما يرعى الشماليون الإبل و الماعز و الأغنام و الأبقار و الخيول وغيرها نجد أن الجنوبيون يعتنون برعاية الماشية و تربيتها فقط ، كما أنهم يحترفون صيد الأسماك لكثرة الأنهار في مواطنهم . كذلك يقوم الجنوبيون بصيد الحيوانات البرية كالفيل و النمر ، ووحيد القرن لوجود هذه الحيوانات في مناطقهم بكثرة و إن كان الصيد الأوروبي الإستثماري قد أضرّ بها و أخل فيها بالتوازن الطبقي النافع .

المجتمع السوداني تحت حكم محمد علي :

لقد حافظ المجتمع السوداني على هيئته سالفة الذكر فترة طويلة من الزمن قبل أن يضم محمد علي السودان في عام ١٢٣٦هـ /١٨٢١م إلى سلطته ، و لكن بعد ذلك حدثت تغيرات كثيرة نتيجة لعوامل مختلفة أهمها عامل ضم السودان للحكم العثماني فمما لا شك فيه أنه كان هناك بعض القبائل التي وقفت في وجه جيش محمد علي وتصدت له عند دخوله السودان و على رأسها قبيلة الشايقية و على الرغم مما أبدته هذه القبيلة من بسالة و تضحية إلا أن الغلبة في النهاية كانت للأسلحة النارية التي كان يستخدمها جيش محمد علي مقابل السيوف و الرماح التي إستخدمها السودانيون الكارهون لحكم محمد علي باشا و قد دفعت الهزائم التي حلت بهذه القبائل إلى أن يترك بعضها مناطقهم رافضين الخضوع لسلطة رجال محمد علي باشا أو أبنائه (١) .

ففي سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٣م قام المك نمر ملك الجعليين في شندي بإشعال النار في معسكر الأمير إسماعيل بن محمد علي فقتل هو و حاشيته حرقاً و ذلك عندما فرض إسماعيل ضريبة لا قبل للمك نمر بها (٢) فما كان من الدفتردار صهر محمد علي و الذي كان في ذلك الوقت في كردفان إلا أن قاد حملة إنتقام عظمى إذأحرق الكثير من المدن و القرى و قتل و سبى جموعاً غفيرة من السودانيين عامة(٣) فكان هذا الإنتقام من أعظم الدوافع التي أرغمت كثيراً من الجعليين ومن جاورهم على ترك مناطقهم فراراً من وجه الدفتردار و حفاظاً على حياتهم ، وقد أدت هذه الهجرات إلى تغيرات إجتماعية حيث سكن الشايقية و الجعليون مناطق غير مناطقهم الأصلية التي كانوا يعيشون فيها .

---

(١) نعوم شقير ـ تاريخ السودان ـ مصدر سابق ص١٩٧

(٢) مكي شبيكة ـ تاريخ شعوب وادي النيل ص ٣٤٤ دار الثقافة بيروت .

(٣) الحقيقة رغم أن محمد علي دخل بجيشه السودان تحت راية الدولة العثمانية وهي راية اسلامية إلا أن ما قام به قادته من فظائع وخاصة الدفتردار لا يمت إلى الإسلام بصلة بل ظلت أفعال قادة محمد علي توسم صحائف العثمانيين عند السودانيين بكل ما هو قبيح .



قلنا إن الحروب التي تلت ضم السودان للحكم العثماني أدت إلى نزوح بعض القبائل ولكن بعد أن استتب الأمر للحكم العثماني ظهرت بعض المدن فنزحت بعض الجماعات للاستيطان والاستقرار في هذه المدن وبالتالي أدى هذا الاستقرار الى بعض التغيرات في التركيبة الاجتماعية ومن هذه المدن مدينة الخرطوم إذ قامت فيها صناعة السفن لمقابلة متطلبات الإبحار جنوباً عبر النيل الأبيض و الأزرق ، و لأجل ذلك شجع رجال الحكم هجرة الشماليين جنوباً في إتجاه الخرطوم لإعمارها و الإستفادة من الأيدي العاملة ومن خبرة الشماليين في صناعة السفن النيلية مما كان له أثره في نزوح جماعات كثيرة من الشماليين نحو الجنوب(١)

ومن العوامل التي أثرت في التركيبة الإجتماعية خطة محمد علي التي وضعها لجلب أعداداً كثيرة من المسترقين ، فسير حملات منظمة هاجمت بعض قبائل الجنوب طلباً للمسترقين .

ومن هذه العوامل أيضاً إستغلال كثير من تجار الرقيق حاجة محمد علي لشراء المسترقين فقادوا حملات منظمة في جنوب السودان وجنوب غرب دارفور مما إضطر بعض القبائل إلى ترك مواطنها و النزوح إلى مناطق أخرى أكثر أمناً وإستقراراً (٢) .

ومن العوامل التي أثرت في التركيبة الإجتماعية الضرائب التي وضعها محمد علي بعد ضمه للسودان فقد كان لفرض الضرائب الباهظة عبء ثقيل على كاهل السكان فعجزت بعض القبائل عن دفعها مما أدى إلى قيام قوات محمد علي بتأديبها ، ففرت بعض القبائل من وجه قوات الحكومة كقبيلة الهدندوة (٣) في شرق السودان

---

(١) كما الدين نورالدين : آثار الأتراك العثمانيين في السودان (١٢٣٦ ـ ١٣٠١ هـ) ص ١٧٠ رسالة ماجستير جامعة أم القرى ١٤١٠هـ ..

(٢) **Shokry , Khedeiwe Ismail and Slavery In the Sudan , P. 76 Cairo 1938 .**

(٣) ضرار صالح ضرار : ـ تاريخ السودان الحديث ص ط ٤ دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٨ .




وكقبيلة الرزيقات في غربه (١) حيث استقرت كل قبيلة في أصقاع تختلف عن الأصقاع التي عاشت فيها .

أيضاً ابتدع الحكام العثمانيون بعض الوسائل للتأثير على ولاء القبائل في السودان فيما كان له أثره في تركيبة المجتمع ، ومن هذه الوسائل تجنيد رجال القبائل وضم فرسانها إلى صفوف قوات الحكومة مما أدى إلى إندثار النظام القبلي المعروف في كثير من مناطق السودان و كان هدف الحكومة المحافظة على الأمن والإستقرار و جمع الضرائب .

ومن القبائل التي انضم فرسانها إلى قوات الحكومة العثمانية في مصر وأصبحت لها سلطة على القبائل الأخرى قبيلة الشايقية (٢) .

ومن الوسائل التي ابتدعها الحكم العثماني لترسيخ سلطته تقريب بعض القبائل كقبيلة الشكرية و التي كان على رأسها أحمد أبوسن وقبيلة الكبابيش و على رأسها فضل التوم و إعطائهم سلطات واسعة لم تعط لغيرهم من سائر مشائخ القبائل (٣) .

وبعد القضاء على الدولة المهدية سنة ١٣١٥هـ/١٨٩٩م في السودان قرّب الحكم الانجليزي العثماني بعض الطوائف الدينية على بعض كتقريبهم طائفة الختمية بقيادة محمد عثمان الختم ، و طائفة الأنصار بقيادة عبدالرحمن المهدي ووضعوا تحت يدي هذين الزعيمين الكثير من السلطات الإدارية و التجارية بالإضافة إلى السلطات الدينية وكان الغرض كسب رضى أتباع الطائفتين .

و خلاصة الأمر فالمجتمع السوداني رغم ما طرأ عليه من حركة بعض القبائل إلا أنه حافظ على تباينه بين الشمال والجنوب حيث لكل قسم خصائصه ومميزاته .

---

(١) محمد محجوب مالك : المقاومة الداخلية للثورة المهدية ص ٤٠ ط ١ بيروت دار الجيل ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧ م

(٢) نسيم حقار : رحلة واد بختون في السودان ١٨٢٠/ ١٨٢١م . عرض و تحليل المجلة المصرية ، المجلد ، ١٤ ـ ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م . ص ٢٤٨

(٣) محمد محجوب مالك : المقاومة الداخلية للثورة المهدية مرجع سابق ص ٢٣٦ / ٢٣٧ .

القسم الأول : شمال السودان و يقطنه العرب المسلمون و يكاد يكون متشابهاً في كل عاداته و تقاليده و طرائق حياته رغم التباين الواضح في مناطقه الجغرافية الجبلية و النيلية و السهلية و الصحراوية .

القسم الثاني : جنوب السودان ذو الأغلبية الزنجية غير العربية و هو أيضاً تتشابه عاداته و تقاليده و طرق حياته التي تختلف إختلافاً بيناً مع العادات و التقاليد وطرق الحياة في شمال السودان .

الحالة الإقتصادية في السودان منذ حكم محمد علي باشا

منذ أزمنة سحيقة عرف السودان العلاقات التجارية مع جيرانه سواء هذا في شبه الجزيرة العربية أو بقية القارة الأفريقية بوجه عام ، و مصر على وجه الخصوص .

ولعل هناك عدة عوامل ساعدت على نمو و إزدهار التجارة منذ القدم بين السودان و جيرانه من أهمها الموقع الجغرافي حيث أن البحر الأحمر وسيط نقل سهل بين السودان و شبه الجزيرة العربية ، كذلك ربط النيل بين السودان ومصر بالإضافة إلى عدم وجود حواجز صعبة بين السودان و بقية جيرانه مما يسر طرقاً برية و مائية سالكة سهلة المعابر آمنة (١) و هذه العوامل سالفة الذكر ربطت بين السودان و جيرانه عامة أما العوامل التي أدت إلى إزدهار التجارة بين السودان ومصر خاصة فهي كثيرة ، بالإضافة إلى النيل ، هناك عدة طرق برية سهلة بعضها محاذٍ للنيل وبعضها محاذٍ لسواحل البحر الأحمر و بعضها عبر الصحراء كطريق الأربعين الذي يربط كردفان و دارفور في غرب السودان بالواحات الغربية في مصر(٢) .

ومن العوامل التي ساعدت على نمو التجارة و إزدهارها بين البلدين حاجة مصر لكثير من المنتجات التي لا تتوفر فيها ، مما دفع بأبنائها منذ القدم إلى البحث عن مصادر هذه المنتجات ، فخرجت قوافل قدماء المصريين ، و اتجه الفراعنة عبر

---

(١) حسين مؤنس ـ الإسلام الفاتح ص ١٦٩/١٧٠ دار أصفهان للطباعة بجده ١٤٠١هـ .

(٢) مصطفى مسعد ـ سلطنة دارفور تاريخها وبعض مظاهر حضارتها ص ٢١٦ ـ مكتبة دار الوثائق القومية بالخرطوم .



النيل حتى وصلوا إلى أجزاء نائية من القارة الأفريقية (١) ، كما وثّق الفراعنة صلاتهم بسواحل الصومال و أرتيريا و شبه الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر(٢) .

كما أن حاجة مصر إلى هذه المنتجات دفعت إليها بعض من الآسيوين والأوروبيين و الأفريقيين (٣) و الذين جلبوا اليها بعض البضائع السودانية مما ساعدت على إزدهار التجارة بين السودان و مصر طبيعة بلاد السودان كمصدر لمنتجات زراعية و حيوانية ومعدنية(٤) و قد كان لها الأثر الكبير في دفع الفراعنة و المعينيين والسبئيين والأحباش و الرومان و المسلمين من بعدهم للحصول على هذه المنتجات و الحرص على إستغلالها و الإتجار بها (٥) .

و على الرغم من العوامل السابقة التي ساعدت على نمو التجارة و إزدهارها إلا أن التجارة كانت تحوطها بعض المخاطر في بعض الأحيان من هذه المخاطر أن السودان لم يكن يخضع لحكومة واحدة ، وبذلك لم تكن التجارة منظمة بل كانت تخضع لرغبة الأفراد و لمدى تحملهم للمخاطر ، كما أن الحروب بين القبائل أو الدويلات كثيراً ما كانت تؤدي إلى تعطيل التجارة الداخلية و الخارجية على السواء.

لكن بخضوع السودان للحكم العثماني المصري في عام ١٣٣٦هـ / ١٨٢١م دخلت البلاد مرحلة جديدة لعل من أبرز سماتها أن السودان أصبح وحدة سياسية واحدة ، وبالتالي خضع لحكومة واحدة و إنتظمته نظم إدارية واحدة كما أن المدن والطرق التي بينها خضعت للمراقبة العسكرية مما أدى إلى استتباب الأمن في كافة أجزاء السودان (٦)

---

(١) رولاند اوليفر وجون فنج : موجز تاريخ أفريقيا ص ٢٩ . ترجمة دولة أحمد صادق ، الدار المصرية للتأليف والنشر – القاهرة .

(٢) عبد الله خورشيد – القبائل العربية في مصر في الثلاثة قرون الأولى للهجرة ص ١٠ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧م .

(٣) توفيق اليوزبكي : تاريخ تجارة مصر في عصر المماليك ص ٥٦ . جامعة الموصل – الموصل ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م .

(٤) ياقوت : أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي . معجم البلدان ج ٤ ص ١٤٥. تحقيق فرديناند وستنفيلد – المانيا ١٨٦٦/١٨٧٠م .

(٥) توفيق اليوزبكي – تاريخ تجارة مصر مرجع سابق ص٦٨ .

(٦) محمد عمربشير – جنوب السودان ص ٣٢ ترجمة أسعد حليم - الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١ .

ومن المعلوم بالضرورة أن إزدهار التجارة يأتي تبعاً للإستقرار السياسي وإستتباب الأمن ، وهذا هو الذي حدث في السودان في عهد محمد علي و خلفائه ، ولقد كان من أبرز العوامل التي دفعت محمد علي إلى ضم السودان مايلي :

أولاً: إحضار العبيد و الرجال للعسكرية و الخدمات (١).

ثانياً: جلب الموارد الإقتصادية المختلفة أما إحضاره للرجال و العبيد فكان لرغبته القوية في إنشاء جيش قوي من المصريين والسودانين يحمي به سلطنته الواسعة (٢).

و أما جلبه الموارد الإقتصادية المختلفة فلأنه أراد أن يبني دولة كبرى على غرار الدول الأوروبية مما يتطلب قوة إقتصادية كبيرة ، لذلك سأتناول جهود محمد علي الإقتصادية في السودان لأنها كانت هي الأساس الذي سارت عليه الحكومات المصرية من بعده و حتى نهاية فترة حكمها في السودان .

---

(١) علي حسن عبد الله – الحكم والإدارة في السودان ص ٢٥ ط ١ . دار المستقبل العربي القاهرة ١٩٨٦ م .

(٢) نعوم شقير تاريخ السودان – مصدر سابق ص ١٩٣/١٩٤ .




أولاً: جهود محمد علي في تطوير الثروة المعدنية والزراعية والحيوانية:

سمع محمد علي باشا بما رواه المؤرخون العرب عن وجود الذهب في جبل العلاقي في بلاد النوبة ، فأرسل حسن بك حاكم إسنا مع جماعة من الجنود بصحبة أحد الإغريق للبحث عن ذلك المعدن (١) كما أرسل محمد علي فريقاً للتنقيب عن الكبريت في جهات البحر الأحمر و ذلك لإستخدامه في المهمات الحربية (٢) و قد إستخدم محمد علي في هذا المجال بعض العلماء الفرنسيين (٣) .

و في جهات سواكن أيضاً أرسل محمد علي باشا فرقاً أخرى للتنقيب عن الفحم و الرصاص و الكحل (٤) .

اهتم محمد علي باشا أيضاً بالبحث عن الذهب في جبل شيبون في جنوب كردفان ، وجهات فازوغلي ، وجبال بني شنقول و أرسل الأوروبيين المتخصصين للمساعدة في إستخراج هذا المعدن و أخبار جودته ، فأرسل في عام ١٢٥٢هـ/١٨٣٧م بعثتين الأولى بقيادة المهندس روسيجير (RUSSEGGER) و الثانية بقيادة المهندس بورياني (PIODMONTESE BOREIANI) (٥) و أرسل معهم ألف عسكري بقيادة مصطفى بك مامور سنار لحمايتهم (٦) و هذه الحماية العسكرية تدل على إهتمام الباشا بالتنقيب

---

(١) Douin : Historie du Sudan Egyptien . Cairo PP. 69 - 70 Cairo 1944

(٢) الدفتر رقم ٥ معية تركي المرسوم رقم ١١٠ بتاريخ ٤ من جمادي الثانية ١٢٣٥هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) د/ حسن أحمد إبراهيم : محمد علي في السودان ص ٩٨ . دار التأليف والترجمة جامعة الخرطوم .

(٤) الدفتر رقم ٥ معية تركي الأمر رقم ٤ في ١٨ من محرم سنة ١٢٣٥هـ .

(٥) **Hill R . Egyptian in the Sudan P. 66 . London 1958 .**

(٦) د/ حسن محمد إبراهيم : محمدعلي في السودان مرجع سابق ص ١٠٢ .




عن الذهب كما أنه أصدر أوامر للحكمدار أبودان بإعداد عشرة آلاف عامل للتنقيب و ذلك عن طريق الغزو أو الشراء (١) مع إعداد المؤونة اللازمة لهم (٢) و لقد كان التنقيب عن المعادن و تشجيع العمل فيه من العوامل الرئيسية التي كانت وراء رحلة محمد علي باشا إلى السودان في عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٩م (٣) وقد كان محمد علي باشا عظيم الأمل في الحصول على معدن الذهب خاصةً بعد أن عُثر على قدر منه ليصبح إتخاذه دليلاً على وجود مناجم الذهب بجوار فانشغارو (٤) و لئن كانت رحلة الباشا لم تحقق آماله في وجود معدن الذهب بكميات كبيرة إلا أنه نجح في تدعيم و تطوير العلاقات التجارية مع الحبشة ، فوافق على الإتفاقات التجارية التي توصل إليها الحكمدار أبودان في أواخر عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م والتي نصت على السماح للقوافل التجارية بدخول الأقاليم الحبشية دون أن تدفع ضرائب على البضائع المصدرة من السودان على أن يكون لقوافل الأحباش هذه الإمتيازات نفسها في الأقاليم السودانية (٥) ، و لم ييأس الباشا بعد رحلته هذه ، فاستمرت جهود الحكمداريين كالحكمدار أبودان سالف الذكر و الحكمدار أحمد المنكلي من سنة ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٣م ــ إلى ١٢٥٩هـ/١٨٤٤م والحكمدار خالد خسرو من سنة ١٢٥٩هـ/١٨٤٥ إلى ١٢٦٣هـ/١٨٤٩م ، كما أن جهود االحكم العثماني لم تقتصر على البحث عن الذهب وحده بل تعدته إلى كثير من

---

(١) أي أسر الرجال أو شراء العبيد .

(٢) الدفتر رقم ٢٢٣ ، عابدين ، الإرادة الكريمة رقم ٧/٩ الورقة ٩٨ بتاريخ ٢من ربيع الآخر سنة ١٢٥٤هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) د/ حسن أحمد إبراهيم : محمد علي في السودان مرجع سابق ص ١١٠ جامعة الخرطوم .

(٤) MARLOVWE : ANGLO .EGYPTAIN RELATIONS . P .44

د/ حسن أحمد إبراهيم : محمد علي في السودان مرجع سابق ص ١١٥

(٥) محمد فؤاد شكري : مجلة كلية الآداب العدد الثامن ١٩٤٦م رحلة محمد علي ص ٤٠




المعادن كالنحاس في حفرة النحاس بجنوب دارفور ، و كالفضة و النحاس في جبل موية جنوبي سنار (١) و كالرخام في منطقة وادي حلفا (٢) و جهات بربر التي قيل إنها غنية بالرخام من النوع الأجود ذي اللون الأبيض الناصع (٣) .

و لم تكن المعادن وحدها هي التي إهتم بها محمد علي في السودان فقد إهتم أيضاً بالزراعة ففي أثناء رحلته إلى السودان تأكد محمد علي من خصوبة أرض السودان فأصدر أوامره بزيادة الجهد في تطوير الزراعة في ربوع السودان ، وتشجيع الأهالي ، وترغيبهم في فلاحة أراضيهم ، و إدخال طرق الزراعة الحديثة ، كما أرسل الخبراء الزراعيين من مصر لتعليم الأهليين طرق زراعة الأراضي ونشر ماالديهم من معلومات زراعية بين ظهرانيهم (٤) وقد أرسل مع خورشيد مئات من هؤلاء الفلاحين ليُوزّعُوا على جهات السودان المختلفة (٥) .

و لأن الأهالي لم يكونوا يهتمون بالزراعة فقد إضطرت الحكومة إلى إستخدام القوة في بعض الأحيان لإرغام الناس على الزراعة ، فعندما فر أهالي قرية (العوضية) إلى الجبال تاركين أراضيهم قاتلهم عثمان بك جركس حتى نزلوا من الجبال وتعهدوا بإقامة السواقي و اصلاح الأراضي (٦) كما أجبر المزارعون في سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م على زراعة النيلة على شواطئ النيل (٧) وذلك لاستخدامها في صباغة الملابس ، كما اهتمت الحكومة بإدخال محاصيل جديدة بجانب المحاصيل المعروفة في السودان كالقمح و الشعير ، كما أدخلت الحكومة زراعة الأفيون ، وزراعة قصب السكر في

---

(١) رفاعة الطهطاوي : مناهج الألباب ص ٢٥٦

(٢) الدفتر ٥٧ معية تركية الأمر ١٧٨ بتاريخ ٢١ من صفر سنة ١٢٥٠هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر ٦٢ تركي الأمر رقم ٨٨ بتاريخ ١٩ من ربيع الآخر سنة ١٢٥٠هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) شكري : مجلة كلية الآداب العدد الثامن ١٩٤٦م رحلة محمد علي ص ٥٦ . مرجع سابق

(٥) مكي شبيكة : السودان في قرن ص ٤٠ القاهرة ١٩٦٧م .

(٦) الدفتر رقم ١٦ معية تركية الوثيقة رقم ٤٢٠ في ١٣من ربيع الآخرة سنة ١٢٥٤هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة

(٧) HILL : EGYPTIAN IN THE SUDAN , PP. 54--55 .



دنقلا (١) كما أدخلت زراعة الأرز و القنب و التوت (٢) ، كذلك أدخل الزراعيون المصريون أنواعاً مختلفة من الفواكه والحمضيات كالعنب والتين والليمون وأرسلت الحكومة العثمانية في مصر أنواعاً منها بناء على طلب الحكمدار خورشيد في سنة ١٨٣٣م (٣) .

وفي أيام أحمد ممتاز باشا الذي كان محافظاًلسواكن ثم عين حاكماً على السودان (١٨٧١ــ ١٨٧٣م) أدخل المصريون زراعة القطن المصري في السودان و قد بذل هذا الوالي جهداً كبيراً في سبيل نشر زراعة القطن و تحسينه هناك حتى أنهم كانوا يطلقون عليه الممتاز (٤) .

كذلك أدخل المصريون نظام الزراعة بالري الدائم فعملوا على إنتشار السواقي و حفر الترع و الجسور(٥) ، كما علموا المزارعين السودانيين طرق محاربة الآفات الزراعية (٦) .

أما في مجال الثروة الحيوانية فقد إهتمت الحكومة المصرية بالماشية السودانية حيث كانت في أمس الحاجة للثيران السودانية لإستخدامها في حرث الأرض و تدوير السواقي كما جلب محمد علي الجمال لإستخدامها في حمل أدوات الجيش المصري أثناء حروبه في جزيرة العرب .

وكان الحصول على الماشية يتم عن طريق الغزو (٧) أو الشراء أو الضرائب(٨) ،

---

(١) الدفتر رقم ٧٦٠ ديوان الخديوي القرار رقم ٣٨٠ في ٤ من جمادي الأولى سنة ١٢٥٤هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الوقائع المصرية العدد (٣) في ١٢ من شوال سنة ١٢٥٤هـ

(٣) HILL : EGYPT IN THE SUDAN . PP . 53 -- 54 .

(٤) د/ علي إبراهيم عبده : مصر وأفريقية في العصر الحديث ص ٥٥ دار الفكر ١٩٦٢م

(٥) الوقائع المصرية : العدد ١٣٢ في ٢٧ من رجب ١٢٤٦هـ

(٦) نسيم حقار : الرحالة بالم ص ٦١ .

(٧) HILL , EGYPT IN THE SUDAN . P 55

(٨) PALLME , TRAVELS IN THE KORDOFAN , P 37 .

وللعناية بالمواشي إهتمت الحكومةالمصرية بتمهيد الطرق و توفير العلف و الماء أثناء الطريق ، كذلك إهتمت الحكومةالمصرية بتوفير العناية البيطرية بعد وصول الماشية ، ولضمان سلامتها أعدت الحكومة المصرية خمساً وتسعين محطة تبدأ بالترعة الخضراء على النيل الأبيض و تنتهي بأسوان (١) .

كذلك اهتمت الحكومة المصرية بمنتجات الماشية السودانية من الجلود والأصواف كما كانت تهتم بشراء أكبر كمية منها لارسالها إلى مصر لصناعة الجزم و الأحزمة والعباءات (٢) .

ولضمان وصول أكبر كمية من المنتجالت التجارية السودانية إلى مصر احتكر محمد علي باشا معظم منتجات السودان فأمر عثمان بك جركس بإحتكار سن الفيل و ريش النعام و الصمغ و ذلك في سنة ١٢٤٠هـ/١٨٢٤م ، كما إنفردت الحكومة المصرية بشراء الجلود و السنامكي وغيرها وقد كانت حجة الحكومة المصرية في ذلك أنها زرعت في السودان أراضي واسعة لم يكن لها مالك من قبل وبذلك صارت هذه الأراضي و ما تنتجه ملك الدولة(٣) ، أما الصمغ فقد احتكره محمد علي باشا زاعماً أنه نبت في الأراضي بالطبيعة دون أن تعمل فيه يد الإنسان شيئاً يذكر(٤) .

و لضمان نجاح هذه السياسة الإحتكارية فرضت الحكومة ضرائب باهظة على نقل المحصولات من مكان إلى آخر حتى يصعب على أصحابها ترحيلها وبيعها فيضطروا إلى بيعها لوكلاء الحكومة بأسعار زهيدة تحددها الحكومة (٥) .

---

(١) مكي شبيكة : السودان في قرن مرجع سابق ص ٥٠

(٢) حسن أحمد إبراهيم : محمد علي في السودان مرجع سابق ص ١٤٦ ـ ١٤٧ .

(٣) محمد فؤاد شكري شكري : بناء دولة ص ٦١ ـ مجلة الآداب العدد الثامن ١٩٤٦ م ـ مرجع سابق .

(٤) مكي شبيكة : السودان في قرن مرجع سابق ص ٤٩ .

(٥) محمد فؤاد شكري شكري : بناء دولة ص ٥٥ .مجلة الآداب العدد الثامن ١٩٤٦ مرجع سابق .




ولقد كان لإستتباب الأمن في السودان إبان عهود الحكومات العثمانية أثره الفعال في نقل كميات كبيرة من المنتجات السودانية إلى مصر حيث أمن الأجانب والأهالي على السواء ، فتنقل الناس بين أرجاء البلاد في أمن و طمأنينة ، وقد ساعد استتباب الامن على إزدهار التجارة بين مصر و السودان ، فعملت الحكومة العثمانية في القاهرة على تطوير المواصلات البرية و النيلية مع السودان حتى يسهل نقل وارداته إلى مصر دون أن يصيبها أي تلف (١) .

و لقد سلكت القوافل التجارية بين مصر و السودان منذ القدم طريقين رئيسيين : الطريق الأول يبدأ من سنار فشندي و بربر ثم يخترق صحراء العتمور إلى مصر ، و الطريق الثاني يبدأ من سنار وشندي و بربرإلى سواكن على البحر الأحمر و منها إلى مصر (٢) .

أما التجارة مع كردفان و دارفور فقد كانت عبر طريق الأربعين الذي أستخدم منذ أيام قدماء المصريين (٣) .

وقد استعانت الحكومة ببعض القبائل السودانية لمدها بالإبل و مساعدتها في نقل الواردات السودانية تارةً و لحراسة القوافل التجارية من خطر اللصوص وقطاع الطرق تارةً أخرى .فالكبابيش الذين إمتازوا بخبرة دقيقة بجميع الطرق الصحراوية و مقدرة فائقة على تحمل متاعب السفر ، مدّوا الحكومة بالإبل

(١) علي ابراهيم عبده ـ مصر وافريقية في العصر الحديث ص ٢٨ دار القلم ١٩٦٢ م .

(٢) مكي شبيكة : السودان في قرن مرجع سابق ص ٧ ط ١ .

(٣) ARKELL , HISTORY OF THE SUDAN . P . 214




وساعدوها في نقل البضائع من كردفان و سنار و دنقلة إلى مصر مقابل أجور معينة(١) ،أما قبيلة العبابدة فقد ترك لها الخديوي إسماعيل مهمة حماية طريق (عتمور ـ أبي حمد ـ كرسكو) من قطاع الطرق و عهد بهذا إلى شيخ هذه القبيلة على أن يأخذ مقابل هذه الحماية قيمة عُشر ما يعبر هذا الطريق من بضائع و سلع وغيرها(٢) .

و لم تكن للملاحة النهرية قبل الحكم المصري أهمية كبيرة في النقل التجاري بين مصر و السودان و ذلك للشلالات التي كانت تمثل عقبة في بعض أجزاء النيل ، و لجهل السودانيين بصناعة المراكب ، كما أن نقل البضائع عن طريق النيل جعلها أكثر تعرضاً للرسوم و الضرائب من جهة و السلب و النهب من جهة أخرى ، و قد أوقفت الرحلات النهرية الطويلة نهائياً في أواخر عهد سلطنة سنار لإنتشار اللصوص و قراصنة النيل و لعدم استتباب الأمن كذلك كان إستعمال البحر الأحمر في نقل التجارة بين مصر والسودان غير مجدٍ إذ أن الملاحة فيه لم تكن منظمة ، فالسفن التي إستخدمت فيه كانت قليلة رديئة الصناعة و ربابنتها وملاحوها عرفوا بعدم الخبرة و الكفاءة (٣) .

إلا أن الملاحة في نهر النيل نالت حظاً كبيراً في عهد محمد علي لاستعمالها كوسيلة رخيصة للتنقل والسفر بين السودان و الموانئ المصرية النيلية و لترحيل واردات السودان إلى مصر . فقد بنيت في عهد الحكمدار خورشيد ترسانة لصنع القوارب في منجرة بالقرب من ودشلعي على النيل الأبيض و الأخرى في الكاملين على النيل الأزرق ، كما شيدت ترسانتان أخريان في كل من سنار و بربر (٤) .

---

(١) PALLME . TRAVELS IN KORDOFAN PP. 132--- 133

(٢) حسين أحمد حسين : من زوايا التاريخ السوداني مرجع سابق ص ٥

(٣) المرجع السابق ص ١٤٩ .

(٤) HILL : EGYPT IN THE SUDAN P 61

وقد اهتم عاهل مصر بإرسال جميع مستلزمات صناعة المراكب من مهندسين و خبراء (١) .

و خلاصة القول أن عهد محمد علي و خلفائه كان عهد السودان الزاهر تجارياً و حضارياً فازدهرت الصناعة و التجارة و إزدهرت المدن تبعاً لذلك كالخرطوم و سنار و بربرو شندي و سواكن و الأبيض و الفاشر، و كان هذا العهد عهد البيوت و الشركات التجارية العربية و الأوروبية و التي إزدهرت بسببها تجارة السلاح و تجارة الرقيق (٢) ، و لم يقتصر إزدهار التجارة على شمال السودان فحسب ففي هذا العهد امتدت حدود السودان جنوباً عند بحيرة ألبرت و بحيرة فكتوريا ، و شرقاً إلى البحر الأحمر و خليج عدن ، و غرباً إلى حدود واداي (٣) وعقب فتح طريق الملاحة إلى الجنوب السوداني بدأ التجار يتصلون بأهل الجنوب وقد كان العاج من أبرز متاجر الجنوب ، فقد عرفه تجار شمال السودان قبل ضم النيل الأبيض للملاحة إذ كان معظمه يأتي آنذاك من دارفور و كردفان (٤) أيضاً كان من البضائع التي راجت في تلك الجهات الخرز بأنواعه و ألوانه ، و الودع ، والقصدير ، و كله مما كان يتزين به النساء و الرجال و يفضلونه على الذهب

---

(١) حسن أحمد إبراهيم : محمد علي في السودان مرجع سابق ص ١٥٠

(٢) زاهر رياض ـ السودان المعاصر منذ الفتح المصري حتى الاستقلال (١٨٢١ ــ ١٩٥٣ م) ص ٧٤ ــ ٧٥ ـ مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٦ .

(٣) عبدالله حسين : السودان من التاريخ القديم إلى البعثة المصرية ج١ ص ١١٣ القاهرة ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥ م .

(٤) د/ مصطفى حمدنا الله : التطور الإقتصادي و الإجتماعي في السودان مرجع سابق ص ١٤٠ .



والفضة و كان ريش النعام و المطاط و الحديد و النحاس يعد أيضاً من حاصلات تلك الجهات (١).

ولكن بعد أن إحتكرت الحكومة العثمانية في مصر تجارة العاج تحول التجار إلى تجارة الرقيق مما أدى إلى تلك التجارة المشينة و إنتشارها في ذلك العهد (٢)، ورغم النمو الإقتصادي في السودان في العهد العثماني إلا أن الحكومة المصرية لم تستفد من حاصلات السودان الإستفادة المرجوة و التي تكافئ الجهد الذي بذل في تنشيط الحياة الإقتصادية و ذلك لعدة عوامل أهمها :

أولاً : الضرائب :

لم يعرف السودانيون قبل ضم محمد علي الضرائب بصورتها التي كانت عليها في مصر ، ولكن بعد أن خضع السودان لمحمد علي فرضت على الأهالي ضرائب منتظمة تحتم عليهم دفعها في أوقات معلومة دون مراعاة لحالة الأهالي ، وحالة البلاد من ناحية كثرة الأمطار أو قلتها أو فيضان النيل أو عدم الفيضان مما أثقل على كاهل المواطنين ، مما إضطر بعضهم لترك أراضيهم هروباً من دفع الضرائب (٣) بل أدت الضرائب الباهظة إلى قيام بعض الثورات في وجه الحكومة احتجاجاً عليها . فالبشاريون رفضوا دفعها أحياناً و قتلوا الجنود الذين أرسلوا لجمعها منهم (٤) و في سنة ١٢٥٠هـ /١٨٣٤م شهدت بلاد المحس بقيادة الملك نجيب ثورة عارمة ضد الضرائب تسببت في تلف كثير من السواقي و موت كثير من الثيران التي استخدمت فيها (٥).

---

(١) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٩ . القاهرة ١٩٥٢م
(٢) مكي شبيكة ـ تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص ٥٣٠ .
(٣) حسن أحمد إبراهيم : محمد علي في السودان مرجع سابق ص ١٥٧.
(٤) HOSKINS . TRAVELS IN ETHIOPIA , P 55
(٥) حسن أحمد إبراهيم : محمد علي في السودان مرجع سابق ص ١٥٧ .




ثانياً : سوء و فساد وكلاء موظفي محمد علي في السودان :

حرص بعض الوكلاء الذين أرسلتهم الحكومة لشراء منتجاته على الثراء عن طريق الفساد كما أثبتت التحقيقات أن كثير منهم إختلس أموال الحكومة كما أن بعض العساكر في سنار استولوا على كميات كبيرة من الصمغ و سن الفيل وريش النعام (١) .

أما الإداريون فقد كان لجهلهم و عدم كفاءتهم و إنشغالهم بالحرب الأثر الكبير في تأخر دفع التقدم الإقتصادي في السودان و عدم إستفادة الحكومة المصرية الاستفادة الكاملة (٢) .

ثالثاً : تهريب بعض الواردات السودانية .

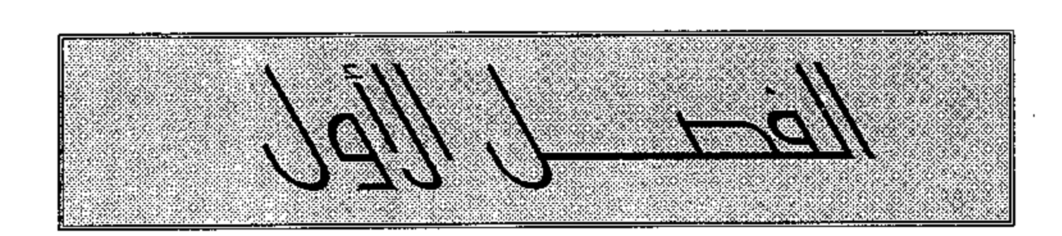
رغم توجهات محمد علي باشا للمسئولين في السودان ببذل كل الجهد لأيقاف تهريب المنتجات السودانية التي إحتكرتها الحكومة فقد هرب البعض منها كالصمغ والسنامكى و العاج إلى سواكن ومن هناك إلى الخارج بدلاً من إرسالها إلى مصر، كما أن الرغبة في إيقاف التهريب دفعت محمد علي باشا ليطلب من السلطان العثماني ضم مينائي سواكن و مصوع للإدارة المصرية في السودان (٣) .

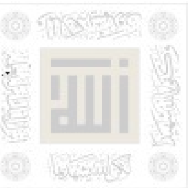
---

(١) الدفتر ١٦ معية تركي وثيقة رقم ٣٩٨ بتاريخ ٩ من ربيع الأول سنة ١٢٤٠هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) HILL , EGYPT IN THE SUDAN , P 58 .

(٣) حسن أحمد إبراهيم : محمد علي في السودان مرجع سابق ص ١٦٠ ـ ١٦١


الفصل الأول

الفصـل الأول :

الزبير باشا و قيام دولته في بحر الغـزال

المبحث الأول :

الزبير باشا نسبه ، مولده ، نشأته ، أثر النشأة في حياته .

المبحث الثاني :

إشتغال الزبير بالتجارة خطوات أولى نحو قيام دولته .

المبحث الثالث:

تنظيـم الأحـوال الداخليـة في الدولـة : العاصمـة ، الجيـش ، الإدارة ، التجارة .

المبحث الرابع :

النهضة الحديثة و الصبغة الإسلامية في دولة الزبير .

الفصل الأول

المبحث الأول:

الزبير باشا : نسبه ، مولده ، نشأته ، أثر النشأة في حياته .

المبحث الأول

الزبير : نسبه ، مولده ، نشأته :

سلك العرب معابر شتى و هم في طريقهم إلى السودان انطلاقاً من جزيرة العرب ، و لعل أشهر هذه المعابر مصر و البحر الأحمر و من مصر إنحدر العرب جنوباًمع النيل إلى أواسط السودان ،كذلك عبرالعرب البحر الأحمر مباشرة من أرض الجزيرة العربية إلى سواحل السودان الشرقية ثم توغلوا إلى الداخل (١) .

و من القبائل العربية التي دخلت السودان عبر المعبر الأول أي مصر إحدى القبائل العباسية التي أطلقت على نفسها إسم(قبيلة الجميعاب) والتي إنحدر الزبير باشا من أصلابها فمن هو الزبير باشا؟ .

هو الزبير بن رحمت(٢) بن منصور بن علي بن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر بن شاهين بن جُميع بن جموع بن غانم العباس (٣) و من جميع بن جموع أخذت القبيلة إسمها و أطلق عليها إسم قبيلة الجميعاب .

ترجع قصة قبيلة الجميعاب إلى عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م عندما إجتاح المغول عاصمة الخلافة العباسية بغداد فدمروا البلاد و أزهقوا أرواح العباد، و لم ينج إلا الفارون و قليلون ممن إفتدوا أنفسهم و كان من بين هؤلاء شيخ من كبار تجار بغداد في ذلك العهد يدعى جموع بن غانم إستطاع أن يفتدي حياته بكل ثروته و كانت تزيد على المائة ألف دينار ، ثم لم يلبث ـ و قبل أن ينكث المغول عهودهم معه أن خرج بنسائه و أولاده و حاشيته مخلفاً وراءه بغداد المحترقة المهيضة فيما وجه شطر الشام فراراً من المغول الذين لم يتورعوا بعد ذلك عن قتل الخليفة نفسه والتمثيل بجثته ومن الشام مضت قافلة الشيخ جموعُ بن غانم نحو مصر ، و فيها

---

(١) د/ حسن أحمد محمود : الإسلام و الثقافة العربية الأفريقية دار الفكر العربي القاهرة يوليو ١٩٨٦ ص ص٢٧٥ ـ ٢٨٨ .

(٢) بخط الزبير في مذكراته يكتب (رحمت) بالتاء المفتوحة أما المصادر الحديثة فتكتب(رحمة)بالتاء المربوطه.

(٣) مذكرات الزبير باشا دار الوثائق المركزية الخرطوم تحت رقم ١/٤٧/٩٢٩ ص ١

و سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان: القاهرة ١٩٥٢م

و نعوم شقير : تاريخ السودان ص ٢٥٨ .دار الجيل ١٩٨١م تحقيق الدكتور محمد ابراهيم ابوسليم .




حاول أن يستعيد ماضيه التجاري العظيم فلقي الصعاب والأهوال بالإضافة إلى شيخوخته وما كابده من أهوال الطريق فمضى إلى ربه تاركاً إبنه جُميع متحملاً مسئولية تركة أبيه . وحمل الإبن جُميع تركة أبيه المثقلة بالأهوال و قد زادها ثقلاً ما كانت تعانيه مصر في تلك الآونة من إضطرابات و فتن عقب تولي الملك (المعز للحكم) في سنة ٦٥٥هـ /١٢٥٧م بعد إقصاء (شجرة الدر)عنه و ما صحب ذلك صعوبة من العيش و قساوة الحياة ، فلم يلبث الإبن أن ضاق بمصرذرعاً فأزمع الإنحدار جنوباً مع النيل و معه أهله وعشيرته ومن آثر الإنضمام إليه (١) و ذلك في أواخر القرن السابع الهجري ٦٧٦هـ ـ١٢٩٨م (٢).

و على النيل الكبير بين جبل (قري) و جبل (الشيخ الطيب)(٣) إستقرت تلك العشيرة العربية التي عرفت بعد ذلك بقبيلة (الجميعاب) نسبة إلى جميع(٤) ومن هذه القبيلة إنحدر الزبير بن رحمت بن منصور العباسي . و قد اشتهرت هذه القبيلة بالشجاعة و البسالة (٥) .

ولد الزبير في جزيرة واوسي بالقرب من قرية الجيلي الحالية شمال الخرطوم في صباح السابع عشر من المحرم عام ١٢٤٦هـ الموافق الثامن من يوليو سنة ١٨٣١م (٦) و لما اجتاز سن الطفولة درس على الشيخ أبو قرين (٧) ثم أكمل دراسته في الخرطوم .

و هناك رواية تؤكد أنه حفظ القرآن في خلوة الشيخ أبو كريز (٨) .

---

(١) سعدالدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٠ .

(٢) مذكرات الزبير باشا مصدر سابق ص ١ .

(٣) تقع شمال الخرطوم على بعد ٥٠ كيلومتر تقريباً.

(٤) سعدالدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٠
و نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٥٨ .

(٥) مذكرات الزبير باشا مصدر سابق ص ١ .

(٦) مذكرات الزبير باشا مصد سابق ص ١
و نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٩ .

(٧) الياس الزبير : شريط كاسيت معهد الدراسات الأفريقية جامعة الخرطوم رقم ٢٦٨ .

(٨) إبراهيم الزبير : شريط كاسيت معهد الدراسات الأفريقية جامعة الخرطوم رقم٢٦٥ .
لم أجد تعريف للشيخ أبو قرين وكذلك الشيخ أبو كريز لأن المصدر سماعي .




أما الزبير فيحدثنا عن فترة سنى عمره الأولى فيقول :(و قد ولدت في السابع عشر من محرم ١٢٤٦ هجرية و نشأت في حجر والدي إلى أن بلغت من العمرسبع سنوات فأدخلني المكتب ، و تعلمت القراءة و الكتابة ، **وحفظت القرآن على رواية أبي عمرو البصري و تفقهت على مذهب الإمام مالك بن أنس** رضي الله عنهما) (١) .

و يروي عنه إبنه سعد الزبير أنه قال (و بلغت السابعة فأرسلني أبي إلى مدرسة الخرطوم لأتعلم القراءة و الكتابة و حفظ القرآن الكريم ، فكان هذا بداية طورٍ جديد من أطوار حياتي و إيذاناً بأنّ عليّ أن أودع حياة الكر و الفر مع رفاقي الصغار في ربوع جزيرتنا (٢) الخضراء) (٣) .

(و في المدرسة تعلمتُ الكثير، وأتممت حفظ القرآن الكريم و تفقهت على مذهب الإمام مالك ، و قضيت من سنى عمرى فترةً حافلة مضت على طولها قصيرةً سريعة إنتقلت فيها من أحلام الطفولة إلى صحو الشباب ، ومن مقاعد الدراسة إلى ركوب الخيل أمارس هواية ركوبها ـ تلك الهواية التي تأصلت في دمي منذ ذلك الحين لتساهم بعد ذلك في رسم خطوط حياتي المقبلة ، و أتدرب على ألعاب الفروسية كعادة شباب قبيلتنا العربية) (٤) .

لقد نشأ الزبير في أسرةٍ إشتغلت بالعلم و التجارة فكان منصور بن علي جد الزبير لأبيه من كبار تجار مديرية الخرطوم إبان الحكم العثماني للسودان من سنة(١٨٢١ ـ١٨٨٥م) (١٢٣٦ ـ١٣٠٠هـ) و ظلت روابطه بالقطر المصري متصلة حميمة ، وكان منصور قد تلقى تعليمه بالجامع الأزهر بعد أن حفظ القرآن الكريم بالسودان فجمع بين التجارة و تدريس القرآن و علوم الدين و اللغة العربية، و بنى لهذا الغرض مسجداً جامعاً(٥) بقرية الجيلي(٦) مركزالأسرة .

---

(١) مذكرات الزبير باشا مصدر سابق ص ١ .

(٢) جزيرة واوسي السالفة الذكـــر .

(٣) سعدالدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ١٣ .

(٤) سعدالدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ١٣ .

(٥) محجوب بريرمحمد نور : قبس من الفكر و التاريخ ص ١٨. الخرطوم ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م دار الإعلام للطباعة والنشر.

(٦) ما زالت تعرف بالإسم نفسه و هي تقع على مسافة ٤٥ كيلو متر شمال الخرطوم تقريباً.




وقد سلك إبنه رحمت والد الزبير طريق أبيه فعمل على تطوير حلقة الدرس لتصبح معهداً دينياً بناه في قرية الجيلي و سماه (معهد علوم الفقه) و قد تخرج من هذا المعهد كثيرون من أرباب العلم و التقى و الصلاح في منطقة الخرطوم كما كان رحمه يعمل بالتجارة أيضاً في أوسع ميادينها كأبيه (١).

و من هنا يتضح لنا أن هذين العاملين ـ العلم و التجارة قد تركا أثراً بالغاً في حياة الزبير منذ الصغر بل رسما خطوط حياته كلها كما سنعرف فيما بعد كيف وجهت نشأته العلمية و التجارية حياته العملية كلها بما حفلت به من عظائم المواقف فكانت تدور حول هذين القطبين (العلم و التجارة) .

أثر النشأة في حياته العملية :

لقد مر بنا أن منصور بن علي جد الزبير لأبيه إشتغل بالعلم و التجارة ثم جاء من بعده إبنه رحمه ـ والد الزبير ـ سالكاً طريقة أبيه في الحياة فأشتغل بالعلم و التجارة أيضاً ثم جاء من بعده إبنه الزبير ثمرةً لغرس طيب في تلك الأسرة ، فبعد أن حفظ القرآن يافعاً و نهل من العلوم على أئمة عصره و علمائه الأجلاء ، ولما دخل في طور الشباب إنتقل من مقاعد الدراسة إلى ظهور الخيل فكان يقضي الأيام الطوال و هو يتدرب على ألعاب الفروسية و يجالد أهوال الصيد في أحراش الغابات ، حتى إذا ما شارف الخامسة و العشرين تزوج بإبنة عم له ، و اختار التجارة لتكون مورد عيشه ، و خُيل إليه أنه بذلك قد إنتهى من تحديد أمر مستقبله فمنى نفسه بأن يعيش أيام مستقبله كالأيام التي عاشها أبوه رحمت هادئة وادعة بين أهله و عشيرته تسوق له التجارة رزقاً رغداً ، و لم يدر أن التجارة التي أمّلَ من خلالها الراحة و الهدوء و الإستقرار هي التي ستقوده إلى أحراش الجنوب ليخوض غمار وقائع ناهزت المائة(٢) وجعلته يواجه الموت أكث من مائة مرة ، و لم يدر أيضاً أن التجارة هي التي ستهيئه ليقرع أبواب التاريخ .

---

(١) محجوب برير محمد نور : قبس من الفكر والتاريخ ط١ الخرطوم ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م .

(٢) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٣ .

يتحدث الزبير عن بدايات قصته مع الجنوب فيقول : (وفي عام ثلاث وسبعين بعد الألف ومائتين هجرية (١) أُخبرت أن إبن عمي محمد عبدالقادر توافق مع أحد التجار المدعو/ علي أبو عموري (٢) و أخذ منه مبلغاً من النقدية على أن يذهب معه إلى بحر الغزال بصفته مستخدماً بطرفه ، و حيث كانت جهات بحر الغزال من الجهات المستبعدة فقد أخذتني الشفقة القلبية على ابن عمي المذكور، فهممت بإرجاعه ، و طلبته من علي أبو عموري فأخبرني عن سبق(٣) سفره إلى بندر ولد شلعي (٤) فلحقته وأخذت الأطفه ليثني العزم عن السفر ويرجع معي فأبى و أقسم بالله أن لا يرجع و حلفت أن أسافر معه إن لم يرجع ، و كنت زاعماً ألاّ يرضى بغضبي ، و يصعب عليه سفري لمرافقته دون قصد سواه ، فلم يؤثر فيه حلفي و غضبي ، و صمم على سفره ، فعزمت أنا من ذلك المحل على السفر مع على أبي عموري أيضاً قصداً للسياحة معه ، و مرافقة ابن عمي المذكور) (٥) .

غادر الزبير قرية ودشلعي في ١٤ من المحرم سنة ١٢٧٣ هـ (١٤سبتمبر١٨٥٦م) متوجهاً إلى بحر الغزال في رفقة إبن عمه و في خدمة علي أبو عموري ذلك التاجر الكبير الذي كان يعد من أقطاب تجار بحر الغزال و الذي كان ينحدر من أصول مصرية تسكن بلدة نجع حمادي في صعيد مصر (٦) .

---

(١) سنة ١٨٥٦ ميلاديـــة .

(٢) مصري من تجار نجع حمادي كان يتاجر في العاج و الرقيق و هو من مشاهير تجار بحر الغزال . نعوم شقير تاريخ السودان ص ٢٥٩ .

(٣) أي أنه سافر إلى بندر ودشلعي قبل حضور الزبير .

(٤) بندر ود شلعي تبعد حوالي ٤٠ كيلو متر جنوب الخرطوم على النيل الأبيض .

(٥) مذكرات الزبير باشا مصدر سابق ص ١ .

(٦) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٥٩ .




كان في بحر الغزال في ذلك الوقت تجار كثيرون ينتشرون في أرجائه وكان لكل تاجر منهم زريبة (١) ، وكان هؤلاء التجار قد إعتادوا الإتصال بأهل الجنوب مع بدايات اربعينات القرن التاسع عشر و ذلك عقب فتح طريق الملاحة مع جنوب السودان ، فمنذ شهر مارس سنة ١٢٦٨هـ/ ١٨٤٠م ـ و هو التاريخ الذي عادت فيه رحلة سليم قبطان (٢) الأولى إلى الخرطوم ـ توالت الأخبار الشفوية عن ثروات الجنوب يؤيدها إياب سفن الحملة الثانية (٣) إلى الخرطوم و هي تحمل سن الفيل (العاج) وبعضاً من غلات الجنوب ، وكان العاج أبرز متاجر الجنوب فقد عرفه تجار شمال السودان قبل فتح النيل الأبيض للملاحة إذ كان معظمه يأتي آنذاك من دارفور وكردفان (٤) .

و على الرغم من الحظر الذي كان يفرضه (محمد علي باشا) على بعض السلع و منها العاج غداة ضم السودان إلى مصر إلا أن التجار و منهم تجار الخرطوم كانوا يقومون بتهريبه إلى موانئ البحر الأحمر حيث كانت تحمله سفن الشركات الإنجليزية بالهند و تقوم بتصديره إلى أوروبا (٥) .

---

(١) الزريبة : تطلق في هذه المناطق على المكان الذي يأوي إليه التاجر ليستريح و يريح خيله و جماله ورجاله و هي عبارة عن سور من الأشواك و جذوع الشجر به بعض الأكواخ لحفظ البضاعة و الزريبة عند التجار في جنوب السودان تعني أو توازي كلمة (استراحة) ـ السيد يوسف نصر ـ الوجود المصري في أفرقيا ص ٥١ أما الزريبة في شمال السودان فهي سور من الأشواك لحفظ البهائم و الأعلاف فقط .

(٢) سليم قبطان : ضابط في الجيش المصري أرسلته مصر في ثلاثة رحلات لإكتشاف منابع النيل و ضمها للسلطة االعثمانية في مصر ـ حسن مكي محمد أحمد ـ السياسة التعليمية في جنوب السودان ص ١٠ .

كانت الرحلة الأولى في ١٨٣٩/١١/١٦م وصلت حتى خط ١٠ ٦ شمال خط الإستواء ثم عادت إلى الخرطوم في عام ١٨٤٠م ، و الرحلة الثانية بدأت في ١٨٤٠/١١/٢٣م وصلت إلى غندكرو ثم عادت عام ١٨٤١م و الثالثة بدأت ١٨٤١م ورجعت عام ١٨٤١م .

(٣) تحركت الحملة الثانية بقيادة سليم قبطان من الخرطوم في ١٨٤٠/١١/٢٣م ووصلت إلى غندكرو ثم عادت إلى الخرطوم في ١٨٤١/٥/١٨م .

د / حسن مكي محمد أحمد ـ السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان ص ١٠ المركز الاسلامي الأفريقي بالخرطوم شعبة البحوث والنشر .

(٤) حسن مكي ـ السياسة التعليمية والثقافة العربية مرجع سابق ص ١٠ .

(٥) حمدنا الله مصطفى حسن : التطور الإقتصادي و الإجتماعي في السودان مرجع سابق ص ١٤٠ .



كذلك كان من أهم البضائع الرائجة في جنوب السودان ، الخرز على إختلاف ألوانه و أنواعه ثم الودع و القصدير و كله مما يتزين به النساء و الرجال ، وكان الأهالي يفضلون هذه الأشياء على الذهب و الفضة فكانوا يأخذونها من التجار و يقايضون عليها بسن الفيل و الخرتيت وريش النعام و المطاط و الحديد والنحاس (١) و غيرها من باقي حاصلات البلاد .

و في اليوم السابع عشر من شهر صفر سنة ١٢٧٣ هجرية(١٥ من أكتوبر ١٨٥٦م وصل الزبير إلى بلاد الجور(٢) محل تجارة علي أبوعموري و ظل يعمل معه بضعة أشهر بأجر لا يكاد يساوي قيمة الطعام الذي يحفظ عليه حياته .و لم تكن صلات أبي عموري بأهالي بلاد الجور طيبة لهذا تجمع سكان المناطق يريدون قتل أبي عموري و رجاله و الإستيلاء على بضاعتهم فدارت بين الفريقين معركة حامية الوطيس وكان الزبير فارسها الذي حاز قصب السبق .

وقد إنتهت المعركة بإنتصار أبي عموري ورجاله على الأهالي المهاجمين وترجح لدى أبي عموري أن سلامته و سلامة أمواله إنما كانت على يد الزبير ونتيجة لبطولته فأخذ يتقرب منه ، و يتودد إليه ثم أعطاه نصيباً من الأرباح ،

---

(١) كان أهل الجنوب يستخدمون الحديد أما النحاس فكان يجلبه إليهم التجار من الشمال او من جنوب دارفور فيقايضونه بما عندهم من بضائع و هم يستخدمونه للزينة و لكن إذا وجدوا الخرز و الودع و القصدير فهم يفضلونه عليه غيره و يبادلونه بما يملكون من حديد بالإضافة للحاصلات الأخرى و أهمها العاج و ريش النعام .

ـــ عمر طوسون : تاريخ مديرية خط الإستواء المصرية ج١ ص٢١٠ مطبعة العدل مكتبة الأمريكان نمرة ١ الأسكندرية سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م .

(٢) بلاد الجور يعني منطقة قبيلة الجور وهذه القبيلة تسكن بحر الغزال ـ محمد المعتصم ـــ جنوب السودان في مائة عام مرجع سابق ص ٤٣ .

وجعل منه ساعده الأيمن في إدارة أعماله (١) و كأن الأقدار أرادت أن تهيئ للزبير قمم المجد و الرفعة من خلال الأسنة و الرماح فإن المعركة الأولى التي خاضها إلى جانب أبي عموري قد قلبت حياته رأساً على عقب ، فبعد أن كان مستخدماً في جماعة أبي عموري ، مغموراً لا يعرفه أحد يُكلف بالكثير من الأعمال الشاقة و الواجبات المرهقة بالإضافة إلى سوء معاملة أبي عموري والأجر الزهيد أصبح بعد تلك المعركة على قمة رجال أبي عموري ، و كما فتحت له المعركة السابق ذكرها أبواب العز و السؤدد ظهرت معركة أخرى في سنة ١٢٧٤هـ /١٨٥٧م لتخطو به خطوات أكثر في سلم المجد و الرفعة .

وقد تحدث الزبير نفسه عن هذه المعركة بالتفصيل مما يؤكد أهميتها في تاريخ حياته فيما بعد حيث أكد أنها وقعت في سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٥٧م و أن قبائل الجنوب طمعت في أموال التجار الشماليين هناك ، فتجمعت هذه القبائل من مختلف الجهات و هاجموا زرائب التجار و قتلوا بعض التجار و كثيراً من رجالهم وسلبوا أموالهم ولم تنج منهم زريبة من الزرائب و لما هاجموا زريبة أبي عموري تصدى لهم رجال أبي عموري بقيادة الزبير وهزموهم شر هزيمة ، و قتلوا منهم أعداداً كبيرة . فلما سمع التجار بإنتصار الزبير على تلك القبائل فرحوا فرحاً شديداً وتوافدوا عليه مهنئين عاقدين له لواء الزعامة فطار صيته ، وهابته قبائل الجنوب ولم يجدوا في أنفسهم الشجاعة لمهاجمته مرة أخرى أو مهاجمة أي مكان يحل فيه مما جعل التجار يلتفون حوله أكثر طلباً للحماية والأمن (٢) .

---

(١) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ١ .
نعوم شقير ــ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٠ .
سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق . ص ١٧ .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٠ .




و قد تحدث عن هذه المعركة أيضاً سعد الدين الزبير مؤكداً أهميتها في حياة والده (١) و إذا كانت المعركة الأولى قد أسلمت للزبيرقيادة صاحبة (أبو عموري) فإن المعركة الثانية قد أسلمته قيادة التجار في المنطقة كلها . و عندما رأى أبو عموري أن نجاته في المرتين كانت بقوة ساعد الزبير إزداد حباً له وإعجاباً به حتى أنه جعل له عُشر ما يجمعه من سن الفيل (العاج) .

و يمكن أن نقدر الوضع المالي الذي أصبح يتمتع به الزبير إذا علمنا أن تجارة العاج كانت تشكل المورد الرئيسي لدخل التجار في الخرطوم فقد كانت الرحلة الواحدة إلى الجنوب إذا ما عادت على الأقل بنحو خمسة وعشرين قنطار فقط من العاج قادرة على تغطية نفقاتها . لكن الرحلة الواحدة إلى الجنوب كانت في أسوأ الأحوال لا ترجع بأقل من مائة قنطار (٢) .

و لما هدأت الأحوال بعد مضي بضعة أشهر ترك أبوعموري الزبير رحمت وكيلاً عنه في الجنوب ، وسار إلى الخرطوم و مكث بها سته أشهر ، و لما رجع وجد الزبير قد جمع كمية كبيرة من العاج و محصولات البلاد فزاد قدر الزبير عند أبي عموري ، و ارتفعت مكانته عنده ، فعرض عليه أن يشاركه في تجارته لتكون الأرباح مناصفة بينهما ، لكن الزبير رفض(٣) و قد عزا الزبير رفضه مشاركة أبي عموري في تجارته إلى طموحاته العظيمة التي لم يتسع لها مشروع أبي عموري فقال:" كانت الآمال قد بدأت تجيش في نفسي ، و روحي قد بدأت تتشوق إلى الرحيل و المغامرة ، وكان عزمي قد إستقر على أن أشتغل في أعمالي و أن أبدأ في الإتجار لحسابي ،، (٤) .

---

(١) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٩ .

(٢) حمدنا الله مصطفى: التطور الإقتصادي و الإجتماعي في السودان ص ١٤١ .

(٣) مذكرات الزبير : مصدر سابق ص ٢/١ .

(٤) سعد الدين : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٢٠ .

و خلاصة الأمر أن رحلة الجنوب جعلت من الزبير رجلاً آخر ، فبعد أن دخل إلى أحراش جنوب السودان مجرد عامل بسيط ضمن مجموعة عمال التاجر علي أبي عموري إرتفع قدره ، و عظمت مكانته عند التجار عامة و عند علي أبي عموري خاصةً ، و ذلك بما أبداه من شجاعة و بسالة في حماية بعض التجار وبضائعهم مما دفع أبا عموري إلى أن يجعله وكيلاً على تجارته ، بل عرض عليه المشاركة مناصفة الأرباح ، ولكن الزبير رفض ذلك لأن الجنوب الذي أظهر فيه كوامن البسالة و الشجاعة فتق فيه أيضاً شهية التاجر الناجح ، و فتح أمامه الأمل ليصبح من أقطاب التجار و ذلك بما رآه من كنوز الجنوب وطرائق الوصول إليهما.

الفصل الأول

المبحث الثاني :

إشتغال الزبير بالتجارة خطوات أولى نحو قيام دولته .




إشتغال الزبير بالتجارة :

رفض الزبير مشاركة أبي عموري في تجارته ذلك لأنه خبر أرض الجنوب و ما تحويه من التجارات و طرائق الكسب وبعثت فيه الرغبة ليصبح واحداً التجار الكبار بعد أن أنس في نفسه الكفاءة و القوة و المقدرة لأن يكون تاجراً يشار إليه بالبنان فجمع ما كسبه خلال تلك الفترة من أنواع التجارة و اتجه به نحو الخرطوم ، و قد تحدث الزبير عن ذلك في مذكراته فقال:(و في اليوم السابع من شهر ربيع الأول سنة١٢٧٤هـ صار وصولي إلى الخرطوم و كنت في أثناء إقامتي بتلك الجهات قد إكتسبت معرفة بأحوال البلاد المذكورة و طبائع أهلها و كيفية معاملتهم ووجوه المكاسب التجارية الرابحة في بلادهم ، فلذلك إشتريت ذهبية (١) بما ربحته في تلك النواحي و إستجلبت مستخدمين بالماهية (٢) بحرية لملازمة الذهبية ، وبرية لملازمة السفر معي في البر و إشتريت بضائع لايقة لأهالي تلك البلاد و كل ذلك على وجه الفور و العجلة إنتهازاً للفرصة ، و أيضاً إشتريت لكافة المستخدمين أسلحة نارية وما يلزم لها من الذخائر لأجل الدفاع بها عن أنفسنا و أموالنا ، وفي اليوم السابع من رجب سنة ١٢٧٤هـ نفسها صار قيامنا من الخرطوم متوجهين إلى بحر الغزال و لما كانت بلاد الجور و ما يليها من البنجو أكثر تردد التجار إليها أحببت أن أتجاوزها مغرباً إلى بلاد قولو و أندقو(٣) ليحصل لي الإنفراد بمكاسبها فجزتها مغرباً إلى بلاد قولو و أندقو التي هي تحت كلمة السلطان (كواكي) (٤) وحكمه فجعلت لي مركزاً هناك ، و أقمت معه حينذاك (٥) .

---

(١) نوع من السفن التجارية النيلية .

(٢) أي براتب شهري محدد .

(٣) الجور ، البنجو، قولو وأندقو أسماء لمناطق تقع في الجنوب الغربي لبحر الغزال . د محمد المعتصم ـ جنوب السودان في مائة عام مرجع سابق ص ٤٣ .

(٤) في مذكرات الزبير باشا : ورد بإسم كُريم و هو أحد سلاطين قبائل النوير وهي قبائل مشهورة في جنوب السودان .
مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٣ ، ٤

(٥) المصدر السابق ص ٣ ، ٤ .




(وفي شهر رمضان الشريف عام تاريخه صار وصولي بها ، و إشتغلت في تصريف بضائعي ، وإشتريت سن الفيل و ريش النعام و غير ذلك ، و بعد أن جمعت جملة من البضائع المذكورة بعثتها في مركبي إلى الخرطوم لبيعها هناك وجلب بضائع أخرى إلينا .

و ما زلنا مقيمين في البلاد المذكورة إلى أن رجعت (١) إلينا في اليوم السابع عشر من ربيع الأول عام ١٢٧٥هـ متشحونة بالبضائع ، وفي أثناء إقامتنا ببلاد قولو وأندقو نقلت إلينا أخبار بلاد النمانم و مافيها من كثرة سن الفيل وعدالة ملكها السلطان(تكمة) (٢) و أمنيّة بلاده و إتساعها ، فرغبنا الرحيل إليها و التودد إلى ملكها بالهدايا لنحوز الربح العظيم من بلاده ، فتجهزنا بما يلزم للسفرو بارحنا لبلاد قولو وأندقو في غرة جمادي الأولى عام تاريخه) (٣) (أي سنة ١٢٧٥هـ) .

وهكذا نجد الزبير في ميلاد جديد هو ميلاد التاجر الطموح الذي يغريه تدفق الأموال و إتساع التجارة بحب المغامرة و إرتياد الآفاق الجديدة التي لم تكن معروفة لسواه من التجار غير عابئ بما يلاقيه من الشدائد والأهوال .

---

(١) يعني مراكبه (سفينته) .

(٢) هو أحد ملوك قبائل الجنوب الذي إشتهر بالعدل و الكرم و قد أقام الزبير عنده معززاً مكرماً ما بين عامي ١٢٧٥ـ١٢٧٨هـ و في هذا التاريخ تزوج الزبير من إبنة الملك الكبرى (رانبوة) فتوثقت بهذه المصاهرة العلاقة بين تاجرشمالي وملك الجنوب . سعدالدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٢٣

(٣) مذكرات الزبير باشا مصدر سابق ص ٢ .

وقد وصل الزبير إلى بلاد النيام نيام، و قدم هداياه الثمينة لملكها (تكمـة) ثم إستأذنه في التجارة في بلاده ، فأذن له و قربه منـه ، ولـم تلبث عـرى الصداقـة أن توثقت بينهمـا فزوجـه الملك ب (رانبـوة كـبرى بناتـه) ، فعـلا مقـام الزبـير بتلــك المصاهرة في عيون أهل البلاد ، و زادت تجارته رواجاً حتى إجتمع عنده في وقـت قصير الشئ الكثير ، و رأى أن يتجه بهذه البضاعة إلى الخرطوم فاستأذن الملك فـي المسير إلى الخرطوم و الرجوع ثانيـة فـأذن لـه ، وكـان ذلـك فـي ١٧ مـن رمضـان ١٢٧٨هـ /١٨ مارس ١٨٦٢م (١) . وفي الطريق رافقه صاحبه علـي أبوعـسـموري و لكنهما ضلا الطريق و هــلك أكثر رجالهم و فجأة وجدا نفسيهما و من بقي معهم من الرجال في بـلاد النويـر ، فتقـرب مـن ملكهم(كُريُـم) حتـى تـزوج بـإحدى بناتـه وأقام عنده شهراً ، ثم قصد الخرطوم وفي صحبته صديقه أبي عمـوري و مـن بقـي معه من الرجال ، وفي الطريق عند مشرع الربك ــ مقـر تجـارة أبوعمـوري تخلـف أبوعموري برجاله بينما واصل الزبير طريقه إلى الخرطوم فدخلها في الثاني عشـر من ربيع الثاني سنة ١٢٨٠هـ الحادي عشر من سبتمبر سنة ١٨٦٣م (٢) .

و في الخرطوم مكث بضعة أشهر باع خلالها ما معه مـن التجـارة و إشـترى بثمنها تجارة أخرى مما يروج في بلاد الجنوب كما إشترى أسـلحة و ذخـائر ، وزاد عدد الرجال العاملين معه ، ثم مضـى يستعد لرحلة جديـدة فـي أحـراش الجنـوب . فتوجه ثانية إلـى بـلاد النمـانم ، تلـك البـلاد الواسـعة ذات الخـيرات الكبـيرة الوافـرة والأمن المستتب ، بالإضافة إلـى أنهـا بـلاد صهـره الملك تكمـة . ففـي ٢٢ مـن ذي القعدة سنة ١٢٨٠هــ/ ٢٩ مـن أبريـل سـنة ١٨٦٤م غـادر الزبـير بقافلتـه الخرطـوم قاصـداً بلاد مــركز صهـره المـلك تكمة ، فـوصلها في ٢٠ من صفر ١٢٨١هـ (٣).

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦١ .

(٢) سعد الدين : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٢٩ .

(٣) مذكرات الزبير باشا مصدر سابق ص ٢ .




٢٥ من يوليو سنة ١٨٦٤م، و قدم هدايا ثمينة إلى صهره الملك تكمة فسر بها ، و أولم له وليمة فاخرة تليق بمقامه وظل الزبير فترة من الزمن ينعم بترحاب الملك تكمة و إكرامه و تقديره ، و لم يكتف الزبير بتوثيق علاقته بالملك تكمة وحده بل إمتدت علاقته إلى كثير من ملوك و سلاطين الجنوب ، وكان لأسلوبه الحكيم في التعامل مع هؤلاء السلاطين و الملوك بل مع أهل الجنوب بصفة عامة أبلغ الأثر في تمهيد الطريق ليصبح الزبير فيما بعد حاكماً يسعى للناس بالأمن و العدل بدلاً من التاجر الذي يسعى وراء الكسب و الربح فقط

لقد وطئت أقدام الزبير أرض الجنوب على غير رغبة منه لأول مرة في عام ١٢٧٣هـ و هو يومئذٍ عامل بسيط ضمن المجموعة العاملة مع التاجر الكبير علي أبو عموري .

و لقد سبق أن ذكرنا أن الزبير وصل الجنوب على غير رغبة منه ، ولكن الأقدار جعلته على قمة رجال أبي عموري إثر الهجوم الذي تعرضت له حملة أبي عموري من قبل بعض قبائل الجنوب ، و بفضل شجاعته و ما أبداه من دفاع عن صاحبه أبي عموري و رجاله حفظ له علي أبوعموري ومن معه من التجار ذلك الجميل ، و قدموه على رجالهم ، و صارت للزبير الشهرة بين كافة التجار المترددين إلى تلك النواحي (١) .

أما أهل هذه البلاد فقد أصبحوا بعد هذه المعركة يخشونه ويرهبون لقاءه ، وهذا ما أكده الزبير بقوله :(ورهبتني قبائل المجوس ، و خشيت سطوتي و إنتشر صيتي بينهم) (٢) .

---

(١) مذكرات الزبير باشا مصدر سابق ص ١ .
نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٠ .
(٢) مذكرات الزبير باشا مصدر سابق ص ١ .

و لهذا فإن الزبير بدأ صلاته بأهل الجنوب بعلائق مشوبة بالحذر ، كما بدأ أهل الجنوب صلاتهم به بعلائق مشوبة بالخوف و الرهبة ، فما كان منه إلا أن إستثمر هذه الرهبة وذلك الخوف ، بينما إجتهد الزبير في التقرب من ملوك الجنوب و توثيق صلاته بهم إجتهد أهل عامة الجنوب لكسب وده والحصول على رضاه ، فبادلوه كثيراً من عروض التجارة دون غيره حتى إنه جمع منها في سته أشهر ما كان يعجز تاجر كبير مثل أبي عموري عن جمعه خلال سنتين (١) فدفعه هذا النجاح إلى مستوى الإنفصال عن أبي عموري ، والإستقلال بتجارته و العمل لحسابه الخاص ، فسار إلى الخرطوم ، وسلك طريق كبار التجار فاشترى بعض السفن التجارية ، وأستأجر الرجال، و إشترى لهم الأسلحة و الذخائر ، ثم رجع بعد هذه الإستعدادات العظيمة إلى الجنوب كواحد من التجار الأقوياء الكبار ، وقد أغراه هذا الإستعداد التجاري والدفاعي وصيته الشائع بالتوغل في الجنوب أكثر ، فدخل بلاداً لم يسع إليها تاجرغيره ، فوصل بلاد قولو و فيها وجد نوعاً جديداً من التعامل بينه و بين ملوك و سلاطين الجنوب . فعلى سبيل المثال أخذ السلطان (كوكي) سلطان قولو يتقرب إليه ، و يرجوه في الإتجار في بلاده . ولما وصلت قافلته إلى بلاد النمانم التي يحكمها السلطان تكمة شرع هذا السلطان يتقرب إليه بالهدايا الثمينة ، ولم يكتف بذلك و إنما وثّق علاقاته به برباط المصاهرة فزوجه إبنته ، فعلت مكانة الزبير بين رعايا هذا السلطان ، و أقبلوا على خدمته والإتجار معه فاتسعت تجارته وكثرت أمواله ، وازداد عدد مستخدميه .

كذلك عندما وطأت قدماه أرض النوير(٢) تقرب إلى ملكهم(كُرْ يُمْ) وتزوج بإحدى بناته ، و بهذا أصبحت جميع أراضي السلطان كُرْ يُمْ تحت تصرف الزبير التجاري دون خوف أو خشية من أحد (٣) .

---

(١) سعدالدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٢٠ .

(٢) إحدى القبائل النيلية الكبيرة .

(٣) مذكرات الزبير باشا مصدر سابق ص ٢ .

نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦١ .

سعد الدين : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٣٤ .




و الزبير عندما كان يوثق علاقته بملك أو سلطان بوشائج المصاهرة لم يكن بدعاً في ذلك ، و إنما كان هذا مسلكاً سلكه التجار العرب و المسلمون من قديم الزمان في كل بلد دخلوه فأحس الناس قربهم ، و إستمعوا إلى دعوتهم ، ثم دخلوا في دين الله أفواجاً .و مما هو معروف أن كثيراً من البلدان الأفريقية والأسيوية لم ينتشر فيها الإسلام بغلبة المسلمين على أهل البلاد نتيجة الصراع العسكري ، وإنما إنتشر إستجابةً للدعوة التي بثها التجار بينهم ، و أيدها حسنُ أخلاقهم ومعاملاتهم الصادقة ، وساعد على هذا وشائج المصاهرة التي تمت بين الكثيرين من التجاروبين سلاطين و ملوك و رؤساء قبائل تلك البقاع وأعيانها(١) .

فالزبير بأصله العربي و نشأته الدينية و تمرسه في التجارة لم يغب عليه الأثر الذي تحدثه المعاملة الكريمة و الروابط الأسرية مع علية القوم في ديار هو أحوج ما يكون فيها إلى الحماية والسند فتجده يحرص على المعاملة الكريمة و التودد وإظهار المحبة للسلاطين و الملوك و رؤساء القبائل حتى في تلك الأجواء التي كانت تتلبد أحياناً بسحب الشك و الكراهية و المؤامرات فعندما أزمع الزبير الرحيل من أرض الملك كُرْيُم أصر هذا الملك على بقائه معه فتظاهر الزبير بأنه أذعن لرأي الملك و قرر البقاء معه ثم إزداد تودداً و تقرباً إليه حتى هدأت لواعج الشك عنده ثم لم يلبث الزبير أن تظاهربأنه يريد أن يودع رجاله و أن مراسم هذا الوداع تقتضي النزول معهم إلى الماء و الإبحار إلى مسافة ما ، و هكذا إستطاع الزبير أن يتخلص من قبضة الملك كُرْيُمُ، فلما عاد في رحلته الثانية من الخرطوم إلى بلاد النمانم تقرب إلى الملك(تكمة) بالهدايا الثمينة ولم يعتمد على رباط المصاهرة السابق فقط . حتى عندما بدأت نوازع الشر في الملك تكمة تظهر نتيجة خوفه من قوة الزبير المسلحة المتنامية، حتى في هذا الجو الذي أحيكت فيه

---

(١) Burkhardt , j .l . Travels in Nubian p.217(London 1822)

عباس محمد مالك : العرب العباسيون في السودان ص ١٧٧ ط١ دار طنبى الخرطوم بحري ١٩٨٧م.

يوسف فضل : دراسات في تاريخ الممالك في السودان مرجع سابق ص٢٤ .




المؤامرة لقتله و التخلص منه نجده قد إزداد قرباً من هذا الملك و تودد إليه بالهدايا الثمينة بما فيها الأسلحة النارية التي كان الملك في أشد الحاجة إليها (١) ثم أحسن إستخدام الحيلة و الدهاء للخروج برجاله و أمواله من أرض الملك (تكمة) . وكان الزبير لا يميل إلى إستخدام السلاح إلا في حالة الدفاع عن النفس و حينما يضطره الموقف إلى ذلك . و هكذا نجد الزبير في المرحلة الثانية من حياته في الجنوب يميل إلى اللين و الموادعة مهما كانت الأسباب ، حتى عندما تدور رحى الحرب و يُدعى إلى السلم كان يستجيب له فوراً ، كما حدث بعد إنتصاره على رجال الملك (تكمة) و هو في طريقه إلى بلاد النمانم التي يحكمها الملك دوية(١)، إذ طلب منه الملك (تكمة) إكراماً لحق المصاهرة التي بينهما أن يخرج دون قتال من أرض الملك دوية فخرج منها في الحال وهو موقن بأن هذا الخروج حقن للدماء بينه و بين ملك النمانم الملك تكمة و على الرغم من أن الزبير إختط لنفسه نهج الموادعة و سلوك المسالمة بيه و بين سلاطين الجنوب و آلى على نفسه الإلتزام بهذا النهج و التمسك بذلك السلوك فإن الأقدار دفعته في كثير من الأحيان إلى المصادمة و الحروب ، فعندما ساءت العلاقات بينه وبين صهره الملك تكمة وأراد الخروج من أرضه سد عليه رجال الملك (تكمة) الطريق في سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م إضطر إلى الحرب حتى تمكن من الخروج من أرض السلطان (تكمة) و عندما دخل بلاد قولو في سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م إعترض سلطانها السلطان (عدوة شكو)(٢) هذا الدخول ظاناً أن الزبير جاء للأخذ بثأر أخيه منصور الذي سبق أن قتله ذلك الملك و أخذ أمواله(٣) في سنة ١٢٨٠هـ و لكن الزبير إلتزاماً منه بمنهج المسالمة و سلوك اللين أخذ يؤكد لسلطان قولو أنه لم يأت لأخذ الثأر و إنما جاء للتجارة فقط و دفع بكثير من الهدايا القيمة بين يدي سلطان قولو حتى هدأت ثائرته و إطمأنت نفسه .

---

(١) سعدالدين : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٢٨ .

(٢) و(٣): قبائل الجنوب منذ قديم الزمان وحتى الآن يطلقون على رؤساء القبائل اسم السلاطين والملوك ولذلك نجد أسماء كثيرة يطلق عليها ملك أو سلطان وهم في الواقع رؤساء أو مشائخ قبائل لهم سلطات واسعة .
نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٧ .




لكن سلطان قولو لم يلبث أن تناوشته الهواجس و لعبت به الظنون فأصر على خروج الزبيرمن أرضه ، فتودد إليه الزبير مرة أخرى و طلب أن يمهله حتى ينتهي فصل الأمطار وتجف الطرق و لكن سلطان قولو إزداد إصراراً و عناداً ، وهنا وجد الزبير أن جميع الحيل و أساليب الموادعة و السلم قد إستنفدت و لم يبق غير الحرب فخاضها مرغماً حيث دارت دائرتها على سلطان قولو فهزم رجاله و قتل السلطان نفسه وأسر إبنه ، وأصبحت أرضه تحت سلطة الزبير .

و بهذه المعركة وهذا النصر إنتقل الزبير إلى الطور الجديد من حياته في الجنوب فأصبح الزبير الحاكم في الجنوب بدلاً من الزبير التاجر في الجنوب و كان ذلك منتصف عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م(١) .

و خلاصة الأمر أن الزبير وطئت أقدامه أرض الجنوب خائفاً من المجهول الذي تخبئه له الأقدار حيث إشتهرت أرض الجنوب بأهوالها و مخاطرها ، ثم وجد نفسه ينفض عنه ثوب العامل العادي ، و يتوشح عباءة التاجر الذي أفادته الإقامة في تلك الجهات من كسب المعرفة بأحوال البلاد و طبائع أهلها و كيفية معاملتهم ووجوه المكاسب التجارية الرابحة ، فصاهر حيث رأى المصاهرة خيراً ، و كون جيشاً وقاتل حيث رأى القتال هو الأفضل ، حتى لبس تاج الملك و جلس على كرسي السلطان بالإضافة إلى رداء التجار ، فعمل على بسط الأمن و إقامة العدل ، وإزدهار التجارة في تلك الأصقاع .

---

(١) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٤

نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٥

سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٤٣ .




الفصـــــل الأول

المبحـث الثالـث :

تنظيم الأحوال الداخلية في الدولـة : العاصمة ، الجيـش الإدارة والتجارة .



تنظيم الأحوال الداخلية في دولة الزبير:

بإستيلاء الزبير على (باية) عاصمة سلطان قولو بعد هزيمته و قتله في منتصف عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م وجد الزبير نفسه ملكاً مستقراً بدلاً من التاجر المتجول وإنتقلت بالتالي همومه من الكسب و الربح و المحافظة على التجارة إلى هموم السلطان و متطلباته من أمن و دفاع و إستقرارورعاية مصالح الآخرين .

و على قدر أهل العزم تأتي العزائم فقد كان الزبير كفئاً للملك والسلطنة فلم يضيع وقتاً و أخذ في تنظيم دولته الجديدة فجعل الإهتمام بالعاصمة والجيش والإدارة و التجارة هي الركائز التي قامت عليها دولته .

العاصمة:

فالعاصمة قصبة الحكم و مقر السلطان و رمز الدولة و عنوانها فكان لابد أن يوليها إهتمامه الأول ، فاتخذ (باية) مركز سلطان قولو عاصمة له و غير إسمها حين أطلق عليها (ديم زبير) رمزاً للدولة الجديدة (١). ثم واصل الزبير جهوده لتنظيم العاصمة وإدارتها وتجديد عمرانها ، فاختط الخطوط للجيش والشرطة ومخازن السلاح و الذخيرة و مخازن البضائع و منازل الضيوف والتجار وأصحاب الحاجات حتى أصبحت ديم الزبير في مصاف كبريات المدن السودانية .

و لقد قضى الدكتور شواينفورث (٢) عدة سنوات متجولاً في بحرالغزال وزار خلالها الزبير باشا في عاصمته ديم الزبير، فكتب يصف حال الزبير وبعض معالم العاصمة بقوله (أحاط الزبير نفسه بحاشية لا تقل في مظهرها عن حاشيات الأمراء ، و كان مقره الخاص مؤلفاً من مجموعة من الأكواخ المربعة الكبيرة المتينة البنيان ، يحيط بها سياج من نباتات عالية ، و تضم في نطاقها إدارات الحكم المتباينة التي يقوم الحرس المسلحون أمامها ليل نهار (٣).

---

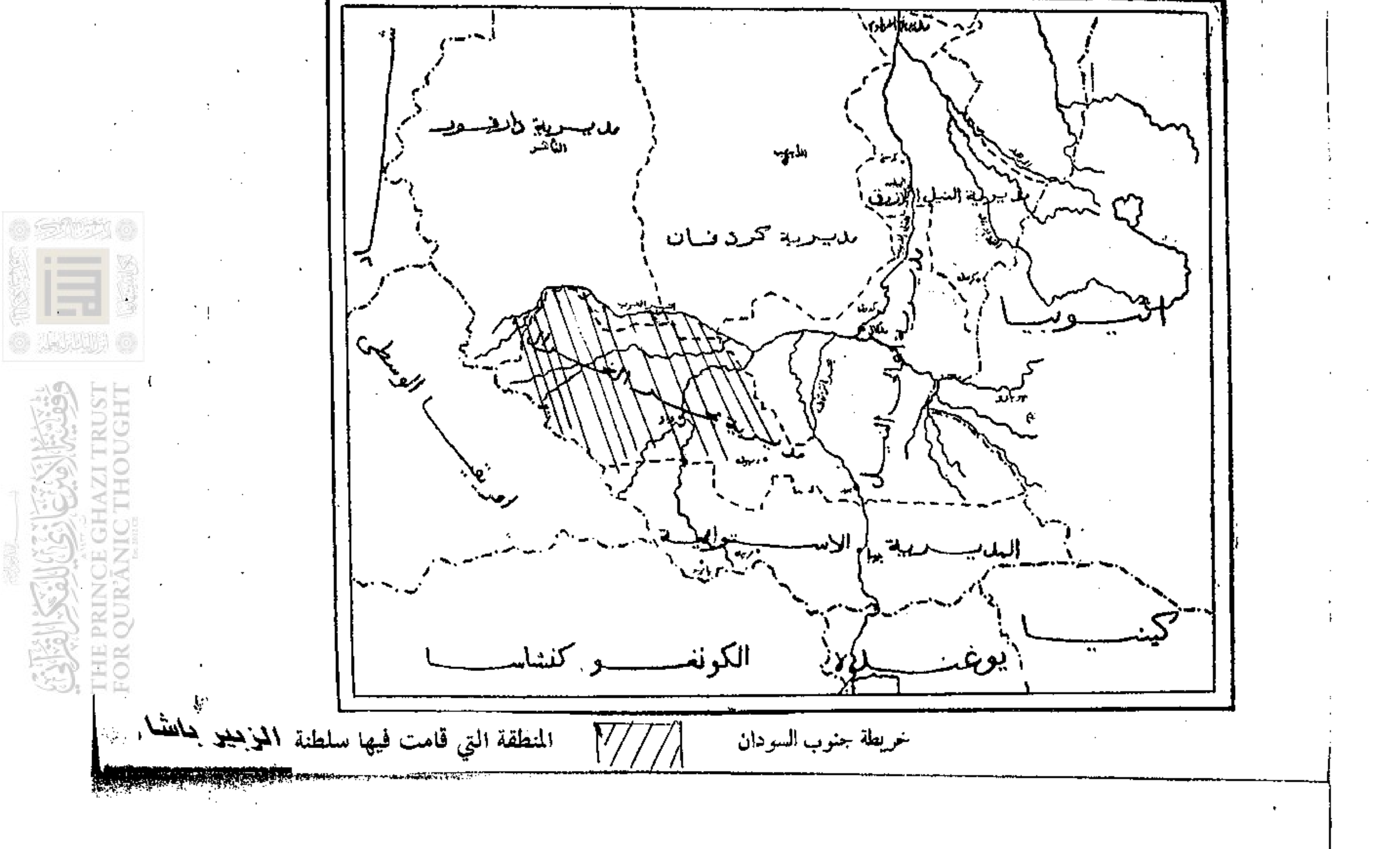
(١) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٤

نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٥ .

سعدالدين الزبير ـ الزبير باشا رجل السودان ـ مصدر سابق ص ٤٣ .

(٢) الدكتور شواينفورث : عالم نبات ألماني بلطيقي ومكتشف قضى سنيناً متجولاً في مديرية بحر الغزال . آلان مورهيد ـ النيل الأبيض ص ١٧٧ .

(٣) آلان مورهيد ـ النيل الأبيض ص ١٨٨ / ١٨٩ دار المعارف المصرية ١٩٥٦ م ترجمة محمد بدر الدين خليل



خريطة جنوب السودان

المنطقة التي قامت فيها سلطنة الزبير باشا



(و ثمة أجنحة خاصة ملحقة بها ، و مفروشة بأرائك مكسوة بالسجاد يقود إليها الضيوف جميعاً عبيدٌ في ثياب ثمينة ، و يقدمون لهم القهوة والشربات والسبك (١) وكان يضاعف من أبهة هذه القاعات الرسمية وجود أسود مغلولة كما هو متوقع بسلاسل ضخمة و متينة للغاية (٢) و بالاضافة إلى هذا شيّد الزبير بالعاصمة مكتبة ومسجداً (٣) لإقامة الشعائر الإسلامية و رمزاً لفكر و توجه الدولة الوليدة ، كما بنى معهداً دينياً لتعليم علوم الدين و اللغة و أحضر له الفقهاء و العلماء من الأزهر الشريف ، كما أحضر عدداً كبيراً من رجال الدين و حفظة القرآن الكريم من شمال السودان (٤) .

الجيش:

و قد إهتم الزبير بتخطيط العاصمة و عمرانها لتكون رمزاً لدولته و لكي يظهر ثراؤها و عظمتها و كان لابد للمحافظة على هذا المظهر وهذه العظمة من أداة عسكرية قوية مرهوبة الجانب وهنا اهتم الزبير بالجيش إهتماماً عظيماً وذلك لأهميته في حفظ الأمن الداخلي و بث هيبة الدولة في أعين أعدائها ، خاصة أن دولته قامت في وقت كانت تدار فيه مصالح الدولة وفقاً لقوتها وجبروتها العسكري .

و قد إهتم الزبير إهتماماً عظيماً ببناء القوة العسكرية لدولته بعد أن أصبحت لديه خبرات دفاعية إكتسبها منذ أن كان يقود القوافل التجاريةوسخرها لحماية تجارته فأصبح لديه جيش تهابه الأعداء و تخطب وده الأصدقاء .

---

(١) آلة يستخدمها الناس لشرب الدخان و هي تشبه الغليون غير أن أنبوبها طويل .

(٢) ألان مورهيد: النيل الأبيض مصدر سابق ص ١٨٨/١٨٩ .

(٣) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تلغرافات شفرة تركي ص (٥/١٠ ، ٦/١١ ، ٦/١٢ ، ٧/١٣) ٢٩ رجب ١٢٩٠هـ ١٩ سبتمبر ١٨٧٣ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) محجوب برير : قبس من الفكر و التاريخ مرجع سابق ص ٢٨ .




و ترجع البدايات الأولى لهذا الجيش إلى عام ١٢٧٤هـ /١٨٥٨م عندما إنفصل الزبير عن علي أبي عموري و سار إلى الخرطوم راغباً في الإستقلال بالتجارة لحسابه الخاص فاستأجر مجموعة من الرجال على عادة التجار و سلحهم بالبنادق و زودهم بما يلزم من الذخائر لأجل الدفاع عن الأنفس و حراسة الأموال (١) وفي الطريق مر بقرية من قرى الدينكا (٢) يقال لها قرية (شول) وفي هذه القرية وجد سيدة أوروبية تقيم في بيت فخم و يقوم على حراستها مجموعة كبيرة من الرجال المسلحين ، فاشترى منها أسلحة تكفي لمائة و خمسين رجلاً(٣) و عندما وصل أرض النمانم وجدهم يبيعون أهل الجنايات كاللصوص و الزناة حيث يذبحون وتباع لحومهم طعاماً لمن يشتريها كما هي عادة تلك القبائل . فأخذ يشتري من يرى أنه أصلح للجندية حتى إجتمع عنده منهم نحو خمسمائة رجل فأعتقهم و دربهم على حمل السلاح الناري (٤).

وفي الجنوب كان لتحالف الزبير رحمة والنور عنقرة (٥) أثره الفعال في تقوية وزيادة عدد جيش الزبير حيث تجاوز عدد جيش الزبير خمسة آلاف نفر كلهم مسلحون بالأسلحة النارية ، و قد ذكر ذلك النور عنقرة في مذكراته حيث قال :

---

(١) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٢ .

(٢) قبائل الدينكا هي أشهر القبائل في جنوب السودان و أكثرها عدداً و هي الدينكا و الشلك و النوير و قبائل عدة في الجنوب و لكنها صغيره إذا ما قورنت بهذه القبائل الثلاث ينتشرون في منطقة واسعة تمتد من مدينة الرنك في الشمال إلى مدينة واو في الجنوب و من بحر الغزال شرقاً إلى جنوب كردفان و دارفور غرباً .
د/ محمد المعتصم : جنوب السودان في عام ص ٢٨ ط١ ، دار النشر والثقافة مصر ١٩٧١م .
محمود طلعت : غرائب الزمان في فتح السودان ص٥٢ مطبعة الإسلام مصر ١٣١٤هـ .

(٣) سعد الدين : الزبير باشا رجل السودان ص ص ٣٦ ، ٣٧ وهذا دليل على أن الأوروبيين الذين جاءوا لنشر الديانة المسيحية هم الذين أدخلوا الأسلحة الفتاكة إلى جنوب السودان وليس التجار العرب المسلمين .

(٤) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٢٠ .

(٥) النور عنقرة دنقلاوي الأصل عمل في الجيش المصري ، ثم أصبح أحد قادة الزبير ، ثم أصبح قائداً في الثورة المهدية ـ محجوب برير ـ قبس من الفكر والتاريخ مرجع سابق ص ٤٣ .



(إجتمعنا نحن و الزبير باشا بالكيانية و كان تحت رئاستي زيادة على الألفين نفر تقريباً جميعهم حاملين أسلحة نارية بروحين (١) و الزبير معه ثلاثة آلاف نفر حاملين أسلحة نارية بروحين ، الجملة خمسة آلاف بازنقر (٢) و لهم معرفة بالنيشان (٣) وضرب السلاح (٤).

و يتحدث الزبير عن بعض مصادر تزويد هذا الجيش بالرجال بقوله: (وكنت إبان زيارتي الأولى للمناطق الواقعة غرب بحر الغزال قد إلتقيت هناك بكثير من العبيد الذين آثروا الفرارمن أسيادهم في بلاد الكلكلة و دار التعايشة و غيرها من المناطق ، و أقبلوا نحوي يطالبون الأمان من رجالي و كان بينهم الزاكي طمل الذي بلغ فيما بعد شأواً عظيماً في عهد الخليفة عبدالله التعايشي إلى أن وُشي به عند هذا الخليفة ، فاستدعى إلى أمدرمان و ألقى به في الجيش إلى أن مات جوعاً بعد أن قاسى أشد أنواع العذاب و منهم أبو عنجة الذي أبلى هو الآخر بلاءاً حسناً في حروبه ضد الحبشة إلى أن مات مسموماً (٥).

(وأخترت بعد ذلك حوالي الستمائة من هؤلاء العبيد و زودتهم بالسلاح و الذخيرة جاعلاً قيادتهم لرابح فإثبتوا في مختلف الظروف التي عرفت بعد ذلك أنهم محاربون أشداء ذوو جلد على المشقات و الأخطار ، و بهم أحرزت الكثير من

---

(١) بروحين : أي بقاذفين .

(٢) بازنقر هم أبناء الجنوب في جيش الزبير .

عصمت حسن زلفو : كرري ص ٣٢ . مطبعة التمدن ط ٣ الخرطوم ١٩٧٨م .

(٣) النيشان : المقدرة على إصابة الهدف.

(٤) مذكرات النور عنقرة ص ١ . دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(٥) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٥٠ .



إنتصاراتي ، ولم يلبث أقارب هؤلاء و أصدقاؤهم بعد أن ذاع في الجهات كلها حسن معاملتي لرجالي و رفقي بهم أن أقبلوا هم أيضاً للإنضمام تحت لوائي ، وهكذا تجمع لي جيش كثير يبلغ تعداده حوالي أربعة آلاف (١) رجل تحت قيادة قوادهم و زعمائهم أنفسهم و إن كان الجميع بعد ذلك يخضعون في النهاية للقيادة العليا التي وضعتها في يد رابح و كنت أحسن معاملتهم بل و أحرص على رفاهيتهم حرصاً شديداً حتى زاد تعلقهم بي وإخلاصهم لي) (٢)، و كان الزبير قد أسترضى سادة هؤلاء العبيد بعبيد آخرين بعد أن رفض هؤلاء العبيد الرجوع إلى سادتهم .

كان هذا وضع القوة المسلحة التي كانت تحت إمرة الزبير قبل قيام الدولة، أما بعد أن دانت له بحر الغزال و ما حولها فقد أصبحت الناس تتقاطر إليه من كل الجهات للإنتظام في خدمته ، فجلب الأسلحة و جمع جيشاً قوياً بلغ تعداده في عام ١٢٨٧هـ/١٨٧١م حوالي الأثني عشر الفاً(٣) .

ومما تجدر الإشارة إليه أن أهل السودان لم يعرفوا قبل الزبير النظم العسكرية و لا القوات النظامية ، و للزبير يرجع الفضل في تعليم أبناء السودان أستخدام السلاح الناري ، فهو أول من نشر هذا السلاح بينهم (٤) و كان جيش الزبير مكوناً من فرقتين ، فرقة من الجعليين و هم قبيلة الزبير و الدناقلة و بقية قبائل الشمال و سماهم (البحارة) (٥) وفرقة أخرى من أبناء الجنوب أطلق عليهم إسم البازنقر (٦) .

---

(١) في الصفحة السابقة ذكر النور عنقرة أن عدد الجيش خمسة آلاف وذكر هنا الزبير أن العدد أربعة آلاف وهذا الاختلاف ربما يرجع إلى أن الزبير يتكلم عن فترة سابقة لتلك التي يتحدث عنها النور ورغم أن عدد الجيش كبير بالنسبة لذلك الوقت إلا أنه لا يستبعد لشهرة الزبير .

(٢) سعدالدين الزبير ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص٥٠

(٣) سعد الدين ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٦٣ .

(٤) محجوب برير ـ قبس من الفكر والتاريخ مرجع سابق ص ٢٧ .

(٥) جنود الزبير من العرب ـ محجوب برير ـ قبس من الفكر والتاريخ مرجع سابق ص ٢١/٢٢.

(٦) جنود الزبير من السود ـ محجوب برير ـ قبس من الفكر والتاريخ مرجع سابق ص ٢١/٢٢.




و قد اقتبس الزبير كثيراً من أنظمة الجيش المصري مستفيداً من خبرة قائده رابح فضل الله الذي كان صف ضابط في جيش الخديوي إسماعيل قبل أن يعمل ضمن قوة الزبير . و لقد بلغ جيش الزبير مبلغاً عظيماً من التنظيم حتى أصبحت له موسيقاه العسكرية ، و زيه الرسمي و شارات رتب أفراده و قواده ، و بيارق وحداته ، و علمه المميز (١).

أدرك الزبير أن كل النجاحات التي حققها و تلك التي يأمل في تحقيقها من أمن و أستقرار وثروة و شهرة لم تكن تتحقق لولا قوة جيشه ، فأولاه عنايته واهتمامه الزائد ، فأرسل بعض قادته سراً إلى الخرطوم و القاهرة متسترين في زي تجار الجمال وفي طليعتهم صديقيه رابح فضل الله و النور عنقره الدنقلاوي وذلك لتجنيد عدد من الجنود النظاميين المدربين الذين تركوا الخدمة في جيش الخديوي أو فصلوا منها ، و إستجلاب ترسانة للأسلحة ومصنع لصنع الذخيرة و كمية من بارود البنادق و المدافع تكفي حاجة البازنقر ، فحالف التوفيق رسله و جلبوا كل ذلك من مصر عن طريق بعض التجار الأجانب العاملين في تجارة السلاح و الذخيرة و لقد كان من أبرز نتائج البعثة السرية إلى مصر هو تمكن النور عنقرة الذي كان يعمل في خدمة الجيش المصري من قبل من جمع فلول وحدته السابقة و كان النور عنقرة قد أظهر نبوغاً عظيماً في سلك الجندية المصرية أهله للترقي إلى رتبة الضابط فأصبح قائداً لقوة قوامها ألف جندي من الباشبزق (٢) المدربين (٣).

---

(١) محجوب برير : قبس من الفكر و التاريخ مرجع سابق ص ٢٧ .

(٢) جنود الحكومة المصرية النظاميين . ـ المرجع السابق ص ٤٣ .

(٣) محجوب برير : قبس من الفكر والتاريخ مرجع سابق ص ٤٤/٤٣ .




وكانت القيادة المصرية في السودان قد جعلت مقرهم في أبي سمبل ، ثم رأت فيما بعد أنهم عبء ثقيل على ميزانية الدفاع المحدودة خاصة بعد أن توقف الزبير عن دفع الأموال المضروبة عليه و إضمحل النشاط التجاري مع الأقاليم الجنوبية و ظلت الأحوال هادئة في شمال السودان و بلغ الأمر من السوء و التردي حداً أعجز القيادة عن دفع مرتبات الجند في تلك القوة لمدة سته أشهر ثم صدر قرار بتسريحهم و الإستغناء عنهم و إستلام أسلحتهم و ترك لهم زيهم العسكري الذي كان يعتبر ملكاً خاصاً للجندي حتى بعد تسريحه .

و قد انتهز النور تلك الفرصة المواتية فاقنع جنوده المسرحين بالإنضمام إلى جيش الزبير و أغراهم بالمرتبات الجزيلة من عوائد التجارة ، وفئ المعارك ، وعوائد التجارة ، وكان الزبير يمنحها كهبات لجنده بعد كل معركة تشجيعاً لهم ، فلما جمع النور عنقرة شتات قواته تحرك بهم في رفقة رابح صوب بحر الغزال .

كذلك نجح رابح فضل الله في تجنيد جماعة من الهجانة (١) المسرحين من خدمة الجيش المصري و قد تمكن من ذلك بمساعدة صديق له هو رضوان العبادي الذي تم تسريحه بعد أن كان المسؤل عن قوات الجمال ، و رضوان العبادي معروف بشجاعته و قدراته القيادية الفائقة وعاد رابح بالقوتين بعد أن سلك بهما طريق الصحراء إلى الحدود الليبية السودانية و من هناك إلى كاجا و كتول وسهول كردفان و منها إلى بحر الغزال حيث إستقبلهم الزبيرو كبار قادته وجموع البازنقر فيما يشبه إستقبال الأبطال الفاتحين ، وأضحى بهم أكثر منعة وقوة (٢).

---

(١) مأخوذة من كلمة الهجن و هي الجمال و الهجانة هم الجنود الذين يستخدمون الإبل في حراسة الثغور . محجوب برير ـ قبس من الفكر والتاريخ ص ٤٤ .

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .



و من منطلق دعم قوة الدولة و ترسيخ دعائم الجيش قام الزبير بإنشاء جهاز إستخبارات سياسي و عسكري بالغ القوة و التأثير ، و إتخذ لادارته طائفة من أهله و ذوي عصبيته من الجموعية و الجميعاب و الجعليين و العناصر الأخرى المناوئة للوجود العثماني في السودان (١) .

كذلك أنشأ الزبير داخل وحدات جيشه (البازنقر) فرق « الزنفران » التي اهتمت بتطوير الموسيقى الشعبية و إبتكار الألحان المؤثرة في وجدان الجماهير بحيث تمثل و تجسد الإرث القبلي من غناء و ألحان و رقصات مختلفة ، و في سبيل ذلك جلب الزبير لفرق الزنقران أدوات موسيقية بعينها مثل آلة الطبل النحاس ، و آلة الرونقي و آلة الزنقار ، و الصفارة بمختلف أنواعها ، و آلات الصاجات النحاسية متعددة الأغراض .

و قد نقل بعض هذه الآلات أفراد جيش الزبير من مصر فاختلفت الإيقاعات وألحان هذه الآلات بإختلاف الغرض من عزفها و مناسبات العروض ، فهناك ألحان قوية كانت تعزف لطوابير السير العسكرية ، و أخرى أشد قوةً و حماساً كانت تعزف قبل بداية الحرب ، و منها الرقيق الخلاب الذي يعزف للرقص و الطرب في الأفراح و منها اللون الآخر الحزين المؤثر الذي كان يعزف في المناسبات المفجعة الأليمة (٢) .

---

(١) محجوب برير : قبس من الفكر و التاريخ مرجع سابق ص ٣٩ .

(٢) محجوب برير : قبس من الفكر و التاريخ مرجع سابق ص ٣٩ /٤٠




إدارة الدولـــــــــة

إذا كـان الجيـش هـو صمـام الأمـان لأي دولـة ضـد الأخطـار الخارجيـة فـإن الإدارة الحسنة هي صمام الأمان ضد الفوضى و الإضطراب الداخلي و لم تغب هذه الحقيقة عن فطنة الزبير و حنكته كرجل دولة فآخى بين قيادات القبائل من السلاطين و الشيوخ داخل دولته و اجتـهـد الزبير في بسـط الأمـن و العدل و الإستقرار بين رعاياه حتى إنتشر صيته كملك عادل في السودان كافة ، و سارت بأخبار دولتـه الركبان ، و تحدث بها الشيب و الشباب و أخذ الناس يتوافدون عليه من كل مكـان . و قد تحدث الزبير عن أسلوب إدارتـه لرعاياه بقولـه:(وكـانوا أعداء لا يميلـون لبعضهم البعض ، بل كل جنس محصور بأرضه لا يعامل غيره إلا بـالحرب و شن الغارات حتى ليصطاد أحدهم الآخر كما نصطاد نحن الصيد في القفـار ، فلما ولانا الله عليهم قبّحنا لهم أفعالهم ، و إجتهدنا فـي تحـابيهم مـع بعضهـم البعـض و إدخـال الأمن بينهم ، حتى صـاروا يتواصلـون و يتصـاهرون و يتـوادون مـع غيرهم مـن الأجنـاس الأخرى و يتعـاملون بـالبيع و الشـراء ، و يـأمنون بعضهـم فـي السـفر والإقامة ، فسمع مـن وراءهـم (١) مـن المجـوس المتوحشين أخبـار عدلنـا ، و مـا حصل لرعايانا من الأمن والراحـة و إتساع المزارع و كـثرة المكاسب ، فطفقوا يأتون أفواجاً أفواجاً من مسافات بعيدة طائعين بالمحبة يطلبـون مندوبيـن مـن طرفنـا ليكونوا حكاماً عليهم) (٢) .

---

(١) الضمير يعود على سلاطين القبائل التي خضعت لسلطان الزبير .

(٢) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٣ .

سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٤٣ .



التجـــارة :

إن التجارة هي الحرفة الأساسية التي نشأ الزبير و ترعرع فيها و هي الحرفة التي إشتغل بها في الجنوب و هى التي سالم و حارب من أجلها . وهي التي بوأته مقاليد القيادة و الريادة و الإدارة و هي التي رفعته منازل العز والسلطان ، لذلك لم يكن ليشغله عنها شاغل بل طوع أداة السلطة التي أتيحت له لتكون في خدمة التجارة فهو عندما أقر ميثاق (١) المؤآخات و الوحدة بين القبائل المتحاربة التي خضعت به كانت التجارة و تبادل المنافع التجارية أهم بنوده ، كذلك أستغل الزبير سلطته في إبرام معاهدة حماية الطرق التجارية مع مشايخ عرب الرزيقات (٢) وعندما تنصل عرب الرزيقات عن هذه المعاهدة و قطعوا طرق القوافل إستغل الزبير قوته العسكرية التي بناها (الجيش) لتأديب المشايخ الذين نقضوا العهد التجاري و ليعيد بواسطة الجيش الأمن و الأمان إلى القوافل التجارية التي روعها تعدي عرب الرزيقات (٣).

فاستقرت الأحوال و إطمأن الناس و توافد على الزبير التجار زرافات ووحدانا ، مسلمين و غير مسلمين و جلبوا إليه مختلف التجارات عبر البحر الأحمر من الحديدة ، و مصوع ، و طرابلس الغرب بالإضافة إلى تجارات مصر عبر درب الأربعين الواردة إلى كردفان و دارفور ، ثم التجارات عبر النيل من مصر إلى الخرطوم و منها إلى الجنوب ، فأزدهرت التجارة إزدهاراً كبيراً و طار صيت الزبير مع التجار في كل مكان حيث كانوا يتحدثون عن كرمه و شجاعته و حسن إستقباله للتجار و الحرص على رعاية مصالحهم (٤) .

---

(١) لم يكن هناك ميثاقاً مكتوباً و إنما يفهم من مذكراته أنه عمل على المؤآخاه و الدعوة إلى التودد و المصاهرة و التجارة فيما بينهم .
مذكرات الزبير مصدر سابق ص ١

(٢) مذكرات الزبير : مصدر سابق ص ٥

(٣) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٤٣/ ٤٤ .

(٤) محجوب برير محمد نور ـ قبس من الفكر والتاريخ ـ مرجع سابق ص ٣٨ .

الفصـــل الأول

المبحث الرابع:

النهضة الحديثة والصبغة الإسلامية في دولة الزبير.



النهضة الحديثة (الصبغة الإسلامية في دولة الزبير):

نشأ الزبير في أسرة لا هم لها إلا الإشتغال بالتجارة و نشر العلم ، و قد حمل الزبير هذين الهمين معه في كل أطوار حياته ، و لقد مر بنا كيف كان إشتغاله بالتجارة و بحثه عن المغامرات التجارية الطريق الذي إنتهى به نحو أعتاب السلطة فأصبح ملكاً ، كما مرّ بنا أيضاً كيف كان الزبير بعد أن أصبح ملكاً يهتم إهتماماً شديداً بالقوة المسلحة ، و أن رجاله بعد أن كانوا أفراداً يتراوحون بين الخمسمائة إلى الألفين نفر تنحصر واجباتهم في حماية تجارته أصبحوا جيشاً منظماً يناهز الأثني عشر ألفاً إمتدت واجباتهم إلى إقامة العدل ونشرالأمن و السلام في هذه الربوع الشاسعة التي كان يسودها الظلام و التوحش و الهمجية (١) .

لقد أدرك الزبير من تجاربه أن الأرض التي لا يسود فيها الأمن و السلام و الإستقرار لن تكون أرضاً صالحة للتجارة أو لغيرها من أنواع التمدن والحضارة .

و عندما إطمأن الزبير إلى قدرة جيشه على حماية الأرض التي دانت له ، وأن الأمن و السلام و الإستقرار أصبح ملازماً لذكردولته إتجه بهيئته إلى جوانب أخرى هي التمدن و العمران و توفير ما تقوم به حياة الناس من المكاسب والمصالح المادية و المعنوية مبتدئاً بالتجارة .

و لم ينس الزبير في نشوة النصروأبهة الحكم أنه تاجر، فعلى الرغم من مشغوليات الحكم و مسئوليات الأمن و ما تتطلبه من جهد فإن ذلك كله لم يمنعه من ممارسة التجارة في أحسن أحوالها كما قال :(لم يمنعني الملك من حرفة تجارتي بل صار لي عوناً عليها و زيادة فيها) (٢) .

---

(١) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٦٣ .

(٢) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٤

نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٦



لقد كان أول ما سعى إليه الزبير هو فتح و تأمين طريق التجارة بين بحر الغزال و كردفان و ذلك لطول طريق النيل و كثرة أخطاره و مشقاته . ففي شوال سنة ١٢٨٢هـ (مارس سنة ١٨٦٦م) أوفد الزبير رسلاً بهدايا إلى مشائخ عربان الرزيقات (١) القاطنين على طريق التجارة فحضر إليه منهم ثمانون شيخاً وعاهدوه على فتح الطريق و تأمين التجار المسلمين والمسيحيين وأقسم كل واحد منهم خمسين قسماً على كتاب الله ليحافظنّ على هذا العهد ، فجعل لهم مقابل ذلك جعلاً معلوماً يأخذونه من التجارة (٢) .

و قد تحدث الزبير عن نتائج هذه المعاهدة التي تمت بينه و بين عربان الرزيقات فقال:(و سرعان ما بدأت ثمار هذه المعاهدة تتساقط في حجري ، إذ ما لبث هذا الطريق لقصره و سهولته أن جذب إلى مملكتي جموع التجار و الناس الذين أقبلوا بالبضائع من كل مكان : الحديدة ، مصوع ، وجدة ، و طرابلس فأزدهرت التجارة في أنحاء البلاد إزدهاراً كبيراً) (٣) كما إتجه الزبير إلى تنمية موارد الدولة و تطوير العمران و نشر التمدن ، فجعل مهنة صيد الحيوانات البرية نشاطاً جماعياً منظماً ، و إتجه لإحتواء كل المناشط الإقتصادية الهامة و ضبطها والسيطرة عليها ، فاحتكرت الدولة تجارة الصادر و الوارد و تجارة الجملة .

---

(١) عرب الرزيقات : من قبائل البقارة رعاة البقر ـ و هم أغنى قبائل البقارة و أكثرها عدداً و أقواها مركزاً و ينتشرون شمال بحر العرب و لهم فروع ثلاثة هي : الماهرية و النوابية و المحاميد .
موسى المبارك : تاريخ دارفور ص ٢٢ دار الطباعة جامعة الخرطوم .

(٢) نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٦ .

(٣) سعد لدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٤٤ .




وخصصت لتلك التجارات مخازن واسعة لشراء كل منتجات الأهالي بأسعار مجزية و نظمت حولها حراسات دورية (١) و بعد أن يتم جمع هذه المتاجر تشرع الدولة في بيعها للتجار الوافدين بما يحقق لها دخلاً ثابتاً (٢) وأرباحاً مجزية حتى أصبحت تلك التجارات مورداً هاماً من موارد الدولة(٣) .

كذلك عمل الزبير على تأسيس نهضة صناعية و زراعية ففي مجال الصناعة أحضر العمال المهرة من أرباب الحرف اليدوية (٤) من مختلف الجهات كالنجارين والحدادين و الحائكين و ذلك بغرض نشر هذه الحرف بين القبائل الوثنية في الجنوب للإشتغال بها بدلاً عن العداوة و البغضاء و ما يترتب عليها من حروب كانت سائدة بينهم .

و في مجال الزراعة أنشأ الزبير مزارع جماعية و جلب لها البذور من شمال السودان و مصر و كان من أهم ما عني الزبير بالإكثار من زراعته الذرة والأرز .

و في مجال الصحة العامة أنشأ الزبير مؤسسة علاجية تستخدم الأعشاب وغيرها من وسائل طب الأعشاب فلقد إعتمد المشتغلون بطب الأعشاب كتب التراث والآيات القرآنية و مأثورات الحكمة منافع للتداوي و الشفاء ، و بمرور الأيام توسعت هذه المؤسسة و أصبح لها فروع في كثير من أطراف الدولة فأشتهرت وذاع صيتها في شمال السودان و مصر حتى أن منتجاتها من الأعشاب ،و ثمار الأشجار البرية و أنواع طب الأعشاب القومي كانت ترسل في شكل شحنات تجارية إلى شمال السودان و مصر و غيرها من البلاد العربية (٥) .

---

(١) محجوب برير : قبس من الفكر والتاريخ مرجع سابق ص ٢٨
(٢) سعد الدين : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٦٥ .
(٣) محجوب برير : قبس من الفكر والتاريخ مرجع سابق ص ٢٨
(٤) سعد الدين الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٦٥ .
(٥) محجوب برير : قبس من الفكر والتاريخ مرجع سابق ص ٢٨ .




كما عمل الزبير على تشجيع و جلب من له خبرة بالأعمال الطبية (١) ، و لم يكن الزبير رجل تجارة ودولة و حرب فحسب ، و إنما كان بالإضافة إلى كل ذلك رجل علم تفيض جوانحه حباً للعلم و العلماء فعمل على إنشاء معهد ديني لتعليم علوم الدين و اللغة العربية ، و قد قام بالتدريس فيه علماء من خريجي الجامع الأزهر و شاطرهم في ذلك بعض علماء السودان .

و قد حرص الزبير على أن تصطبغ دولته بالصبغةالإسلامية الواضحة فبالإضافة إلى المنشآت الإسلامية كالمعهد الديني والمساجد و غيرها عمل الزبير على إنشاء مجلس إستشاري مكون من مجموعة من العلماء إختصوا بتقديم المشورة إلى الحاكم طبقاً لما تقتضيه الشريعة الإسلامية ، و كان الزبير لا يقضي أمراً إلا وفقاً لرؤية هؤلاء العلماء (٢) فأصبح قانون الحكم السائد في مملكة الزبير مستمداً من كتاب الله سبحانه و تعالى و سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم فأنتشر العدل والأمن بين الناس وإزدهرت الحياة في كل جوانبها المادية والأدبية والروحية (٣) .

لقد لعب التجار العرب بعد ظهور الشركات التي كانت تعمل في العاج وبعض الحاصلات دوراً هاماً في تاريخ أفريقيا عموماً و في تاريخ جنوب السودان على وجه الخصوص إذ كانوا قوة حضارية إرتادت مناطق متخلفة بما تحمله معها من لغة و دين و تقاليد و معاملات و سلوك فاستطاعت هذه القوة الحضارية أن تؤثر تأثيراً مباشراً في تلك الأرجاء شعوبها وزعمائها(٤) .

---

(١) محجوب برير : قبس من الفكر و التاريخ مرجع سابق ص ٢٨
مذكرات الزبير ص
سعدالدين : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٦ .

(٢) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٥
سعد الدين : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٢٨ .
نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٦٩

(٣) حسن مكي محمد أحمد السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان ص ١١ ـ الخرطوم ١٤٠٣هـ .
محجوب برير ـ قبس من الفكر والتاريخ مرجع سابق ص ٢٨

(٤) فيصل الحاج موسى : الوجود البريطاني في جنوب السودان ص ٢٣ . رسالة دكتوراه جامعة القاهرة ١٩٨٣م




و لعل خير مثـال علـى مجهـودات أولئـك التجـار فـي بـث المؤثـرات الثقافيـة العربية و الإسلامية ذلك المجهود الذي قام به الزبير باشـا فـي جنـوب السـودان فقد أتاح له الإختلاط المباشـر مـع أولئـك الزنـوج فـي منطقـة بحـر الغـزال أن تصطبـغ مجموعات قبلية كبيرة بالصبغـة العربيـة الإسـلامية و خاصـة الجماعـات المعروفـة بإسم (الفرتيت) فـي غربـي بحـر الغـزال ، فبعـض المجموعـــات مثـل كريـش ، وفروغي ، والباندا (١) التي تعيش في جنوبي دارفـور قد إعتنقت الإسـلام و مـازال زعماؤها يعتنقون هذا الدين و يتكلمون لهجة قريبة من اللغة العربية الدارجـة (٢) .

لقد أفلح الزبير فـي إقامـة دولـة تحكم بالشـريعة الإسـلامية فـي بحـر الغـزال وتعمـل علـى نشـر اللغـة العربيـة و الإسـلام بالإضـافـة إلــى نشــر نظمه الإجتماعيـة والحضارية المواكبة لحضارة العصر مما يعد رائداً فــي وضـع لبنـة هامـة فـي بنـاء السودان المعاصر .

و مما هو جدير بالذكر أن جهود الزبير أدت إلـى إستتباب الأمـن و إزدهـار التجـارة ممـا أدى بـدوره إلـى تقويـة إنتشـار الإسـلام و اللغـة العربيـة ، كمـــا لعـب المجندون الجنوبيون و غيرهم في جيش الزبير دوراً بـارزاً فـي نشـر اللغـة العربيـة لأن ولاء هؤلاء ظل ينتقل عبر الحكام و المغامرين بعـد إبعـاد الزبـير ، فعملـوا مـع غوردون باشا ، و أمين باشا ، و جسي ، و قد كان عدد هؤلاء ليس بـالقليل إذ بلـغ عددهم في الجيش الإسلامي الذي كونـه الزبـير أثنـي عشـر ألـف عسـكري بعضـهم واصل دوره كمقاتلين في جيش المهدي حيث عرفوا بالجهادية .

و مما لا شك فيه أن حكومة الزبير هي أول حكومه إسلامية تقام فـي جنـوب السـودان حيث صـارت ملجـأ للتجـار المسـلمين الذيـن شـردتهم الإدارة الحكوميـة البريطانية شريكة المنصرين .

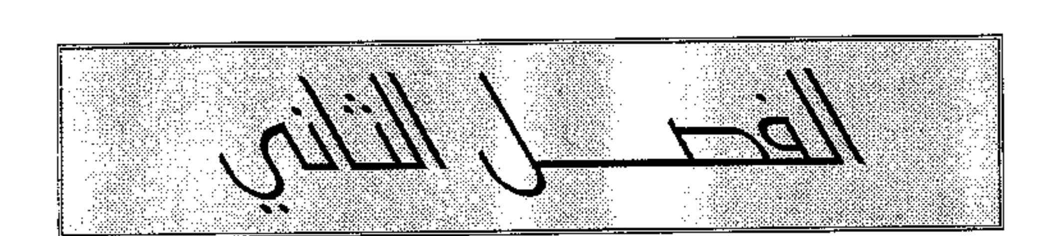
---

(١) هذه المجموعات هي قبائل ذات أصل زنجي تعيش في منطقة جنوبي دارفور والشمال الغربي من بحر الغزال تأثرت كثيراً بالمؤثرات العربية والاسلامية سواء من حيث اللغة أو التقاليد والعادات .

(٢) أنظر محمد فوزي : الثقافة العربية ص ٨٤ .




وقد إتخذ الزبير من هؤلاء التجار حلفاء أقوياء واجه بهم أعداءه ، و اقتدى به بعضهم فتزوجوا من بنات الملوك و السلاطين الجنوبيين و أصبحوا الطبقة الراقية التي قلدها أهل الإقليم في عاداتها من ملبس و مأكل و في عباداتها ومعتقداتها و بهم خضع الإقليم للزبير سياسياً و إدارياً و تجارياً .



الفصل الثاني

الفصل الثانـــــــي:

علاقة دولة الزبير بالقوى المجاورة .

المبحــث الأول :

علاقــــة الزبير بقبائل الرزيقـــــات

المبحث الثانـــي :

محاربة الزبير سلاطين دارفور وضم سلطتهم إلــى سلطة الحكم العثماني في مصر .

المبحث الثالــث :

علاقــة الزبـير بالسلطــة العثمانيــة فــي مصـــــر والحكمدارية في الخرطوم .





الفصل الثاني

المبحث الأول :

علاقة الزبير بقبائل الرزيقات



العلاقات الخارجية لدولة الزبير :

لقد تحدثنا في الصفحات السابقة عن السياسة الداخلية لحكومة الزبير وعلاقاتها بمشائخ و سلاطين القبائل التي خضعت لحكم الزبير فقلنا : إن علاقته بدأت بالمشائخ و السلاطين منذ أن كان تاجراً و قبل أن يصبح ملكاً ، فبدأت علاقاته بهم علاقات و د و تحالف صاحبها علاقات مصاهرة ببعض أولئك السلاطين ليضمن أمن و إتساع تجارته ، و ليس كما ذكر بعض الباحثين من أنه كان يحالف بعض السلاطين ليحارب بعضهم ببعض (١) . و قد حرص الزبير على أن تظل علاقاته بهؤلاءالمشايخ و السلاطين علاقة سلمية ما إستطاع إلى ذلك سبيلا ، لكن إضطرته بعض الأحوال إلى اللجوء إلى القوة العسكرية دفاعاً عن نفسه و حكمه ودفعاً للضرر عن رجاله و أمواله مثال ذلك ما حدث بينه و بين السلطان (تكمة) سلطان النمانم في سنة ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م حين طلب منه الخروج من أرض السلطان (دوية) بإعتباره من التابعين للسلطان (تكمة) ودارت بينهما وقائع و لكن عندما طلب السلطان (تكمة) من الزبير الخروج بسلام أجابه الزبير إلى ذلك حفظاً ورعاية للمصاهرة التي كانت بينهما (٢).

كذلك الحرب التي دارت بينه و بين السلطان (عدوة شكو) سلطان قولو والتي إنتهت بقتل السلطان و جلوس الزبير على عرش مملكته ، فلم يخض الزبير هذه الحرب رغبة في الإستيلاء على أرض أو سلطة و لكن سلطان قولو أصر على أن يخرج الزبير من أرضه رغم تودد الزبير و اعتذاره له بأن ظروف الأمطار لا تسمح لع بالإرتحال و طلب منه أن يمهله حتى تتوقف الأمطار و تجف الأنهار فأصر السلطان عدوة على خروج الزبير و عندئذٍ خاض الزبير غمار هذه الحرب دفاعاً عن نفسه و أمواله فوجد الزبير نفسه بنهاية هذه الحرب سلطاناً غير متوج في عاصمة السلطان عدوة : قولو (٣).

---

(١) صلاح حامد : السياسة البريطانية و مشكلة جنوب السودان ص ١٠٠ رسالة ماجستير. جامعة أم القرى ١٤١٢هـ .

(٢) سعد الدين – الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٢٨ .

(٣) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٤ .




وقد كان الزبير بفطرته ميالاً إلى الموادعة و السلم إمتثالاً لأمر الدين الإسلامي الحنيف و الذي تشربته نفسه منذ الصغر ثقافةً و عقيدةً . فلما أصبحت مقاليد الأمور بيده في أقاليم بحر الغزال حيث دانت له بلاد قولو و أندقو وأراضي شكا و بلاد النيام نيام حكم بالكتاب و السنة و شرع في بث المدنية فيها و عمارتها وتوسيع التجارة فيها (١) ، و تناقلت الركبان أخبار عدله و شفقته بالرعية ، فأقبل عليه سلاطين المجوس (٢) من حوله يطلبون الدخول في طاعته طواعية و رضاً لا خوفاً ، بل طلبوا منه أن يرسل من عنده حكاماً عليهم ، وقد تحدث الزبير على علاقته بهؤلاء السلاطين بعد خضوعهم له فقال : (ألفت بينهم ، و بسطت الأمن على ربوعهم ، و صاروا يتعاملون بالبيع و الشراء ، ويتصاهرون ، و سمع من جاورهم من المجوس أخبار عدلي و ما نال الذين دخلوا تحت طاعتي من الصراحة و الأمن و إتساع العيش ، فصاروا يأتون إليّ من مسافات بعيدة ، مقدمين الطاعة ، طالبين عمالاً من قبلي يقومون عليهم حكاماً ، فأجبتهم إلى ذلك ، و إتسع نطاق مملكتي إتساعاً عظيماً إلى الجهات الأربع) (٣) .

هذه هي علاقة الزبير بالسلاطين و الملوك الذين خضعوا لحكمه و سلطانه أما علاقته مع الدول و المشايخ غير التابعين لدولته فسأبين فيما يلي :

علاقته بمشايخ عرب الرزيقات القاطنين جنوبي كردفان و دارفور والمتاخمين لدولته من جهة الغرب كذلك سأبين علاقته بالخديوية في مصر ، ثم علاقته بالإدارة المصرية في الخرطوم ، ثم علاقاته بسلاطين الفور و سقوط مملكتهم على يديه ، كما سأبين محاولته إخضاع سلطنة واداي .

(١) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٤ ، نعوم شقير تاريخ السودان مرجع سابق ص ٢٦٥ .

(٢) أي عبدة النيران . وهي قبائل كثيرة في جنوب السودان لاتدين بدين سماوي .

(٣) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٥



علاقة الزبير بقبائل الرزيقات :

عندما إشتغل الزبير بالتجارة وجد أن هنـاك طريقيـن للتجـارة يربطـان شـمال السودان بجنوبه أما الطريق الأول فهو الطريـق النيلـي و يبدأ مـن الخرطـوم حتـى منطقـة البحيرات و الأنهـار و الـسدود النباتيـة فـي بحـر الغـزال ، و مـن العيـوب الواضـحة في هـذا الطريـق طولـه و كثرة هطـول الأمطـار فوقـه و إنتشـار السـدود النباتية في أجزائه الجنوبية و التي مثلت عوائق خطرة في طريق الملاحة وأدت إلـى إتساع الأنهار و تشعبها .

و أما الطريق الثاني فهو الطريق البري الذي يمر بجنوب كردفان ودارفور و هو طريق ميسر لكن خطورته تكمن في أنه يمر بمنطقة شكا التـي يسـكنها عـرب الرزيقات الذين يغيرون علـى التجـار المـارين بهـذا الطريـق و يقتلونـهـم و يسـلبون أموالهـم لهذا حـرص التجـار علـى إرتيـاد الطريـق النيلـي علـى الرغـم مـن بعـده ومخاطره .

و بهـذا أصبـح طريـق كردفـان و دارفـور مهمـلاً لا يطرقـه الا مـــن أمنتهـم الرزيقات ، و لكن عندما أصبح الزبير ملكاً فكر في فتح هذا الطريق و تأمينه فبعـث برسله و هدايـاه إلـى مشـايخ الرزيقـات و نجـح فـي أخـذ العهـود عليهـم بتـأمين هـذا الطريق مقابل قـدر محـدد مـن المـــال تدفعه إليهم كـل قافلـة تجاريـة تسيـر على هذا الطريق .

و قد تحدث الزبير عن هـذا فقـال : (فكـان أول مـا سـعيت إليـه فتـح طريـق التجارة بين بحر الغزال و كردفان لبعد طريق النيل و كثرة أخطارها و مشاقها .

و في شوال سنة ١٢٨٢هـ / مارس ١٨٦٦م أوفدت رسلاً بهدايـا إلـى مشـايخ عربان الرزيقات الواقعين في طريق التجار فجاء ني ثمانون شيخاً منهم وعاهدوني على فتح الطريق و تأميـــن القوافل و التجار من مسلمين و مسيحيين ،...




و أقسم كل منهم خمسين قسماً على الكتاب (١) بالمحافظة على هذا العهد وجعلت لهم مقابل ذلك جعلاً معلوماً يقتضونه من التجار فكثر ترداد الناس والتجار بأصناف البضائع)(٢) .

و لقد كانت الآثار الطيبة لهذه المعاهدة واضحةً إذ كثر ترداد الناس والتجار على دولة الزبير ، و إزدهرت التجارة ، و زاد العمران ، و إتسعت المزارع .

و قد تحدث الزبير عن نتائج هذه المعاهدة فقال :(و سرعان ما بدأت ثمار هذه المعاهدة تتساقط في حجري .. إذ ما لبث هذا الطريق لقصره و سهولته أن جذب إلى مملكتي جموع التجار و الناس الذين أقبلوا بالبضائع من كل مكان ، من الحديدة ، و مصوع ، وجدة ، و طرابلس الغرب (٣) فأزدهرت التجارة في أنحاء البلاد إزدهاراً كبيراً ، بينما مضى تجمع الناس من حولي يتزايد رويداً رويداً حتى أصبح تجمعهم هذا أشبه الأشياء بازدحام أفواج العطاش على المنهل العذب). (٤)

ولكن عربان الرزيقات لم يحافظوا طويلاً على العهد الذي قطعوه على أنفسهم أمام الزبير ، فانتهزوا فرصة إنشغاله بحربه مع السلطان تكمة سلطان النمانم فعملوا على قطع الطريق الذي أمنوه بعهود ، فسلبوا المارين عليه من التجار وإستولوا على متاجرهم (٥) .

---

(١) الكتاب : هو القرآن الكريم .

(٢) نعوم شقير ـ تاريخ السودان ـ مصدر سابق ص ٢٦٦ .

(٣) طرابلس الغرب : يقصد بها ليبيا و المنطقة شمال دارفور .

(٤) سعد الدين : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٤٤

(٥) الدفتر رقم ١٦ صادر عابدين ، تلغرافات ، شفرة تركي من ص (١٠/٥/١١/٦/١٢/ ٦ ، ١٣/٧/٤،٧/٧) التلغراف رقم (٧٠) في ٢٩ من رجب ١٢٩٠هـ /١٨٧٣م دار الوثائق القومية القاهرة .



و كانت الإدارة المصرية قد كتبت إلى الزبير في سنة ١٢٩٠هـ حول تشكيل مديرية بحر الغزال و أن يكون الزبير مديراً عليها بشرط حضوره إلى الخرطوم وموافقته على شروط الحكومة الخديوية ، فوافق الزبير على ذلك ولكن عندما علم بنقض الرزيقات العهد وقطعهم الطريق أرسل بعض رسله إلى الحكمدار معتذراً بأنه سوف يتأخر في الحضور إلى الخرطوم لأنه سوف يسلك طريق النيل الطويل نسبة لأن طريق كردفان غير مأمون (١) ثم رأى أنه من الأفضل أن يؤمن الأوضاع في بحر الغزال أولاً و ذلك بإرجاع عرب الرزيقات إلى المعاهدة السابقة ، و المحافظة على الطريق ، أو بكسر شوكتهم عسكرياً إذا إقتضى الأمر ذلك ، فكتب إلى الحكمدار في الخرطوم حول هذا و أنه ملتزم بالحضور إلى الخرطوم حين تأمين الأوضاع في جنوب كردفان .

ثم أخذ الزبير يكاتب عرب الرزيقات مستفسراً عن الأسباب التي أدت إلى نقضهم العهد بينه و بينهم فأجابوه بالشتائم و السباب و الإعتزاز بقوتهم (٢) ، فعزم الزبير على حربهم و لكنه قبل أن يبدأهم بالحرب أرسل خطاباً إلى السلطان إبراهيم سلطان دارفور يستعينه على حرب الرزيقات و أعظم الأسباب التي دفعت به إلى الإستعانة بسلطان دارفور هي :

أولاً : إن سلاطين دارفور يعتبرون عرب الرزيقات من رعاياهم (٣) .

ثانياً: أن الرزيقات أقدموا على قتل بعض مشايخ الفور .

ثالثاً: إن قطع طريق التجارة البري تضررت منه سلطنة دارفور كما تضررت منه بلاد بحر الغزال .

---

(١) الدفتر رقم ١٨٧٥ وارد معيه سنيه ، مكاتبات ص ٣ المكاتبة رقم (٢٤) في غرة رجب ١٢٩٠هـ ٢٥ من أغسطس ١٨٧٣م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) مذكرات الزبير ص ٥ ـ دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(٣) كان عرب الرزيقات يخضعون لسلطة الفور حين يشعرون بقوتهم و يستغلون عنهم حين يحسون أن بهم ضعفاً ، و آخر مرة خرجوا فيها عليهم أو نبذوا فيها طاعتهم كانت قبل ثلاثين سنة من مجيء الزبير إلى بلادهم ـ سعد الدين الزبير ـ الزبير رجل السودان ـ مصدر سابق ص٦٧ .

و فيما يلي نص الخطاب الذي أرسله الزبير إلى السلطان إبراهيم سلطان دارفور
(إلى حضرة أمير الأمراء الكرام مولانا السلطان إبراهيم إبن السلطان حسين صاحب العزة و الإقتدار و الهيبة و الفخار أدام الله علاه آمـــين .

أما بعد ، فنحن عبيد أفندينا ولي النعم خديوي مصر المعظم أتينا منذ عام ١٢٧٠هـ لفتح بلاد العبيد ، فدانت لنا بلاد الفراتيت برمتها ، و فتحنا الطريق منها إلى كردفان عن طريق شكا ، فتعهد بحفظه مشايخ الرزيقات نظير جعل معلوم وضعناه لهم على التجار و لكن لم يكن اليسير(١) حتى نكث الرزيقات العهد و ربطوا الطريق ، وأباحوا دماء المسلمين و أموالهم بدون وجه حق شرعي ، و قد نهيناهم عن ذلك مراراً فلم ينتهوابل كانوا يتفاخرون بقوتهم وخيولهم العربية و أسلحتهم النارية وقتلهم الكثير من فرسان دولتكم المغاوير (٢) لذا فقد أوجب الله تعالى علينا حربهم في قوله الحق :(فقاتلوا التي تبغـي حتى تفيء إلى أمـر الله)(٣).

(و نحن نتقدم إليكم بهذا الخطاب واثقين من أنكم متى علمتم بحال هؤلاء الأعراب الطغاة الذين خرجوا عن طاعة سلطنتكم منذ نيف و ثلاثين سنه أن تنجدونا بسرية من جيشكم متى إذا ما تم لنا إذلالهم عدنا فسوينا الأمر بيننا ، فإما أن تتركوهم لنا نحكمهم بالقسط و العدل وإما تركناهم لكم فتفتحوا الطريق و تقدموا لنا النفقات التي سوف تتكلفها الحملة عليهم والأمل إفادتنا سريعاً بما يستقر عليه رأيكم في حفظ الله آمين)(٤) .

---

(١) أي لم يمض سوى وقت يسـير .

(٢) يشير إلى أن الرزيقات قتلوا المقدم عبدالعزيزأبو أحمد شطة و آدم طربوش و غيرهما. نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٨ .

(٣) سورة الحجرات الآية ٩ .

(٤) نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٩/٢٦٨ .




و لكن الزبير لم يتلق رداً من السلطان إبراهيم ، فكاتب مشايخ الرزيقات خمس مرات و لم يقابل إلا بالصد و العناد و الإصرار على قطع طريق المارة و التجارة ، فما كان منه إلا أن إستخار الله في حربهم ، ثم طلب من تجار بحر الغزال إعانته ببعض الرجال والأسلحة ، فأعانه بعضهم ، فجمع تحت قيادته جيشاً قوياً ، و توجه لمحاربة عرب الرزيقات فدارت بينه و بينهم عدة وقائع خسر خلالها زهاء السبعمائة رجل من خيرة رجاله و ذلك لتمرس قبائل الرزيقات على القتال و هم على ظهور الخيل ، الأمر الذي لم يكن يعرفه رجال الزبير في ذلك الوقت (١) و قد كانت أولى وقائعه معهم في اليوم الرابع عشر من جمادي الأولى ١٢٩٠هـ العاشر من يوليو عام ١٨٧٣م و آخرها في الرابع من رجب سنة ١٢٩٠هـ الثامن و العشرون من أغسطس عام ١٨٧٣م و على الرغم من خساراته الجسيمة فإنه كسب المعركة الأخيرة و إنهزمت قبائل الرزيقات و صارت جميع بلادهم تحت طاعة الزبير وحكمه ، فكتب إلى حكمدار السودان (٢) رسالة عبارة عن تقرير ضمنه كل ما دار بينه و بين قبيلة الرزيقات و إنتصاره عليهم مؤكداً له أنه قام بإخضاع هذه البلاد باسم الحكومة العثمانية في مصر و أنه يرغب في العودة لوضعه السابق كتاجر فقط و يطلب من الحكمدار أن يبعث من يدير بلاد شكا و بحر الغزال باسم الحكومة الخديوية المصريـة . و توجد صورة من نص هذا الخطاب الذي بعث به الزبير إلى الحكمدار في الخرطوم ضمن دفتر رسائل الزبير الموجود بدار الوثائق المركزية بالخرطوم وهو بخط يد الزبير شخصياً و قد أشار في هذا الخطاب إلى العديد من المسائل التي مرت به و قد أكد الزبير في هذا الخطاب أنه يعتبر نفسه من رعايا الحكومة العثمانية المنسوبين لها بالتبعية (٣) .

---

(١) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٥

سعد الدين الزبير ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٦٧ / ٦٨

نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٨

(٢) الحكمدار هو إسماعيل أيوب .

(٣) مذكرات الزبير ـ مصدر سابق ص ٥ ، ٦

و قد ذكر في هذا الخطاب أنه خرج من الخرطوم قاصداً بحر الغزال في سنة ١٢٧٣هـ لأجل السياحة و التجارة ضمن مجموعة من التجار المسلمين والنصارى ، و قد تحدث عن تجارته التي فاضت بالربح الوفير و يرجع الفضل في ذلك بعد الله سبحانه و تعالى إلى حسن معاملته لأهالي تلك البلاد حتى أحبوه وأقبلوا على التجارة معه ، ثم ذكر في هذا الخطاب كيف أنه إنتقل من حرفة التجارة إلى كرسي الحكم ، و أنه إمتلك أراضي شاسعة حكم كافة أهلها على إختلاف أجناسهم ، و ساسهم بالعدل والإنصاف فانقادوا له ، و أخلصوا له الود و المحبة.

كذلك تحدث الزبير في هذا الخطاب عن إنتصاره على عرب الرزيقات وكيف أخضع كافة القبائل من حولهم كالحُمُر و المسيرية (١) و بني جرار(٢) والهبانية (٣) و غيرهم حتى دانوا له بالطاعة و خضعوا لأحكامه .

و قد أكد الزبير في هذا الخطاب أنه تحمل وعلى حسابه الخاص جميع نفقات حروبه لضم تلك البلاد و لم يكلف الحكومه الخديوية شيئاً منها ، وأنه (أي الزبير) مهما بلغ من السطوة و النفوذ و القوة لن يخرج عن طاعة الحكومة الخديوية لأنه أحد رعاياها المخلصين كما أكد أنه يرغب في ضم تلك الأراضي الواسعة إلى سلطة الحكومة الخديوية لتكون تحت أحكامها و أنظمتها الإدارية .

---

(١) الحُمُر من قبائل البقارة و تقطن شرق الرزيقات في أقصى الجنوب الغربي لكردفان على حدود بحر العرب . المسيرية يقطنون جنوب دارفور و يعتمدون على فلاحة الأرض مما يخرجهم من دائرة البقارة رغم إمتلاكهم للبقر . موسى المبارك الحسن ـ تاريخ دارفور السياسي مرجع سابق ص ٢٤ .

(٢) بني جرار : قبيلة عربية تنتمي إلى جهينة و يطلق عليها إسم فزاره و كانت تنتشر في كردفان و دارفور وتشارك البقارة أرضهم و حياتهم أما اليوم فليست لهم أوطان في دارفور فقط في إقليمين في كردفان احدهما قرى عبدالله على النيل الأبيض يمارسون الزراعة و الآخر وسط كردفان يمارسون الرعي .
محمد عوض : السودان الشمالي ص ٢١، ٢٢ ط٢ القاهرة ١٩٨٦م .

(٣) الهبانية : من فروع البقارة يقطنون أقصى الجنوب الغربي لكردفان تحد أرضهم من الشرق قبائل الرزيقات ومن الغرب قبائل التعايشة و من الجنوب بحر العرب .
موسى المبارك : تاريخ دارفور مرجع سابق ص ١٨ /٢٣



وطلب الزبير من الحكمدار في الخرطوم تعيين من يلزم من كبار رجال الحكومة المشهورين بحسن الإدارة و صدق الخدمة ليكون حاكماً على تلك البلاد تحت مظلة الحكومة الخديوية ، و أما الزبير فإنه سيكتفي بالعمل في التجارة فقط ، كما أنه لن يقصر في أداء أية مهمة متى ما إحتاجت الحكومة الخديوية إلى مساعدته ، و أما ما قام به من فتح البلاد و تأمين العباد و صرف المصاريف الباهظة من أمواله الخاصة فهو فقط خدمةً لأجل الحكومة الخديوية ، و أنه لا ينتظر إلا مكافأتها الأدبية على ما بذله من عظيم جهد و كثير مال و صدق خدمة .

كذلك طلب الزبير من الحكمدار مدّه بعساكر نظامية على أن يرسل بدلاًمنهم عبيداً مستجدين (١)

و قد رفعت حكومة السودان رسالة إلى الحكومة الخديوية في القاهرة بيّنت فيها ما حدث بين الزبير و عرب الرزيقات كما فصّلت فيها عروض الزبير السابقة الذكر ، فجاء رد الحكومة الخديوية الذي بعثت به إلى حكمدار السودان بضرورة إبقاء الزبير في حكم تلك المناطق حفظاً للأمن و الإستقرار فيه ، كما أمرت الخديوية في هذه الرسالة حكمدار السودان بمد الزبير بالأسلحة التي طلبها دون مقابل (٢)

كما تضمنت هذه الرسالة قراراً بتعيين الزبير نفسه مديراً من قبلها على منطقة شكا و بحر الغزال على أن يدفع مقابل ذلك خمسة عشر ألف جنيه مصري سنوياً للحكومة الخديوية مع الإنعام عليه برتبة قائمقام .

فلما عرض الأمر على الزبير قبل ذلك بكل إمتنان . كذلك ضمنت الحكومة رسالتها أمراً إلى الزبير بإخراج (٣) القموندانات الذين لم يقدموا له المساعدة في حربه ضد عرب الرزيقات من منطقة بحر الغزال (٤) .

---

(١) الدفتر رقم (٢١) وارد عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ص ص٢٨/٥٥ ، ٥٦/ ٢٨ ، التلغراف رقم (٣٣٣) في نهاية شعبان سنة ١٢٩٠هـ / ٢٢من أكتوبر سنة ١٨٧٣م .

(٢) الدفتر رقم (٢٢) وارد عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ص ص(٢٦/٥١ /٢٦/٥٢) تلغراف رقم (٢٧٤) في ٦من ذي القعدة سنة ١٢٩٠هـ / ٢٧ من ديسمبر ١٨٧٣م .

(٣) إخراجهم من منطقة بحر الغزال بغرض حرمانهم من التجارة تأديباً لهم لعدم تقديم المساعدة للزبير .
و القموندانات جمع قمندان و هو رئيس الرجال المسلحين الذين يقومون بالحراسة و حماية كل زريبة .

(٤) الدفتر رقم (٢٢) وارد عابدين ، تلغراف شفرة عربي ص (١/٢) تلغراف رقم (٨) في ١٠ من شوال ١٢٩٠هـ / ٢ من ديسمبر ١٨٧٣م .

الفصل الثانـــي :

المبحـث الثانـي :

محاربة الزبير سلاطين دارفـور وضـم سلطنتهم إلـى سلطة الحكم العثماني في مصر .



محاربة الزبير سلاطين دارفور:

تقع دارفور بين خطي العرض ١٠° و١٦° شمالاً و خطي الطول ٢٢° و٣٠ر٢٧° شرقاً ، و تكون مستطيلاً تبلغ مساحته مائة وأربعين ألف ميل مربع تحده من الشمال الصحراء الكبرى ، و من الجنوب بحر العرب و شمال غربي بحر الغزال ، و تمتد إلى الشرق من دارفور سلسلة من الكثبان تفصلها عن كردفان ، أما من جهة الغرب فإن أرض دارفور تتصل في إمتداد طبيعي بجاراتها نتيجة لوحدة المناخ و النبات و التضاريس و لذا كانت الروابط التجارية والثقافية بينها و بين واداي و ما يليها من بلاد غرباً قوية متينة منذ عهد قديم (١) . و قد قامت في دارفور سلطنة الفور الإسلامية في القرن السابع عشر الميلادي (٢) على أيدي الكنجارة (٣) و الذين قدموا إلى دارفور من إقليم بحيرة تشاد جنوبي الصحراء الليبية و ربما قدموا أصلاً من تونس وإخترقوا برنو وواداي حتى وصلوا إلى دارفور و امتزجوا بالتنجور الذين قدموا من بلاد النوبة وظلت سلطنة دارفور مستقلة منذ نشأتها حتى سقوطها على يد الزبير باشا رحمت في أواخر عام ١٢٩١هـ/١٨٧٥م على الرغم من أن الغرمان الصادر من الدولة العثمانية إلى محمد علي باشا قد أدخلها ضمن أملاك مصر(٤) و لكن الواقع التاريخي يؤكد أن محمد علي إكتفى بعقد

---

(١) موسى المبارك الحسن : تاريخ دارفور السياسي مرجع سابق ص ١٤

(٢) مصطفى سعد : سلطنة دارفور ص ٢١٥ . مرجع سابق بدار الوثائق القومية بالخرطوم

(٣) الكنجارة : يتميزون بأن تقاطيعهم تغلب عليها الصفات القوقازية كما يتميزون بالجد و النشاط و الذكاء و هم أحسن إسلاماً من الفور و ينتسبون إلى أبي زيد الهلالي .

عبدالمجيد عابدين : تاريخ الثقافة العربية في السودان ص ٤٦/٤٧ . الثقافة للنشر والتوزيع بيروت ١٩٧٠

(٤) عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي في أوائل عهد الإحتلال ص ٣٤٧ ط٤ دار المعارف ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣

شكل رقم (١)

الفاشر
أم شنقه
الابيض
منواشي
داره
كلكله
شكا
بحر العرب
ديم زبير
خط سير الحكمدار ....
حملة الزبير — — —

حملة الزبير لفتح دارفور وخط سير الحكمدار أيوب

المصدر : فيصل الحاج محمد ـ الوجود البريطاني في السودان ص ٣٣٦ .

اتفاق بينـه و بين سلطان دارفـور في سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢٠م يقضي بجلب العبيد و استخراج النحاس ، و قد بعث محمد علي في غرة رجب ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م إلى دفترداره (١) برسالة جاء فيها (بما أن من مقتضى إرادتنا أن نرتبط مع حاكم دارفور (٢) بإتفاق بخصوص جلب العبيد و إستخراج معدن النحاس ، فقد كتبنا للحاكم الموصى إليه كتاباً عربياً يتضمن صورة الإتفاق على ذينك الأمرين ، و أرسلناه له مع أحمد بك أحد المماليك (الأمراء) المقيمين في مصر ، فإذا ما وصل الموصى إليه عنده ، و أخذ منه الجواب المطلوب على ذينك الأمرين ، وجاء عندكم و أخبر به ، فعليكم أن تقبلوا النظام الذي يتقرر بناء على إشعار الحاكم الموصى إليه و إخبار المندوب ، و تبذلوا جوهر حميتكم لإجراء مقتضاه ، و تعنوا بأن يكون جلب العبيد موافقاً لرغبتنا ، و إستخراج النحاس مطابقاً لطلبنا(٣) .و على الرغم من هذا الإتفاق فإن سلطنة دارفور ظلت قائمة لا تخضع سلطان الحكومة العثمانية في مصر ولم تحاول الحكومة العثمانية اخضاعها بالقوة العسكرية ولكن عندما واتتها الفرصة على يد الزبير باشا رحمت لم تتردد في اقتناص هذه الفرصة فساندته سياسياً وعسكرياً حتى تمكن من الاستيلاء على هذه السلطنة وضمها الى سلطان الحكومة العثمانية في مصر(٤).

---

(١) كان الدفتردار قائد حملة محمد علي باشا لضم كردفان و دارفور إلى السلطات المصرية بينما قاد إسماعيل ابن محمد علي حملة أخرى لضم سنار في عام ١٨٢١م .

(٢) حاكم دارفور هو السلطان محمد الفضل (١٢١٥ ـ ١٢٥٤هـ/ ١٧٨٧م ـ ١٨٣٩م)

(٣) مكي شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص٣٣٥/ ٣٣٦ دار الثقافة بيروت ١٩٦٤م .

(٤) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث ص ٨٦ ط٢ دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٨م .




لقد مر بنا أن الزبير بن رحمت عندما أصبح ملكاً في بلاد النمانم جمع مشايخ الرزيقات ووقع معهم إتفاقاً في سنة ١٢٨٢هـ يقضي بفتح طريق التجارة بين شكا وبحر الغزال ، و جعل لهم جعلاً على التجار ، و لكن عرب الرزيقات لم يلتزموا بالعهد طويلاً ، فعملوا على قطع الطريق ، و نهب أموال التجار ، فكاتبهم الزبير في ذلك و عندما لم يستجيبوا له إستأذن الحكمدارية في حربهم ، فدارت بينه و بينهم معارك أدت إلى هزيمتهم و إستيلائه على منطقة شكا ، و ذلك في سنة ١٢٨٩هـ ١٨٧٣م وفي هذا الأثناء فر أثنان من مشايخ الرزيقات و هما الشيخ مُنزل و الشيخ عُليان ، و إجتمعا بالسلطان إبراهيم سلطان دارفور،فكتب الزبير إلى السلطان إبراهيم عدة خطابات يطالبه فيها بتسليم الشيخين منزل وعليان ، و قد حوت هذه الخطابات كثيراً من ألوان التهديد و الوعيد ، و فيها جانب كبير من الحكمة والدهاء السياسي والعسكري فكان يورد الآيات التي تحرم قتال المسلم لأخيه المسلم و تدعو إلى التكاتف و التآزر على حرب الكفرة والطغاة و أهل البغي و العدوان ، كما كان يظهر فيها قوة الدولة الخديوية ، وخسران من يحاربها (١) فعلى سبيل المثال أرسل الزبير إلى السلطان إبراهيم وعمه الأمير حسب الله رسالة في ١٥ من رجب ١٢٩٠هـ / ٨ من سبتمبر ١٨٧٣م حذرهما فيها من مغبة محاربة الدولة الخديوية ، و طالبهما بتسليم منزل و عليان فقال:(من الزبيررحمت الجميعابي إلى السلطان إبراهيم بن السلطان حسين وعمه الأمير حسب الله بن السلطان محمد الفضل أما بعد: فقد دخلنا بلاد شكا يوم الأثنين المبارك الموافق غرة رجب ١٢٩٠هـ / ٢٥ من أغسطس ١٨٧٣م للأسباب التي قدمناها لكم في كتاب سابق ، ووقعت بيننا وبين عربان الرزيقات معركة شديدة قتلنا فيها أعيانهم و فرسانهم وكثيراً من أخلاطهم) .

---

(١) رسائل الزبير إلى علماء و سلاطين دارفور ـ دار الوثائق القومية الخرطوم رقم ١٢٥١/٧٢/١ مذكرات الزبير من ص ٦ إلى ١٢

نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٨ و ما يليها .




(و نحن الآن مقيمون في بلادهم و قد بلغنا أن الشيخ منزل و الشيخ عليان من أكبر طغاة الرزيقات قد إلتجآ إليكم ، و هما يحثانكم على حربنا ، فغاية ما نرجوه أن لا تسمعوا لأقوالهم الفاسدة فتقعوا بحرب الدولة المصرية ذات السطوة الغالية ، و المدد غير المنقطع ، و لا نقول ذلك على سبيل التهديد بل هو النصح نُمحِضُنه لكم لمنع الفتن بين الدولتين و حقن دماء المسلمين لا سيما و أنتم تعلمون ما كان بين والدكم السلطان حسين و بين عزيزمصر الخديوي المعظم من المودة و المعاملات التي لا تزال متصلة بينكم و بين خديوي مصر الحالي ، لذلك نؤمل منكم الآن أن تأمروا بالقبض على منزل و عليان و ترسلوهما إلينا بالشعبة والحديد مع الحرس اللازم لنسترد منهما ما أخذاه من حقوق المسلمين بلا تمثيل فيهما و لا ظلم ، بل بما يكون فيه تأديب لهما و عبرة لغيرهما هذا ما رأيناه و الرأي مفوض وأدام الله بقاءكم آمين) (١).

غير أن السلطان أبت عليه مكانته و عزة دولته العريقة أن يستسلم لرجل مجهول الهوية لا يعدو في نظره إلا رجلاً من الجلابة (٢) الطغاة الذين ليس لهم حق في هذه الديار لهذا بعث إليه برسالة ملأى بالشتم و السباب و التهديد وكان السلطان إبراهيم حانقاً على الزبير لأنه إستولى على منطقة شكا على الرغم من أن السلطان إبراهيم كان يعدها من صميم أملاكه ، لهذا أصبح الزبير في نظره طاغية مُتعدياً تجب مواجهته مهما كلف

---

(١) نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٢ .

(٢) الجلابة في عرف أهل دارفور هم التجار العرب الذين يأتون من الشمال ووسط السودان ، و الجلابة نسبة لجلبهم البضائع إلى تلك الأماكن النائية . المصدر السابق ص ٢٧٢ .

الأمــر فأصدر أوامره لقائده أحمد شطة أمير الجنـوب وإلـى قـائده سعد النور أمـير الشرق بالإستعداد لمحاربة الزبير وإخراجه من شكا(١) ، و لكن الزبير لم يكن غـافلاً عما يجري حوله ، فقـد كـانت عيونـه المبثوثـة فـي كـل مكـان و إسـتخباراته ترصـد حركات و سكنات هذين القائدين ، و كان يبعـث بأخبـار هـذه التحركـات فـي تقـارير دورية إلى الحكمدار في الخرطوم (٢) وفي الوقت نفسه كان يأخــذ الحيطـة و الحـذر و يعد العدة لملاقاة الجيوش الفوراوية .

ففي أواخـر عـام ١٢٨٩هـ /١٨٧٣م تصـدت العسـاكر المصريـة القافلـة مـن الرقيق كانت قادمة من دارفور ، فغضـب السلطان إبراهيـم لذلـك ، ووجـد الفرصـة مواتية للإنتقام من الحكومة الخديوية فـي شـخص الزبـير ، فهـاجمت قواتـه أطـراف البلاد الخاضعة لسلطان الزبير و دمرت ما فيها من مخازن التجارة و الغلال (٣) .

و هنا سنحت الفرصـة أيضـاً للزبـير ليحقق حلمـاً كـان يـراوده كثـيراً و هـو القضـاء على سلطنة دارفور حتى تستقر الأمور و الأحوال في مديريـة شـكا و بحـر الغزال . فاستأذن حكمدارية الخرطوم في ضم دارفـور و لـم تكـن الحكمداريـة بـأقل شوقاً من الزبير لتحقيق هذا الهدف الذي ظلت تحلم به منذ أن فتح محمد علـي السـودان عام ١٢٣٦هـ /١٨٢١م فأمدته بثلاثمئه و ثمـانين مـن العسـاكر النظامية وثلاثـة مدافـع ، وأذنت له في دخـول دارفور و ضمها إلى سلطات الحكومة الخديوية في السودان (٤) .

---

(١) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ١٣
نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٤
سعد الدين : الزبير رجل السودان مصـدر سابق ص ٧٥

(٢) نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٤ .

(٣) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٧٥

(٤) نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٤



في هذا الأثناء أتم أحمد شطة و سعد النور وزيري سلطان دارفور إستعداداتهما الحربية ثم هاجما الزبير باشا ، فدارت بين الفريقين معركتان كبيرتان إنتصر الزبير في الثانية منهما ، و لقي أحمد شطة و سعدالنور (١) في تلك المعركة مصرعهما ، فكتب الزبير إلى السلطان إبراهيم رسالة في ١٢٩٠هـ /١٨٧٤م يغبطه فيها بهذا النصر و يؤكد له أن هذا النصر بداية الإنتصارات التي ستتحقق على يدي هذا الجلابي (يقصد نفسه) حتى يقوض دعائم السلطنة الفوراوية ، كما بعث برسالة في ١٢٩٠هـ /١٨٧٤م إلى علماء دارفور و هم الفقيه سلامة بن مالك شيخ الموطأ (٢) و الفقيه فخرالدين بن محمد سالم شيخ الشفا (٣) و البخاري(٤) . والفقيه سالم شيخ العزيمة (٥) و الإمام الضو إبن الإمام المصري مبيناً لهم سبب حضوره إلى بلاد شكا ، كما أطلعهم في رسالته هذه على صور الرسائل التي دارت بينه وبين السلطان إبراهيم ، وأشهدهم على جورالسلطان وعدم إلتزامه بالشرع و ذلك بحمايته للظالمين الطغاة المفسدين (٦).

---

(١) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ١٣

سعدالدين الزبير ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٧٦

دفتر رقم (١٨٧٥) وارد مكاتبات معيه سنيه ص (٧١) مكاتبة رقم (١٠) تاريخه ٢٤ ذي الحجة ١٢٩٠هـ الموافق ١٥ من فبراير ١٨٧٤م .

(٢) يقصد الفقيه الذي يدرس الفقه المالكي من كتاب الموطأ للإمام مالك .

(٣) يقصد الفقيه الذي يدرس الفقه المالكي من كتاب القاضي عياض .

(٤) يقصد الفقيه الذي يدرس الحديث من صحيح البخاري .

(٥) العزيمة : عند أهل السودان عامة و أهل دارفور خاصة هي الرقية أي القرآن أو الأدعية التي تقرأ على المرضى طلباً للشفاء و شيخ العزيمة بمعنى الشيخ الذي يعالج الناس بالقرآن أو الأدعية .

(٦) الدفتر رقم(١٨٧٥) وارد مكاتبات معية سنية ص ٧١ المكاتبة رقم (١٠) في ٢٤ذي الحجة ١٢٩٠هـ ١٥من فبراير ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .



و قد كان هدف الزبير من هذه الخطابات إظهار السلطان أمام رجال دولته وعلمائها و أمام التاريخ بأنه هو المعتدي الذي يمثل وزر ما يهدر من دماء المسلمين ، ثم بعث الزبير إلى حكمدار الخرطوم برسالة في ١٢٩٠هـ /١٨٧٣م يخبره فيها بإنتصاره على وزيري السلطان إبراهيم فبعث الحكمدار بدوره الى الحكومة العثمانية في مصر بذلك فجاءه الأمر من القاهرة في ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م بالبقاء في الخرطوم والعمل على ضم دارفور . و أن لا يترك هذا العمل للزبير وحده بل تكون خطة الفتح عن طريقين ، الأول من الجنوب و تقوم به عساكر الزبير ، و الثاني من الشرق و تقوم به عساكر الحكمدارية في السودان القادمة من الخرطوم عن طريق كردفان (١) بحيث يلتقي الجيشان ـ جيش الزبير و جيش الحكومة العثمانية في دارا ، و من هناك يعملان معاً حتى دخول الفاشرعاصمة السلطنة الفوراويية وكغطاء للحملات العسكرية على دارفور طلبت الحكومة العثمانية من الحكمدار أن يجيب الذين يسألون عن سبب سوق العساكر و محاربة سلطنة دارفور بأن الغرض من ذلك هو الضرب على أيدي من يتجرون بالرقيق ، و إلغاء هذه التجارة (٢) أما موظفو الدولة الأجنبية المقيمون بالخرطوم فقد طلبت الحكومة العثمانية من الحكمدار أن يصرح لهم بأن السبب الدافع لغزو دارفور

---

(١) الدفتر رقم (١٧) صادر عابدين ، تلغرافات ، شفرة عربي ص (١٢/٢٤/١٢/٢٣) التلغراف رقم (١٣٨) في ٢٤ من ذي الحجة سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٥ من فبراير سنة ١٨٧٤م . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم (١٧) صادر عابدين ، تلغرافات ، شفرة تركي ص (١٤/٢٧) التلغراف رقم (١٤٢) في ٢٤ من ذي الحجة ١٢٩٠هـ / ١٥ من فبراير ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




هو أن سلطان دارفور حاول منع الحكومة العثمانية من محاربة تجارة الرقيق ومنعها من خطر بيع أسرى الحرب (١) ، وفي هذا الأثناء أتم الزبير ما وُكل إليه من الخطة فبعد إنتصاره على وزيري السلطان إبراهيم ــ أحمد شطة و سعد النور واصل زحفه حيث إحتل (دارا) كبرى مدن السلطنة في الشرق فشيد فيها الإستحكامات ، وتحصن في داخلها إنتظاراً لقدوم جيش الحكومة من كردفان (٢) وكان الشرتاي(٣) أحمد نمر كبير قبائل البرقو التابعة لسلطنة دارفور قد جمع ما عنده من الرجال بعد أن ضم إليه فلول جيشي القائدين القتيلين أحمد شطة و سعد النور ، ثم هاجم بتلك القوات الزبير في دارا قبل أن تصله إمدادات الحكومة العثمانية (٤) من الخرطوم) و هنا توالت مكاتبات الحكومة العثمانية على الخرطوم تستحث الحكمدار على إرسال المزيد من الأسلحة و الرجال إلى الزبير حتى يتمكن من فك الحصار و فتح الطريق بين كردفان و دارفور ، و كان الحكمدار قد طلب من الحكومة إرسال عساكر وأسلحة من مصر (٥) فجاءه الرد في ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م بعدم إمكان إرسال تلك الإمدادات من مصر في الوقت الحاضر و عليه أن يدبر تلك الإمدادات من مناطق السودان المختلفة ،

---

(١) الدفتر رقم (١٧) صادرعابدين ، تلغرافات ، شفرة عربي ص ص (١٢/٢٥، ١٢/٢٦) التلغراف رقم (١٣٩) في ٢٤ من ذي الحجة سنة ١٢٩٠هـ ١٥ من فبراير سنة ١٨٧٢م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) سعد الدين الزبير ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٧٦ .

(٣) الشرتاي : تعني رتبة ادارية ضمن الرتب السياسية والإدارية في النظام الإداري في سلطنة الفور.

(٤) سعد الدين الزبير ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٧٧، ٧٨

(٥) الدفتر رقم (٢٣) وارد عابدين، تلغرافات ، شفرة عربي ص ص (٦/١١ ، ٦/١٢) التلغراف رقم (٦٥) في ٢٦ من ذي الحجة سنة١٢٩٠هـ ١٧ من فبراير سنة١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

فكتب الحكمدار إلى مدير كردفان في سنة ١٢٩٠هـ /١٨٧٤م يأمره بتجهيز مائة عسكري من الخيالة الباشبوزق (١) مع مدفع ميداني واحد (٢) ، كما كتب إلى مدير الشرف يأمره في الوقت نفسه بإرسال أورطة (٣) سودانية مكتملة و أورطة من الباشبوزق و أربعمائة جندي وثلاثة مدافع (مترابوز) ثلاثة مدافع جبلية مع الأموال والإمدادات اللازمة القادمة من مصر (٤).

وقد قاد حكمدار الخرطوم إسماعيل أيوب بنفسه في سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٤م حملة مكونة من ثلاثة آلاف و ستمائة مقاتل من الجنود السودانيين و المصريين الباشبوزق و الشايقية (٥) و المغاربة و المتطوعة تتقدمها أربعة مدافع جبلية و قد زحفت هذه الحملة بقيادة الحكمدار إسماعيل أيوب نحو دارفور من الشرق عبركردفان بعد أن ترك محمد سعيد وكيلاً عنه في الخرطوم (٦) وما كاد الزبيريفرغ من بناء إستحكامات دارا حتى هاجمته جيوش الفور في ١٢٩١هـ /١٨٧٤م من كل صوب و في هذا الأثناء كان الزبير باشا يستميت في الدفاع عن دارا مستمسكاً بالصمود حتى تتمكن قوات الحكومة من الوصول إليه و فك حصاره ، وفي الوقت نفسه كان الشرتاي أحمد نمر يقاتل بضراوة للقضاء على الزبير قبل وصول الإمدادات الحكومية إليه .

---

(١) سبق الإشارة إليها و هي تعني جنود الحكومة المصرية الذين لم يطبق عليهم النظم الحربية الحديثة.

(٢) الدفتر رقم (١٨٧٥) وارد معية سنيه ، مكاتبات ، ص (٧١) المكاتبة رقم (١١) في ٢٤ من ذي الحجة ١٢٩٠هـ /١٥ من فبراير ١٨٧٤م . و الدفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ص(٨،٧) التلغراف رقم (٣٥) في ٢٤ ذي الحجة سنة١٢٩٠هـ / ١٥ فبراير ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الفرقة العسكرية .

(٤) الدفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ص ص (٦/١١ ، ٦/١٢) التلغراف رقم (٦٥) في ٢٦ذي الحجة ١٢٩٠هـ / ١٧ فبراير ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٥) نسبة إلى قبيلة الشايقية التي تسكن شمال السودان و التي إنخرطت في جيش محمد علي علماً بأنها أول قبائل السودان التي وقفت في وجه جيوش محمد علي . ـ محمد عوض ـ السودان الشمالي مرجع سابق ص ١٧٨ .

(٦) الدفتر رقم (٢٣) وارد عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ص (٧/١٣ ، ٨/١٤) ، التلغراف رقم(٦٧) في ٢٦ من ذي الحجة سنة ١٢٩٠هـ /١٧ من فبراير ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

و عندما علم الزبير أن جيوش السلطان إبراهيم آتية لمساعدة قوات الشرتاي أحمد نمر دفع بأحد قواده المغاوير رابح فضل الله قائده العام على رأس فرقة من المستبسلين فتمكن من دحر قوات أحمد نمر وقتله ، و غنم ماعنده من أسلحة ومؤن(١) .

و بعد أن أحرز الزبير هذا النصر العظيم على قوات أحمد نمر بعث برسالة إلى السلطان إبراهيم سلطان دارفور في ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م و لم يطلب منه الزبير في هذه المرة المشاركة و التعاون على بسط الأمن و إنما طلب منه التسليم و خلع الملك عن نفسه لأن الهدف في هذه المرة هو إدخاله و أرضه تحت طاعة الحكومة المصرية الخديوية و قد جاء في هذه الرسالة (إني سألتكم في بادئ الرأي أن تساعدوني على الرزيقات الذين سعوا في الأرض فساداً ، ثم سألتكم مراراً تسليم منزل و عليان اللذين إلتجآ إليكم فراراً من وجه العدل ، فما أجبتم بل أرسلتم الجيوش لمحاربتي ، فأوجب الله تعالى علينا محاربتكم حتى تستقيموا أنتم و من معكم من المفسدين في الأرض ، وقد تلقينا جيوشكم ، و نصرنا الله عليهم) ودخلنا مدينة دارا ، و صار القصد الآن إدخالكم أنتم و بلادكم تحت طاعة الحكومة الخديوية ، فيا حضرة الأمير إن كنت تحسب نفسك عبداً لله و موقناً أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده فبادر بخلع الملك عن نفسك بالتسليم إلى ولي نعمتنا الخديوي المعظم حباً بالسلام ، و حجباً لدماء المسلمين ، وإذا سلمت تسلم و نترك لك قرائنك و أموالك ، تبقى مكرماً مبجلاً عند الجميع ، و إلا فإننا لابد أن تنال مانروم بالرغم عنك ، وأنت المسئول بين يدي الله عن دماء المسلمين والسلام)(٢)

---

(١) سعد الدين : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٧٨
نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٦.

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٦/٢٧٧ .

فما كادت تصل هذه الرسالة إلى السلطان إبراهيم حتى إستشاط غضباً وحنفاً و أعد على وجه السرعة جيشاً كبيراً ينيف عن المائة ألف مقاتل (١) ، وعقد لواءه لعمه الأمير حسب الله، و معه مجموعة من رؤساء الجند مثل القائد علي التامزوي ، و قائد الجنوب أحمد قومو الذي خلف الوزير أحمد شطة ، والقائد حسن ود أبلى قائد الغرب، و القائد إبراهيم ود دوير (٢) . وقد سار هذا الجيش قاصداً دارا على وجه السرعة فبلغها في ١٢ من رجب سنة ١٢٩١هـ / ٢٥ من أغسطس سنة ١٨٧٤م وضرب حولها الحصار من كل الجهات فلما أتم حصارها كتب الأمير حسب الله خطاباً إلى الزبير أرسله مع ثلاثة من رجاله جاء فيه (لقد دخلت بلادنا و قتلت وزيرنا أحمد شطة ، ثم الشرتاي أحمد نمر فأخرج الآن من بلادنا لنشيعك بالسلامة و الأمان (٣) .

و لكن الزبير الذي تمرس بالحرب أدرك أنها خدعة و أنه لو إنسحب من دارا سيكون إنسحابه هذا قضاءاً عليه و على رجاله فرفض الخروج في إباء و شمم ، ثم كتب إلى الأمير حسب الله رداً على كتابه قال فيه :(إني دخلت بلادكم عنوة ولست أنوي الخروج منها إلا بقدرٍ من الله ، فإن كنتم قد جئتم لحرب فتقدموا لها و إلا فعودوا من حيث أتيتم)(٤) .

و لم تلبث جيوش الفور المحاصرة لمدينة دارا أن شرعت في مناوشة جيوش الزبير المتحصنة بإستحكامات المدينة ، فدارت رحى الحرب و تواصلت زهاء سبعة

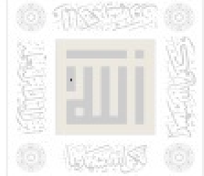
---

(١) لعل في هذا العدد مبالغة .

(٢) سعد الدين ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٧٨

(٣) نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٧ .

(٤) نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٧




أيام ، و كانت عساكر الأمير حسب الله قد نزلت في دائرة مرمى رصاص الزبير لهذا سقط كثيرون منهم صرعى تحت وابل نيران قوات الزبير ، فاضطروا إلى فك معسكرهم ثم إقامته بعيداً عن مرمى بنادق قوات الزبير ثم شددوا حصارهم على دارا حتى كادت مؤن قوات الزبير أن تنفد(١) .

و على الرغم من أن الزبير أدى ما أنيط به من واجبات حربية كأعظم ما يكون الأداء حتى وصل(دارا) وبما أن الخطة وضعت أصلاً ليتم القضاء على السلطنة من جهة الجنوب والشرق إلا أنه فقد صدر الأمر من حكومة مصر العثمانية إلى حكمدار الخرطوم بالبقاء في الخرطوم ، والإكتفاء بغزو دارفورمن جهة بحر الغزال فقط (٢) غير أنه بعد مكاتبات كثيرة بين الحكمدار و الحكومة العثمانية طلب من خلالها حكمدار الخرطوم إمداده بالالأسلحة صدر الأمر من الحكومة العثمانية للحكمدارفي١٢٩٠هـ / ١٨٧٤م بالتوجه إلى كردفان لمشاركة الزبير في فتح دارفور بعد كسر الحصار المضروب عليه فقام الحكمدار على رأس قوة تتكون من ثلاثة آلاف و ستمائة جندي من الخرطوم (٣) و اتخذ له مركزاً في فوجه أقصى الغرب من كردفان وبالقرب من الحدود الشرقية لدارفور ، ثم كتب إلى الحكومة العثمانية بعدم إمكانية اللحاق بالزبير لبعد المسافة ، لكنه الآن يتأهب ليلحق به في دارا (٤) .

---

(١) سعد الدين الزبير ـ الزبير رجل السودان ـ مصدر سايق ص ٧٩ .
نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سايق ص٢٧٧ / ٢٧٨ .

(٢) الدفتر رقم (١٧) ، صادر عابدين ، تلغرافات ، شفرة تركي ص ص (١٩/٣٧ ، ١٩/٣٨، ٢٠/٣٩، ٢٠/٤٠ ٢١،٤١) التلغراف رقم (٢٠١) في محرم سنة ١٢٩١هـ /١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة

(٣) نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٤ .
سعدالدين الزبير ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٧٥ .

(٤) الدفتر رقم (٢٥) واردعابدين ، تلغرافات ، شفرة عربي ص ص (٣٦/٧٢، ٣٦/٧٣) التلغراف رقم (٥٦٨) غرة رجب سنة ١٢٩١هـ ١٤ من أغسطس سنة ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




و بينما كان الزبير محاصراً من القوات الدارفورية بـدارا أرسـل رسـالة إلـى الحكمدار في ١٢٩٠هـ /١٨٧٤م يحثه فيها على الحضور و سـرعة التحـرك لنجدتـه فرد الحكمدار رداً لا يناسب مكانتـه و مـا توجبه عليـه وظيفتـه مـن مسئوليات و لا يتواءم مع جهاد الزبير و ما حققه للحكومة العثمانية مـن مكاسـب عسـكرية فـي تلـك الأصقاع فقال:(ما أنا أمرتك بالتقدم إلى دارا و لا أفندينـا ، فـإن إسـتطعت أن ترفـع الحصار و تنجو بجيشك إلى هنا فأفعل ، و إلا فدبر أمرك بما تراه صواباً (١) .

فوقع هذا الرد وقوع الصاعقة على الزبير في وقت كاد أن ينفد ما عنده من زاد ، و بينما هو في هذا الكرب إذ أقبل عليه أحد قادة دارفور (الملـك أحمـد) فـي ١٨ من رجب ١٢٩١هـ / ٣١من أغسطس ١٨٧٤م يطلـب إبنتـه التـي وقعـت فـي الأسر أثناء المعركة التي خاضها ضد القائد أحمد شطة ، فوافق الزبير على إطـلاق سراحها بشرط أن يمده والدها بأخبار ما يدور في معسكر الأمير حسب الله فأكد لـه الملك أحمـد أنهم ينـوون الهجوم عليه في الغد مـن كل الجهات (٢) .

و في منتصف الليل خـرج الزبـير علـى رأس قوة تبلـغ ثمانيـة آلاف مقـاتل وفاجأ مقاتلي دار فور و هم نيام إستعداداً لهجوم الغد ، و مـا هـي إلا سـاعات حتـى دارت الدائرة على قوات الأمير حسـب الله ، فولوا الأدبار منهزمين ، و غنم الزبـير غنائم كثيرة من العتاد و الزاد كفت جيشه أربعـة أشـهر متتاليـات ثـم عـاد إلـى مقر قيادته في مدينة دارا و تحصن بها (٣) .

وفي ٢٧ من رجب سنة ١٢٩١هـ / ٨ مـن سبتمبر جمـع الأمير حسب اللـه فلول جيشـه و عـاد إلى دارا محـاولاً إقتحام استحكاماتها ، و لكنه هــزم أيضاً (٤) .

---

(١) نعوم شقير تاريخ السودان . مصدر سابق ص ٢٨١ .

(٢) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٧٩ وما بعدها .

(٣) نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٢٧٨ .




و عندما علم السلطان إبراهيم أنباء إندحار قوات عمه الأمير حسب الله إستعظم الأمر جداً ، و أدرك أن عليه أن يرمي الزبير بآخر سهم في كنانته فيقع منه في مقتل ، و إلا ضاعت السلطنة من يديه إلى الأبد ، فصاح في قومه مؤكداً لهم أن المعركة القادمة معركة وجود أو فناء ، و استطاع أن يجمع منهم جيشاً كثيفاً تقدره المصادر بمائة و خمسين الف مقاتل (١) و كان السلطان إبراهيم قبل ذلك قد أرسل فرقة من الجيش لإعتراض الحكمدار من دخول دارفور و قطع طريق إمدادات الزبير و لكن هذه الفرقة قد هُزمت (٢) .

و في الوقت الذي كان فيه السلطان إبراهيم يعد الجيوش لمقاتلة الزبير والحكمدار أرسل مجموعة من الرسل رأسهم الحاج أحمد إدريس زوج إبنته إلى الإستانة و الحجاز بقصد التوسط لدى الباب العالي لكي يستطيع التخلص من محاربة الخديوية له ، و لكن الحكمدار علم بالأمر فأرسل إلى القاهرة بغرض التنبيه على المسئولين بإلقاء القبض على الرسل قبل وصولهم إلى الجهات المرسلين إليها ، و قد تم القبض عليهم و مصادرة ما معهم من أموال و هدايا (٣) أما السلطان إبراهيم فإنه تحرك بجيشه الكبير إلى دارا بعد أن إستخلف إبنه الأكبر محمد الفضل على الفاشر ، و ألزم أكابر دولته بأن يترك كل منهم إبنه الأكبر مع إبنه الأمير محمد الفضل الذي ناب عنه في الحكم خلال فترة الحرب .

---

(١) ذكر الزبير باشا و سعد الدين الزبير و نعوم شقير أن جيش السلطان إبراهيم بلغ نحو مائة و خمسين الف ولكن لأن هذا العدد الكبير من الجند يصعب جمعه و تحريكه قبل بضعة سنين فكيف تيسر جمعه في ذلك الوقت ؟ .

نعوم شقير - تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٩.
سعد الدين - الزبير رجل السودان مصد سابق ص ٨١
مذكرات الزبير - مصدر سابق ص ١٤ .

(٢) الدفتر رقم (٢٧) وارد عابدين ، تلغرافات ، شفرة عربي ص ص(٣٥/٧٠، ٣٦/٧١) التغراف رقم (٤١٢) في ٢٢ من شعبان ١٢٩١هـ / ٤ من أكتوبر ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة . و التلغراف رقم (٤٨٨) في ٢٦ شعبان ١٢٩١هـ / ٨ من أكتوبر سنة١٨٧٤م .

(٣) الدفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ص ص (٣/٦ ، ٤/٧) التلغراف رقم (٢٦) في ٧من رمضان سنة ١٢٩١هـ / ١٨ من أكتوبر ١٨٧٤م دار الوثائق القومية .




و قد وصل السلطان إبراهيم بجيشه الكبير دارا في ضحى الخامس من رمضان سنة ١٢٩١هـ / ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٧٤م و أحاط بسور المدينة من كل جانب ، و قاد عدة هجمات على المدينة بعزم صادق و إستماتة محاولاً كسر الإستحكامات و دخول المدينة منها ، لكنه فشل و خسر الكثير من رجاله مما اضطره إلى الإنسحاب ليتمكن من جمع فلول جيشه ، فلما تم له ذلك توجه إلى جبل مره و تحصن به (١) .

و في ١٢ من رمضان سنة ١٢٩١هـ خرج الزبير بجيشه مقتفياً أثر السلطان إبراهيم فأدركه في بلدة منواشي الواقعة إلى الجنوب الشرقي من الفاشر و ذلك في ضحى يوم السبت ١٣ من رمضان ١٢٩١هـ و في صباح الأحد ١٤ من رمضان ١٣٩١هـ الخامس و العشرون من أكتوبر ١٨٧٤م وقعت بين جيش الزبير وجيش السلطان إبراهيم معركة حامية الوطيس عقد فيها لواء النصر للزبير ودارت الدائرة على جيش السلطان إبراهيم ، فقتل السلطان إبراهيم مع مجموعة كبيرة من أبنائه و كبار دولته بالإضافة إلى أعداد غفيرة من جيشه (٢) وهنا أبى الزبير إلا أن يسجل موقفاً آخر من مواقف رجولته و شهامته و شرف نفسه حيث أخذ جثة السلطان إبراهيم و كفنها بالأنسجة الفاخرة و دفنها في قرية منواشي (٣) إحدى قرى جنوب دارفور في إحتفال عظيم إجلالاً لمقامه و إقراراً ببسالته رغم أن التكفين بالانسجة الفاخرة والاحتفال بدفن الميت ليس من نهج الإسلام .

---

(١) نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٩
وسعد الدين ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٨٣

(٢) مذكرات الزبير ـ مصدر سابق ص ١٥
نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٠
سعد الدين ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٨٥

(٣) قرية صغيرة تبعد حوالي ١٥٠ كلم من الفاشر .



ثم دفن القتلى من أبنائه و كبار رجال دولته و عفى عن جميع الأسرى ، ومن أعظم الغنائم التي غنمها الزبير في هذه المعركة ثمانية مدافع و حمل سبعة وعشرين جملاً من الذخيرة و مجموعة كبيرة من الأسلحةالنارية (١) . و بعد أن استراح الزبير و جنده أربعة أيام في مدينة منواشي توجه تلقاء الفاشر عاصمة دارفور فدخلها في فجر الثالث و العشرين من رمضان سنة ١٢٩١هـ / الثالث من نوفمبر سنو١٨٧٤م بعد أن تركها الأمير محمد الفضل و من معه من أهله و أبناء أكابر الدولة و ذلك خوفاً من إنتقام الزبير أثر هزيمة السلطان إبراهيم و مقتله ، فلم يبق بالفاشر سوى التجار و العلماء ، فأمنهم الزبير على دمائهم و أموالهم (٢) كعادته دائماً كلما دخل بلدةً عنوة .

و لما تسامع الناس بالمعاملة الكريمة التي لقيها التجار والعلماء في الفاشر أخذوا يتوافدون عليها مقدمين الطاعة والإمتثال ، وبدخول الزبير الفاشر أصبح أهالي السلطنة وجميع أراضيها تحت سلطان الحكومة العثمانية ذلك الحلم الذي طالما راود المعية السنية أمل تحقيقه منذ أن وطئت أقدام إسماعيل باشا إبن محمد علي باشا السودان سنة ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م و قد بذلت الحكومة العثمانية في سبيله المهج و الأموال ، وبعد أكثر من خمسين عاماً على ضم السودان تحقق هذا الأمل على يد أحد أبناء السودان دون أن تخسر الحكومة العثمانية رجلاً واحداً اللهم إلا قليلاً من الأسلحة والأموال أعدت بها فرقة لم يكن لها نصيب المشاركة في ضم دارفور .

---

(١) مذكرات الزبير - مصدر سابق ص ١٥
نعوم شقير - تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٠

(٢) مذكرات الزبير - مصدر سابق ص ١٥
سعد الدين - الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٨٦




أما الحكمدار فقد أتته الأخبار بأن الزبير خرج من مدينة دارا متعقباً السلطان إبراهيم فغادر الحكمدار أم شنقه(١) في طريقه إلى دارا ، و قبل أن يصلها وصلته رسالة من الزبير باشا يخبره فيها بإنتصاره على السلطان وسيره إلى الفاشر ، فعدل الحكمدار عن الذهاب إلى دارا ، و قاد جيشه نحو الفاشر ، فدخلها في غرة شوال ١٢٩١هـ / ١١ من نوفمبر ١٨٧٤م ، فأحسن الزبير إستقباله ، وأطلق له مائة قذيفة مدفعية ترحيباً بمقدمه ، فهنأ الحكمدار الزبير بالنصر وشكر له ولاءه و حسن خدماته ، ثم أبرق إلى الخديوية بذلك(٢) .

لقد ذكرنا أن الزبير دخل مدينة الفاشر عاصمة سلطنة دارفور في فجر ٢٢ رمضان ١٢٩١ الثالث من نوفمبر سنة ١٨٧٤م بعد أربعة أيام من معركة منواشي التي وضعت حداً لمقاومة الجيوش الفوراوية و أنه أمّن من كان داخل المدينة على أنفسهم وأموالهم ،و بعد سبعة أيام من دخول الزبير الفاشر وصل إليها الحكمدار إسماعيل أيوب على رأس الجيش الذي كان مقررا أن يبدأ فتح دارفور من الشرق (٣) ولكنه أبطأ في سيره (٤) حتى دخلها في ١١نوفمبر سنة ١٨٧٤م ،

---

(١) في حدود كردفان الغربية شرق دارفور .
نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨١
سعد الدين ص ٨٧

(٢) الدفتر رقم (٥) معيه سنيه عربي ، وارد إفادات ص (٢٣) مكاتبة رقم (٥) مرور في غرة شوال سنة ١٢٩١هـ /١١ من نوفمبر سنة ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) (أنظر الدفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ، تلغرافات ، شفرة عربي ص (٤/٧ ، ٤/٨) التلغراف رقم ٣٢ في ٨ رمضان سنة ١٢٩١هـ /٢١ من أكتوبر ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) أبطأ الحكمدار بحجة تأمين مركز أم شنقة لأن سقوطه في أيدي القوات الفوراوية يعني قطع إمدادات جيوش الحكومة ، و لكن يبدو أن الحكمدار أراد للزبير إحدى أمرين : إما أن يهزم من قبل جيش دارفور و إما أن ينتصر بعد أن يكون قد فقد معظم قوته و بذلك يؤمن جانبه .




فأحسن الزبير استقباله وسلمه مقاليد الأمور في المدينة فشكر للزبير خالص ولائه و حسن صنيعه ، ثم كتب إلى الحكومة العثمانية بهذا النصر و أنه دخل الفاشر على رأس الفرقة الثانية، و أنه قام بعتق رقيق سلطان دارفور السابق بإعطائهم أوراقاً رسمية تثبت حريتهم ، كما أن الأهالي أخذوا يفدون عليه لتقديم الولاء و الطاعة و الدخول تحت مظلة الحكومة العثمانية ، كما أخبر الحكومة العثمانية أيضاً بأن الأمير محمد الفضل الإبن الأكبر للسلطان إبراهيم ترك العاصمة و معه مجموعة من أبناء السلطان ولجأوا إلى جبل مرة تحت لواء الأمير حسب الله بقصد التمرد ومحاولة إسترداد عرش المملكة (١) ، كما لم يفت الحكمدار أن يطلب مجموعة من الرتب و النياشين لبعض الضباط وصف الضباط الذين إشتركوا في فتح دارفورتقديراً لشجاعتهم وعرفاناً بدورهم (٢) فردت الحكومة على تلغراف الحكمدار بتلغراف في ٢٩من شوال ١٢٩١هـ ١٠ من ديسمبر ١٨٧٤م طلبت فيه تبليغ تهنئة المعية السنية إلى الضباط و الجنود الذين إشتركوا في فتح دارفور كما طلبت من الحكمدار النظر في حسن إدارة تلك الجهات حسبما يراه حتى يلتفت الناس إلى معاشهم من زراعة و تجارة و غيرها ، كذلك طلبت منه تقسيم تلك الديار إلى مديريات ، و تعيين الحكام و المستخدمين والعساكر من قبله ، و إذا إستلزم الأمر إرسال بعض المستخدمين و العساكر من مصر فلا مانع ، كما طلبت من الحكمدار البقاء في الفاشر مع بعض العساكر حتى يتم ترتيب تلك الجهات على وجه ماذكر كما طلبت الحكومة العثمانية منه تعيين الزبير على رأس الفرقة التي ستتعقب الأميرحسب الله إذا لم تكن قد توجهت فعلاً (٣) إلى معاقله

---

(١) الدفتر رقم (٢٨) وارد عابدين ، تلغرافات ، شفرة عربي ص ص٤٨(٢٤/، ٤٩ ، ٢٥/) التلغراف رقم (٣٢٢) في ٢٧ شوال سنة١٢٩١هـ /٨ من ديسمبر ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) و مما لوحظ أن الحكمدار لم يطلب أي رتبة أو نيشان لأي من ضباط الزبير الذين تم الفتح على فماذا يعني هذا الموقف هل فات هذا على فطنة الحكمدار أم أنه عمل مقصود لذاته .

(٣) الدفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات عربي ص(٩/١٨) تلغراف رقم (١٤٣)في ٢٩ من شوال ١٢٩١هـ / ١٠ من ديسمبر سنة ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

و قد أنعمت المعية السنية برتبة الفريق (١) على هذا الحكمدار كما أنعمت برتبة لواء والنيشان المجيدي من الدرجة الثانية(٢) على الزبير .

في هذا الأثناء كانت فلول جيوش الفور المندحرة من معركة منواشي قد تجمعت في جبل مرة تحت قيادة الأمير حسب الله بعد مقتل السلطان إبراهيم فما كان من الزبير رحمت إلا أن ترك الحكمدار يدير الأمور في الفاشر و خرج على رأس إثني عشر الف مقاتل في شوال ١٢٩١هـ / ديسمبر ١٨٧٤م و توجه بهم صوب جبل مرة لإخضاع الأمير حسب الله و من معه ، فحاصره بعض الوقت .

و لما رأى الأمير حسب الله أنة لا طاقة له بمقاتلة الزبير بادر بالتسليم هو ومن معه من أولاد السلطان إبراهيم و عمتهم الميرم عرفة و غيرهم من أبناء العائلة المالكة ، و نحو ألف و مائتين من أعيان البلاد و أشرافها فعاد بهم الزبير إلى الفاشر بعد غيبة دامت سته و تسعين يوماً(٣) .

وكان الأمير حسب الله قد طلب من الزبير عند التسليم أن يستعمل نفوذه لمساعدته على أن يتولى حكم البلاد تحت سلطة الحكومة االعثمانية مقابل تعهده بدفع مبلغ مائة ألف جنيه سنوياً لخزانة الدولة ، فسُر الزبير من هذا الإقتراح ورأى أنه الرأي الحق الذي فيه راحة الحكومة و البلاد معاً فتعهد للأمير حسب الله بأن يبذل قصارى جهده في سبيل تحقيق هذه الرغبة ، و لكن الحكمدار رفض هذا الإقتراح رغم تأييد الزبير له و دفاعه عنه بكل الحجج و البراهين التي ساقها لإظهار صواب و رجاحة هذا الرأي و حسنه (٤) .

---

(١) الدفتر رقم (بدون) معية سنية ص (٢٥٠) . التلغراف رقم (١) في غرة ذي الحجة سنة١٢٩١هـ ٩ من يناير ١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم (٢) أوامر عربية ص (٤٤) أمر رقم (٥) في غرة ذي الحجة ١٢٩١هـ /٩ من يناير ١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات عربي ص (٨٤/٧٨) تلغراف رقم (٦٥٥) تاريخه ١١ محرم ١٢٩٢هـ الموافق ١٧ فبراير سنة ١٨٧٥ م . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) نعوم شقير . تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨١ / ٢٨٢
سعد الدين ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٩٠ .



و من الواضح أن الحكمدار ما رفض هذا الرأي رغم صوابه جهلاً منه بعواقبه و إنما رفضه مخالفةً للزبير و عدم إعطائه فرصة ليثبت حسن سياسته كما أثبت حسن قيادته ، و في الوقت الذي كان فيه الزبير يحاصر الأمير حسب الله في جبل مرة أرسل الحكمدار إلى المعية السنية تلغرافاً في ٢٣ محرم ١٢٩٢هـ / ٣ من مارس ١٨٧٥م يخبرها بمحاصرة الأمير حسب الله و يستأذنها في فرض جزية معلومة على أمير برقو الواقعة بين دارفور ووداي على أن يترك أميرها عليها يتوارثها أبناؤه من بعده (١) فجاءه الرد برفض فكرة فرض جزية على إمارة برقو لعدم ضبطها حتى الآن ، و التنبيه على الحكمدار بضرورة إتخاذ الإجراءات اللازمة للاستيلاء على هذه الإمارة بمساعدة الزبير ، و تعزيز القوات المعدة لهذا الغرض و سوق العساكر الدناقلة من بحر الغزال(٢) و إخباره ببعض الأساليب التي يمكن بها الإستيلاء على برقو و ضمها لدارفور و تنصيب الزبير باشا مديراً عليها عرفاناً بصداقته و أهليته لهذا المنصب (٣).

و لكن يبدو أن حسد الحكمدار للزبير أصبح أكثر من أن يدارى ، فبعث تلغرافاً إلى المعية السنية أشار فيه عليها بعدم تولية الزبير مديراً لدارفور و إن كان لابد من تعيينه فليكن بصفة مؤقتة ، و أحتج بأن الأراضي التي تحت إدارته من شكا إلى بحر الغزال أراضي واسعة ، فإسناد ولاية دارفور للزبير سوف تزيد من أعبائه كما أن الأهالي في دارفور ينفرون منه لمحاربته السابقة لهم .ثم طلب الحكمدار من المعية السنية إستصدار أمر بتعيين حسن بك حلمي بعد الإنعام عليه برتبة اللواء مديراً على دارفور (٤) .

---

(١) الدفتر رقم ٣٠ وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ص ١٨ ، تلغراف رقم ١٤٦ في ٢٣ من محرم ١٢٩٢هـ / ٣ من مارس ١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدناقلة قبيلة تسكن شمال السودان والدناقلة في بحر الغزال جزء من القبيلة الأم جاءوا إلى الجنوب للتجارة ثم انضم كثير منهم تحت خدمة الزبير . ـ نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٩٧ .

(٣) الدفتر رقم (٢١) صادر عابدين ، تلغرافات ، شفرة عربي ص ص(١٦/٣٢، ١٧/٣٣، ١٧/٣٤) التلغراف رقم (٢٣٨) في ١٥ من ذي القعدة سنة ١٢٩١ هـ الموافق ٢٥ من ديسمبر سنة ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة.

(٤) الدفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ، تلغرافات ، شفرة تركي ص ص(١٤/٢٨، ١٥/٢٩، ١٥/٣٠) التلغراف رقم (٢٣١) في ٢١ من ذي القعدة سنة ١٢٩١هـ / ٣٠ من ديسمبر ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




و عندما رأى الحكمدار رغبة الحكومة العثمانية في اضعاف قوة الزبير في بحر الغزال بسحب العساكر الدناقلة منها ، و كذلك حرصها على فتح إمارة برقو تفتق ذهنه عن مكيده أخرى يجرد بها الزبير من كل شئ ، فطلب إبقاء الزبير مديراً بصفة مؤقته على دا فور و شكا و بحر الغزال ، مع بقاء حسن بك حلمي قمندان (١) على العساكر ، كما طلب أن ينزع منه بحر الغزال ، دون شكا (٢) التي أصبحت جزءاً من دارفور ، ثم بعد ذلك يُرسل الزبير لفتح أمارة برقو ، ويعين أحد القادة بدلاً منه مديراً على دارفور ، و يمكن أن يكون هذا الشخص هو حسن حلمي بك . و بهذه الخطة يخرج بحر الغزال و شكا و دارفور من يدي الزبير (٣) أما الأمير حسب الله فإنه عندما قرر الإستسلام للزبير و العودة معه إلى الفاشر عسكر بمن معه خارج المدينة ، و عندما عرض الزبير رغبة الأمير حسب الله على حكمدار السودان و هي أن يُولى هذا الأمير مقاليد الأمور في دارفور مقابل دفعه مبلغ مائة ألف جنيه إلى الحكومة العثمانية سنوياً و قد رفض الحكمدار هذا الطلب . عندئذٍ رأى الزبير أنه أصبح في حل من تعهده للأمير فأخبر الأمير حسب الله بأنه حر الإرادة و إذا أراد الرجوع إلى جبل مرة للإعتصام به فليفعل ، أو إذا أراد أن يسلم نفسه إلى الحكمدار فليفعل (٤) .

---

(١) قومندان : رئيس الشرطة أو العسكر و قومندانية تكنات الشرطة و الجند .

(٢) أي فصل أراضي بحر الغزال عن أراضي كردفان .

(٣) الدفتر رقم ٢٩ وارد عابدين ، تلغرافات ، شفرة عربي ص (٣١/٦١)، التلغراف رقم (٤١٥)في ٩ من ذي الحجة سنة ١٢٩١هـ /١٧ يناير ١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) محمد طلعت : غرائب الزمان في فتح السودان ص ٦١/٦٠ . مطبعة الإسلام بمصر ١٣١٢هـ




وهذا بلا ريب موقف من مواقف الشهامة و الرجولة و حفظ العهد يسجله هذا القائد السوداني في سجل حياته خاصة و في سجل القيادة المسلمة عامة ، فعندا رفض الحكمدار هذا الرأي أراد الزبير أن يؤكد لأمير دارفور التزامه الشخصي بما قطعه معه من عهود والتزامات وأن الامير الآن في حل من كل تلك العهود والالتزامات .

لكن الأمير حسب الله تقديراً منه للموقف و عدم الرغبة في إراقة المزيد من دماء المسلمين شكر للزبير موقفه ثم سار الأمير حسب الله بعد ذلك و من معه لمقابلة الحكمدار فأستقبله الحكمدار بالإعزاز و الإكرام (١) ثم قام بتجريده هو ومن معه من السلاح ، فطلبت الحكومة العثمانية سرعة إرسال الأمير حسب الله و من معه إلى كردفان ثم إلى الخرطوم ثم إلى سواكن (٢) ثم أرسلت الحكومة العثمانية تلغرافاً إلى قائمقام الحكمدارية بالخرطوم بخصوص العمل على إقامة الأمير حسب الله و عائلته و أولاد السلطان السابق بالإعزاز و الإكرام عند وصولهم الخرطوم ثم إرسالهم إلى سواكن و منها إلى مصر(٣) و كان الحكمدار قد أرسل الأمير محمد الفضل الإبن الأكبر للسلطان إبراهيم وبقية إخوته إلى الخرطوم بغية إرسالهم إلى سنار (٤) و لكن الحكومة العثمانية في مصر رأت ضرورة إرسالهم جميعاً إلى مصر

---

(١) محمود طلعت : غرائب الزمان في فتح السودان مصدر سابق ص ٦١/٦٠
سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٩٠ .
مذكرات الزبير مصدر سابق ص ١٦

(٢) الدفتررقم ٢٩ وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٣١/٦١) رقم ٤١٥ في ٩ من ذي الحجة ١٢٩١هـ / ١٧ يناير ١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم (٢١) صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص (٩٦) التلغراف رقم (٧٠٦) في ١١من المحرم سنة ١٢٩٢هـ / ١٧ من فبراير ١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) الدفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ، تلغرافات عربي ، ص (٤٨/٩٥، ٤٨/٩٦) التلغراف رقم ٦٨٨ تاريخه ٥ من المحرم سنة ١٢٩٢هـ / ١١ من فبراير سنة ١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




و كان الحكمدار قد اقترح تشكيل هيئة لحكم غرب السودان تضم مديرية شكا و بحرالغزال ودارفورعلى أن يعين خالد باشا مديراً لعموم غرب السودان (١) ثم طلب من الحكومة العثمانية التريث في فتح إمارة برقو و ضرورة الإنتظار سنة أو سنتين حتى تستتب الأمور في دارفور (٢) ، ثم أرسل بعد ذلك تلغرافاً آخر إلى الحكومة االعثمانية يشير فيه عليها بتعيين الزبير مديراً على دارفور ضمن هيئة غرب السودان (٣) و قد ظهر تردد الحكمدار واضحاً بين فكرتين إحداهما تحبّذ الإفادة من الزبير رحمت في فتح و حكم غرب السودان ، و الثانية تتجه إلى التخلص منه (٤) .

و بعد أن تفاقم الخلاف بين الحكمدار وبين الزبير رحمت حول مطالب الأمير حسب الله أصدر الحكمدار أوامره للزبير بالتوجه إلى دارا و الإنتظار بها حتى ترد إليه رسالة تتضمن أمره بالتوجه إلى بحر الغزال ، فأذعن الزبير للأمر و سار بجيشه إلى دارا (٥) ، وهنالك أراد الحكمدار أن يطيب خاطر الزبير حيث طلب من مهردار الوالي المصري السماح للزبير بإسترداد أربعمائة قنطار من سن الفيل موجودةً ببحر الغزال و كانت من تجارة الزبير التي يريد إرسالها إلى الخرطوم

---

(١) الدفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ، تلغرافات شفرة تركي ص (٢٧/٥٢) التلغراف رقم (٤١١) في ٢٦من ذي القعدة سنة ١٢٩١هـ / ٤ من يناير سنة ١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ، شفرة عربي ص (٢٨/٥٥، ٢٨/٥٦، ٢٩/٥٧) التلغراف رقم (٤١٣) في ٣ من ذي الحجة سنة ١٢٩٢هـ / ١١ من يناير سنة ١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ص (٣١/٦٢، ٣٢/٦٣) التلغراف رقم (٤١٨) في ٩ من ذي الحجة سنة ١٢٩٢هـ / ١٧ من يناير١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) د/ جلال محي : مصر الأفريقية و الأطماع الإستعمارية في القرن التاسع عشر ص ٦٢ــ٦٣ طبع دار المعارف ١٩٨٤م .

(٥) مذكرات الزبير ـ مصدر سابق ص ١٦ .




ولكنه خشي ضبطها لأن الحكومة كانت قد احتكرت تجارة العاج في ذلك الوقت . وقد بين الحكمدار للزبير أن إسترداده لهذا العاج إنما هو نظير خدماته التي أداها للحكومة العثمانية في السودان (١) لكن مدير كردفان قام بضبط هذا العاج مما دفع الزبير إلى رفع الأمر إلى الحكومة العثمانية (٢) التي أرسلت في الحال إلى الحكمدار تطلب منه تأنيب مدير كردفان لضبطه العاج الذي يخص الزبير باعتباره من كبار موظفي الدولة العثمانية (٣) .

كما أرسلت الحكومة العثمانية تلغرافاً إلى الزبير في ١٢٩١/١٢/٣١هـ/ ١٨٧٦/٢/٦ تعتذر إليه عما حدث من جانب مدير كردفان ، و تؤكد له أنها عملت على محاسبته و في الوقت نفسه أمرت بإطلاق العاج فوراً (٤) .

و في أثناء إنتظار الزبير في دارا أتته رسالة من الحكمدار في شعبان ١٢٩٢هـ اكتوبر ١٨٧٥م يطلب فيها من الزبير التوجه بعساكره إلى جبل مرة لمحاربة الأمير يونس أخ الأمير حسب الله ، و ذلك لأنه جمع حوله بقية أولاد السلطان إبراهيم و أعلن الحرب والخروج عن طاعة الحكومة العثمانية ، فأمتثل الزبير للأمر ، وخرج لمقاتلة الأمير يونس و استمرت الحرب بينهما خمسة عشر يوماً لاذ بعدها الأمير بالفرار ، فترك الزبير إبنه سليمان على رأس ألف

---

(١) الدفتر رقم (٢٩) وارد عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ، ص (٣٠/٦٢) التلغراف رقم (٤١٦) في ٩ من ذي الحجة ١٢٩١هـ / ١٨ من يناير سنة١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم ٣٦ وارد عابدين ، تلغرافات عربي ، ص (٣٩/٧٣) التلغراف رقم (٣٩٥) في ٢٩ من ذي الحجة ١٢٩٢هـ / ٦ من فبراير سنة ١٨٧٦م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم (٢٦) صادر تلغرافات عابدين ، شفرة تركي ، التلغراف رقم (٢٢٩) آخر ذي الحجة ١٢٩٢هـ ٦ من فبراير سنة ١٨٧٦م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) الدفتر رقم (٢٦) صادر تلغرافات عابدين ، شفرة تركي التلغراف، رقم (٢٣٠) في نهاية ذي الحجة سنة ١٢٩٢هـ /٦ من فبراير سنة ١٨٧٦م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




ومائتين و تعقب هو الأمير يونس حيث أدركه بالقرب من كبكابية(١) فدارت بينهما معركة حامية إنتهت بقتل الأمير يونس وأخيه سيف الدين و مجموعة من كبراء جيشه(٢) . و هناك وجد الزبير نفسه في أقصى الغرب متوغلاً في ديار تاما والمساليت و قُمُر و سُولا (٣) فأخضعهما جميعاً لسلطة الدولة العثمانية ، ثم سار حتى وقف على أعتاب مملكة واداي (٤) يريد إخضاعها أيضاً ، و كان أمير واداي السلطان علي إبن السلطان محمد شريف عندما وصله خطاب الزبير الذي يدعوه فيه إلى الطاعة قد أجاب دعوة الزبير ، و أرسل أحد وزرائه بهدايا إلى الزبير ، و لكن قبل وصول الرسول وصلت إلى الزبير رسالة من الحكمدار إسماعيل أيوب يأمره فيه بالرجوع في الحال عن واداي فامتثل الزبير للأمر و عاد إلى الفاشر وهناك أخبره الحكمدار أن السلطان علي بن شريف أرسل وزيره أحمد تنكه إلى مصر عن طريق واحة سيوه حيث قابل جناب الخديوي ،واشتكى إليه تعدي الزبيرعلى أراضيه فبعثت الحكومة العثمانية بأمرها إلىالحكمداربالرجوع عن واداي فوراً (٥) .

وقد كانت غزوة واداي آخر الغزوات التي غزاها الزبير في السودان وعندما عاد الزبير إلى الفاشر قادماً من واداي وجد الحكمدار اسماعيل قد قام بتحصين مدينة الفاشر ، حيث بنى من الناحية الغربية منها وعلى تل مرتفع

---

(١) تقع جنوب غرب دارفور بالقرب من جبل مرة .

(٢) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ١٦، ١٧

(٣) تاما و المساليت و قمر وسُولا قبائل غير عربية تسكن في المنطقة الواقعة بين دارفور شرقاً وواداي غرباً ولا تخلو هذه القبائل من التأثيرات العربية و تسكن تاما في الشمال و تليها المساليت و قمر و سولا جنوباً . محمد عوض محمد : السودان الشمالي سكانه و قبائله ط ٢ مرجع سابق ص ٢٦٩/٢٧٠ .

(٤) تقع واداي الى الغرب من دارفور وكان يفصل بينهما قديماً ديار تاما والمساليت وسلا . سكانها خليط يغلب الدم الزنجي على كثرتهم . وبينها وبين دارفور قبائل مشتركة مثل البديات والزغاوة والتنجر والداجو . فيه عرب خلص كالمحاميد . استعمرها الفرنسيون سنة ١٩١١م وضموها إلى مستعمراتهم في افريقية الاستوائية واليوم تشمل جمهورية تشاد .

THE ENCYCLOPEDIA OF ISLAM , P , 1975 , LONDON 1934.

(٥) مذكرات الزبير مصدر سابق ص١٧

نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٢، ٢٨٣





شكل رقم (٢)

(فتوحات الزبير في سلطنة دارفور وبحر الغزال)

المصـــدر : سعد الدين الزبير ـ الزبير باشا رجل السودان ص ٨٧ .



حصناً منيعاً زوده بالأبراج و المدافع وأحاطه بخندق يبلغ عمقه خمسة عشر قدماً ثم أحاط الخندق بسور من الأشواك ، كما شرع في تنظيم البلاد حيث قسمهاإلى أربعة أقسام هي (١):

أولاً : مديرية الفاشر و عاصمتها الفاشر .

ثانياً: مديرية دارا و عاصمتها دارا .

ثالثاً: مديرية كبكابية و عاصمتها كبكابية .

رابعاً: مديرية أم شنقة .

كما بنى داخل السور ديواناً للحكومة ز منزلاً للحاكم و ثكنة للعساكر المنظمة ، أما العساكر غير النظامية فقد أبقاها خارج السور (٢) .

و هذا دليل على أنه ليست كل الحروب شر ، فعلى الرغم مما تأتي به الحرب من دمار و هلاك في الحرث و النسل إلا فإنها إذا كانت تهدف لترسيخ قواعد الحق و العدل فإنها في كثير من الأحيان يعقبها العدل و الأمن و العمران فقد أثبتت أن الحروب التي قادها الزبير في بحر الغزال عم بعدها العدل و الأمن ، و توحد الناس ، و أدخلت أنواع جديدة من الزروع و الصناعات ، و إنتشرت اللغة العربية ، كما مهدت الطريق للدعوة إلى الإسلام ، و خطت كثير من القبائل البدائية خطوات جيدة نحو المدنية و الحضارة أضف إلى هذا تحصين الفاشر ، و تنظيم المديرية .

و عندما علم الزبير أن الحكمدار فرض ضريبة على عامة الشعب تبلغ خمسين قرشاً على كل فرد احتج عليه و أعلمه بأن هذه الضرائب باهظة و سوف

---

(١) سعد الدين ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٩٦

(٢) نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٣




تنقل كواهل الناس ، وهذا قد يدفعهم إلى الثورة و الخروج عن طاعة الحكومة (١). لأن الأهالي في دارفور لم يتعودوا على الضرائب فرفض الحكمدار نصيحة الزبير و أبقى هذه الضرائب(٢) و ليت الحكمدار أخذ بوجهة نظر الزبير ، و لو أخذ بنصيحة الزبير لكسب ثقة أهل دارفور و تعاونهم مع العهد الجديد ، و مما لا شك فيه أن الأخذ برأي الزبير كان ضمنياً أن يوفر على السلطة الحاكمة في الخرطوم كثيراً من لجهد و المال و لكن يبدو أن الوالي نفسه كان يخشى تعاظم نفوذ الزبير الذي عرف بقوة الشخصية و الذكاء و الإقدام و الشجاعة .

و عندما وجد الزبير أن الحكمدار مصرّ على رأيه كتب إليه كتاباً رسمياً في ١٢٩١هـ/١٨٧٤م أثبت فيه وجهة نظره و رفع المسئولية عن نفسه و ألقاها على عاتق الحكمدار (٣) مما زاد غيظه و حنقه فأصدر أوامره إلى الزبير بالرجوع إلى بحر الغزال ، فصدع الزبير بالأمر ، و خرج بعساكره قاصداً دارا ، و عند وصوله إليها أتاه تلغراف من الحكومة العثمانية في ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م يأمره بعدم التعرض للحكمدار في إدارة البلاد . ففهم الزبير بذلك أن الحكمدار قد شكاه إلى الحكومة العثمانية ، وطعن في صداقته و إخلاصه، فعزم على السفر إلى مصر للتشرف بمقابلة جناب الوالي و عرض حقيقة الحال على سموه و النظر معه و مع رجال حكومته في تنظيم البلاد التي تم فتحها على يديه و البلاد التي يمكن الحاقها بحكومته في المستقبل (٤) .

---

(١) وقد أثبتت الأيام صدق حدس الزبير كما يمر بنا في المبحث الثالث من هذا الفصل .

(٢) مذكرات الزبير ـ مصدر سابق ص ١٧ .

(٣) سعد الدين : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٩٧ .

(٤) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ١٨
نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٤ ، ٢٨٥

الفصل الثانـــي :

المبحـث الثالـث :

علاقة الزبير باشا بالحكومة العثمانية في مصر والحكمدارية في الخرطوم .



علاقة الزبير باشا بالحكومة العثمانية في مصر والحكمدارية في الخرطوم

عندما حضر إسماعيل باشا بن محمد علي ضم السودان استقبله أعيان قبيلة الجميعاب بالترحاب وعاهدوه على الولاء و كان من جملتهم الفيل بن منصور وأخوه الشيخ رحمه ـ والد الزبير .

و كما تلقى الزبير من والده في صغره المبادئ الأساسية للقراءة و الكتابة وعلوم القرآن تعلم منه وجوب الإلتزام بمبادئ الأخلاق الإسلامية ، فشب على أخلاق الإسلام الكريمة ، لهذا كان يؤمن بأن المحافظة على العهود ، العهدالذي قطعه أعيان قبيلته على أنفسهم لحاكم (١) مصر يجب الحفاظ عليه وأداءجميع متطلباته .

و لقد ظل رحمت بن منصور و أخوه الفيل محافظين على هذا العهد إلى أن توفاهما الله تعالى ، و ما ذلك إلا لأن الحكومة العثمانية في مصر في نظرهما تحكم باسم الدولة العثمانية التي هي حامية حمى الإسلام . و منذ ذلك الوقت رسخ في ذهن الزبير أن المحافظة على العهد مع الحكومة العثمانية أمر من مبادئ العقيدة ، و أن الخروج عليه و التنصل منه يُعد خروجاً على قيم الدين الإسلامي الحنيف و تنصلاً منها ، و لذا نجد أن هذا الإيمان العميق بشرف العلاقة مع الحكومة العثمانية وواجباتها الإسلامية كان له أثره البالغ في توجيه حياة الزبير العسكرية و المدنية فلم تسنح له سانحة بمخاطبة الحكومة العثمانية في القاهرة أو الحكمدارية في الخرطوم أو سلاطين و ملوك قبائل السودان إلا أكد أنه من رعايا الدولة العثمانية ، و أنه طوع حكمها و إرادتها . ولم يمر ذكر السلطان العثماني أوالحكومة العثمانية في مصر على لسانه أو قلمه إلا نعتها بكل صفات التبجيل والتعظيم (٢) .

---

(١) محمد علي باشا سنة ١٨٢١م / ١٢٣٦هـ .

(٢) مذكرات الزبير باشا ـ مصدر سابق ص ٧ ـ دار الوثائق القومية بالخرطوم .

رسائل الزبير التي خاطب بها السلطان إبراهيم سلطان دارفور . دار الوثائق القومية بالخرطوم رقم ٧٢/١/١٢٥١ .

نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٨ .




و يقول الزبير في مذكراته عن هذه العلاقة :(فبادر أعيان قبيلتنا للدخول تحت طاعته (أي إسماعيل باشا بن محمد علي) بالمحبة ، و كان أبي رحمت وأخوه الفيل من ضمنهم فقابلوه و عاهدوه على أن يكونوا وقبيلتهم مسالمين للحكومة و تحت طاعتها ، و ما زالوا تحت الطاعة حتى توفاهم الله تعالى ، فأنا وأمثالي من الطبقة الثانية قمنا خلفاً بعد سلف، و لم يحدث منا ما يكدر صفو الراحة العمومية) (١)

و عندما أراد الزبير محاربة قبيلة الرزيقات كتب إلى السلطان إبراهيم سلطان دارفور مفتتحاً رسالته بما خلعه على نفسه من صفات الطاعة و شرف الخضوع للحكومة العثمانية التي تحكم بإسم السلطان العثماني في الوقت الذي ألبس فيه الخديوية ثوب العز و العظمة و الفخار كقوله(أمابعد : فنحن عبيد أفندينا وليّ النعم خديوي مصر المعظم) (٢) .

و عندما إنتصر الزبير على قبائل الرزيقات و أصبح في مكانة مرموقة من العز و الفخار و السطوة كتب إلى سلطان الفور مجرداً نفسه من أية صفة إلا صفة التبعية لسلطان الخديوية في مصر فقال : (أنا الزبير رحمت رجل تاجر من قبائل العرب الساكنين على شاطئ بحر النيل التابعين للحكومة العثمانية تحت أوامرها ونواهيها) (٣) و عندما هرب بعض مشايخ الرزيقات ملتجئين إلى السلطان إبراهيم سلطان دارفور بعث إليه الزبير برسالة أبرز له فيها عظمة الدولة العثمانية وحذره من الخروج عليها أو قتال رجالها لأن قتالهم ما هو إلا قتالها فقال:(و قد بلغنا أن الشيخ منزل و الشيخ عليان من أكبر طغاة الرزيقات قد إلتجآ إليكم و هما يحثانكم على حربنا ، فغاية ما نرجوه أن لا تسمعوا لأقوالهما الفاسدة فتقعوا في حرب الدولة المصرية ذات السطوة الغالبة والمدد غير المنقطع (٤) .

---

(١) تكررت بعض المعلومات في هذه الصفحة والتي سبقتها والتي تليها وذلك لتبيان قوة ومتانة علاقة الزبير بالسلطة في مصر وأسباب هذه العلاقة ودواعي المحلفظة عليها .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٨ .

(٣) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٧

(٤) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٢




و عندما رفض سلطان دارفور تسليم مشايخ الرزيقات و قرر الحرب غير الزبير من هدفه فبعد أن كان غرضه الحصول على منزل و عليان اللذيْن هربا إلى سلطنة دارفور قرر فتح دارفور و ضمها إلى سلطة الحكومة العثمانية فبعث في ٣ من رجب سنة ١٢٩١هـ / ١٦ من أغسطس ١٨٧٤م إلى السلطان إبراهيم برسالة دعاه فيها إلى التسليم و يرغبه في الطاعة فقال:(إني سألتكم في بادي الرأي أن تساعدوني على الرزيقات الذين سعوا في الأرض فساداً ، ثم سألتكم مراراً تسليم مُنزل و عليان اللذين إلتجآ إليكم فراراً من وجه العدل ، فما أجبتم بل أرسلتم الجيوش لمحاربتي ، فأوجب الله تعالى علينا محاربتكم حتى تستقيموا أنتم و من معكم من المفسدين في الأرض ، و قد تلقينا جيوشكم و نصرنا الله عليهم و دخلنا مدينة (دارا) و صار القصد الآن إدخالكم أنتم و بلادكم تحت طاعة الحكومة الخديوية فياحضرة الأمير إن كنت تحسب نفسك عبداً لله و موقناً أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، فبادر بخلع الملك عن نفسك بالتسليم إلى ولي نعمتنا الخديوي المعظم حباً للسلام و حجباً لدماء المسلمين) (١) .

و قد ظل الزبير وفياً لمبدأ قطعه على نفسه و هو أن يحارب و يسالم باسم الحكومة العثمانية في مصر ، فعندما قُتل السلطان إبراهيم تحصن عمّه حسب الله بجبل مرة فحاصره الزبير ، ثم دارت محادثات السلام بينهما ، وكان الزبير قد إستصوب رأي الأمير حسب الله حين عرض الأمير على الزبير بعد أن إستسلم له أن يساعده على أن يتولى حكم بلاد دارفور مقابل أموال سنوية مقررة يدفعها الأمير للحكومة العثمانية تقدر بمائة ألف جنيه مصري ، فساند الزبير هذا الإقتراح و دافع عنه أمام الحكمدار إسماعيل أيوب ، ولكن الحكمدار رفض ذلك (٢) .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص (٢٧١ /٢٧٧).

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨١ .




و على الرغم من ولاء الزبير و إخلاصه النادر للحكومة العثمانية في مصر فقد وقفت حكمدارية السودان منه موقفاً لم يقبله الزبير أثناء حصار قوات السلطان إبراهيم له في دارا سنة ١٢٩١هـ /١٨٧٤م و ذلك أنه عندما إستنجد الزبير بحكمدار السودان في ذلك الوقت و هو إسماعيل أيوب ليبادر بنجدته و فك الحصار عنه أرسل إليه هذا الحكمدار برسالة جاء فيها (ما أنا أمرتك بالتقدم إلى دارا و لا أفندينا، فإن إستطعت أن ترفع الحصار وتنجو بجيشك إلىهنا فأفعل و إلا فدبر أمرك بما تراه صواباً (١) .

و مع هذا الموقف الذي واجهه الزبير من ممثل الحكومة العثمانية في السودان و على الرغم من أنه إشتهر بأنه يؤدي أعمالاً عسكرية عظيمة باسم هذه الحكومة دون أن تتكلف أي مبلغ من المال . فإن الزبير ظل على عهده وولائه للحكومة العثمانية في مصر فدخل الفاشر عاصمة سلطنة دارفور ، ثم تنازل عنها للحكمدار و في عام ١٢٩١هـ /١٨٧٤م حاصر الزبير الأمير حسب الله في جبل مرة ، ثم صالحه باسم الحكومة العثمانية ، كذلك دخل سلطنة واداي باسم الحكومة ثم خرج منها خضوعاً لأوامر الحكومة أيضاً ، ثم توغل بالجيش في بلاد الغرب (٢) فدانت له ديار تامة و المساليت و قمر و سلا حتى بلغ الترجة (٣) الفاصلة بين دارفور وواداي فأقام فيه أياماً للراحة و ليتأهب لدخول أراضي واداي وليخضعها للحكومة العثمانية (٤) .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨١

(٢) بلاد الغرب : هي الأراضي الواقعة غرب دارفور و شرق واداي .

(٣) الترجة: منطقة شبه صحراوية وتكاد تخلومن السكان فيأقصى الغرب تلاصق الحدود الشرقية لسلطنة واداي .

(٤) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٢ .




و حتى عندما تأزمت الأمور بينه و بين حكمدار السودان و إنفرط عقد الثقة بينهما إتجه الزبير إلى الحكومة العثمانية في مصر محط آماله و مناط رجائه و ثقته لتعيد الأمور إلى نصابها ، و ذلك بعد أن تبين له أن حكمدار السودان أرسل إلى الحكومة االعثمانية معلومات خاطئة إعتبرها الزبير قدحاً في إخلاصه ووفائه للحكومة العثمانية ، فطلب السماح له بالسفر إلى القاهرة لعرض مظلمته على السلطان العثماني و رجال حكومته و التفاكر معهم في مستقبل الأراضي التي فتحها أو تلك التي يمكن أن يفتحها باسم الحكومة العثمانية في المستقبل (١) .

و عندما وصل الزبير مصر في سنة ١٢٩٢هـ /١٨٧٥م رأى السلطان اسماعيل أن يبقيه عنده و لا يسمح له بالرجوع إلى السودان ، فما كان من الزبير إلا أن امتثل لأمر الحكومة العثمانية في خضوع تام دون تذمر أو ضجر ، بل أنه تقبل الأمر بغاية الشكر و الإمتنان لأنه صادر من السلطان شخصياً إذ قال له السلطان و هو في مجلسه :(زبير باشا قد استحسنت و إستصوبت إبقاءك هنا معي في مصر في ظل ساحتي رهين أمري حتى أنظر و أتفكر عاقبة أمرك) (٢) .

فما كان من الزبير إلا أن قدم إلى السلطان شكره ثم إنصرف من مجلسه وعلى الرغم من هذا كله فإنه لما بدأت نذر حرب البلقان بين الدولة العثمانية وروسيا في سنة ١٢٩٤هـ /١٨٧٧م و شرعت حكومة السلطان في مصر في إرسال نجدة لقوات السلطان العثماني طلب السلطان اسماعيل من الزبير في هذا الوقت المشاركة في هذه النجدة فما كان من الزبير إلا أن لبى طلب السلطان اسماعيل ممتثلاً للأمر دون النظر إلى موقف الحكومة العثمانية منه (٣) .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٢ .
(٢) مذكرات الزبير مصدر سابق ص١٨ .
(٣) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٠٢ و مابعده
نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٥ .



و لقد ظل الزبير حفيظاً على عهده مع الحكومة العثمانية حتى بعد مقتل إبنه سليمان (١) و إتهام الحكومة العثمانية له بالتعاون مع قوات الثورة المهدية ، ونفيه إلى جبل طارق سنة ١٣٠٢هـ /١٨٨٥م ، ذلك أنه عندما وصل جبل طارق حاول الإنجليز إستغلال مواقف الحكومة العثمانية التي اتخذتها ضده ، فتقربوا إليه وأوعزوا له بأنهم الأعرف بقدره و مقدراته العسكرية والإدارية و أنهم يعملون على رده إلى سلطاته و مكانته ، و لم يلبث أن سعى إليه كبار رجال الدولة الإنجليزية من العسكريين و الساسة و عرضوا عليه أن ينصبوه حاكماً على السودان بإسمهم بعد إخلائه من القوات العثمانية غير أن الزبير لقنهم درساً لم ينسوه عندما رفض إغراءاتهم له بالسلطان العريض (٢) وعلمهم أن الثبات على المبدأ والمحافظة على العهد وطاعة أولي الأمر الشرعيين من المبادئ التي لم يتخل عنها قط أمد حياته .

ذلك هو موقف الزبير من الحكومة العثمانية في مصر ، أما موقفه من الحكمدارية في الخرطوم فإنه إنطلق من حقيقة أخرى ثابته و هي أن الحكمدارية تحكم باسم الحكومة العثمانية و لذلك وجب الولاء لها و طاعة أوامرها و تنفيذ سياستها ، و إن أخطأت أو شذت فإنما حسابها على الحكومة العثمانية في مصر و التي تحكم نيابة عن الدولة العثمانية .

و لنرجع قليلاً إلى الوراء نتتبع فيها مواقف الزبير مع الحكمدارية في الخرطوم منذ اللحظة الأولى التي بدأت فيها العلاقة بين الزبير و بين الحكمدارية ،

---

(١) بعد وصول الزبيرإلى القاهرة حاولت حكومة الخرطوم تجريد إبنه سليمان من قوته العسكرية فرفض فجهزت عليه حملة بقيادة جسي الإيطالي فاستسلم سليمان بناء على طلب والده بعدم محاربة جيش الحكومة ، و لكن جسي غدر به و قتله مع مجموعة من عشيرته و كان ذلك عام ١٢٩٦هـ /١٨٧٩م . محمود طلعت غرائب الزمان مرجع سابق ص ١٠٠ (تفصيل أكثر الفصل الرابع ـ المبحث الثالث) .

(٢) سعد الدين : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٤١ .



فعندما أسس الزبير دولته في جنوب السودان كانت الدول الأوربية الإستعمارية(١) قد إتفقت فيما بينها على تحديد مناطق النفوذ في أفريقيا بحيث لاتتقاتل هذه الدول على المائدة الأفريقية ، و من الأسس التي إتفقت عليها هذه الدول أن أي علم يرتفع فوق أي جزء من القارة يجعل ذلك الجزء ملكاً للدولة صاحبة العلم و يكون رفع هذا العلم رمزاً للسبق و السيادة (٢) ، و ما كان للزبير و هو يؤسس دولته أن تغيب حقيقة الإستعمار عن ذهنه و هو يرى الدول الإستعمارية تحيط به من كل جانب ، فكان لابد له من أن يتجه نحو الدولة العثمانية و ممثليها في حكومة مصر.

ومما سبق نعلم أن إتجاه الزبير إلى الدولة العثمانية و تمسكه بها إنما يرجع إلى سببين أساسيين عقدي و سياسي .

أما السبب العقدي فمرجعه أن الدولة العثمانية تمثل الخلافة الإسلامية الشرعية التي تجب الطاعة لها و العمل على إرتقائها ، و كل سياسة لا تتفق مع سياساتها و كل إتفاق مع إعدائها يُعتبر خيانة للإسلام و لخليفة المسلمين .

أما السبب السياسي فمرجعه أن الدولة العثمانية في نظر الزبير ما تزال قوية مرهوبة الجانب و ما زالت مكانتها المرموقة بين الدول الأوروبية تنبع من هيبتها التي لم تتوار بعد فلم يكن عجباً أن يبادر الزبير في سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م بالإتصال بحكمدارية السودان في الخرطوم (٣) لأنها تمثل الحكومة في مصر الحاكمة باسم الدولة العثمانية ثم

---

(١) الدول الأوروبية الإستعمارية هي : البرتغال ، فرنسا ، بريطانيا ، ألمانيا ، إيطاليا ، و هولندا ـــ زاهر رياض الاستعمار الأوروبي لأفريقيا في العصر الحديث ص ٢٣ القاهرة ١٩٦٠م.

(٢) زاهر رياض . استعمار افريقيا ص ١١ وما يليها ـ القاهرة ١٩٦٥ م .

(٣) الدفتر رقم ١٨٧٥ وارد معية سنية مكاتبات ص ٣ المكاتبة رقم (٢٤) من غرة رجب ١٢٩٠ هـ ٢٥ من أغسطس ١٨٧٣م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




يتقرب من الحكمدار و يتودد إليه بالهدايا (١) ويرسل في الوقت نفسه ممثـلاً لـه فـي الخرطـوم ليقـوم بكافـة الإتصـالات اللازمـة بيـن دولـة الزبـير فـي الجنـوب و بيـن الحكمداريـةو لينفذ رغباتـه ، و قـد خصـص الزبـير لهذا المندوب المنـازل الفخمـة ليظهر عظمة و ثراء دولة الزبـير و لتكون لا ئقـة بمنزلـة كبـار رجـال الحكمداريـة حين يزورون مندوب الزبير فيها(٢) .

و عندماوقع الزبير معاهدة فتح طريق التجارة المـار بشكا التـي عُقدت بينـه وبين عرب الرزيقات في سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م كاتب حكمدار السودان بذلك .

كذلك عندما بعثت حكمدارية السودان الشيخ محمد الهلالـي مديـراً علـى بحـر الغزال في سنة ١٢٨٦هـ /١٨٦٩م قام الزبير بتقديم المؤن و المساعدات المالية بناءاً على مكاتبات تمت بينه و بين حكمدار السودان آنذاك جعفر مظهر (٣) .

و لما وقعت الحرب بينه و بين الشيخ الهلالـي فـي سـنة ١٢٨٦هـ /١٨٦٩م أرسل تقريراً إلى الحكمدارية يعتذر و يتأسف لما حدث و يطلب منها لجنـة للتحقيـق في الحادث حتى يثبت للحكومة العثمانية في مصر براءة ساحته و أن الشيخ الهلالـي هو المعتدي وأنه (أي الزبير) ما زال تحت طاعة الحكومة (٤).

و بعد مقتل الشيخ الهلالي كان لابد للحكمدارية (٥) أن تتعامل مع الواقع الـذي فـرض نفسـه و هـو أن الزبـير أصبـح الحـاكم الفعلي لبحـر الغـزال بـلا منـازع ، وأضحى للحكمدارية أن تضمه إليها بالحسنى من أن تسعى إلـى ذلـك قسـراً ،فتخسـر المال و الرجال . فكتب إليه الحكمدار إسماعيـل باشا أيوب رسالة في سنة١٢٨٦هـ /١٨٦٩م يطلب فيها منـه الحضـور إلى الخرطوم للتبـاحث معه فـــي أمــــرتعيينـه

---

(١) الدفتر رقم (١٦) صـادر عـابدين ، تلغرافـات شـفرة تركـي ص (٥/١٠، ١١/١٣٠٦/٧) تلغراف رقـم (٧٠) في ٢٩ من رجب سنة ١٢٩٠هـ /١٩من سبتمبر سنة ١٨٧٣م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٥ .

(٣) سعد الدين الزبير - الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٤٨ .

(٤) الدفتر رقم (١٨٦٤) وارد عابدين معيـة سنية، المكاتبـات ، ص (٣٨) المكاتبـة رقـم (٤) فـي ٢٥ شـعبان سـنة ١٢٨٩ هـ /٢٥ من أكتوبر ١٢٧٢م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٥) كان الحكمدار في الخرطوم في ذلك الوقت جعفر باشا مظهر .




مديراً على بحر الغزال بشروط تراها الحكمدارية فوافق الزبير على ذلك وأخذ في الإستعداد للسفر إلى الخرطوم (١) وفي هذا الأثناء نقض عربان الرزيقات العهد الذي كان بينه و بينهم و قطعوا الطريق وأشاعوا الفساد ، هنا قرر الزبير محاربة هذه القبيلة و إخضاعها لسلطة الحكمدارية ، و قد إستلزم هذا عدول الزبير عن السفر إلى الخرطوم ، وحتى لا يتهم بالتباطؤ في تنفيذ أوامر حكمدارية السودان أرسل مندوباً عنه إلى الحكمدار محملاً بالهدايا مع رسائل إعتذار عن التأخير الذي إضطر إليه لمحاربة قبيلة الرزيقات، و بسط الأمن في تلك الجهات (٢)

و بعد أن إنتصر الزبير على عربان الرزيقات أرسل في ١٢٩٢هـ /١٨٧٣م تقريراً إلى حكمدار السودان ضمنه خبر إنتصاره و تأمين طريق التجارة المار بشكا و طلب أسلحة وعساكر منتظمة على أن يرسل بدلاً منهم عساكر مستجدة . كما طلب من الحكمدار أن يرسل من يراه أهلاً لذلك ليحكم مناطق شكا و بحر الغزال نيابةً عن الحكومة العثمانية في مصر ، وذلك لكي يتفرغ الزبير لتجارته ، و قد تطوع الزبير بتنازله عن المبالغ التي صرفها في هذه الحروب مكتفياً فقط بالتكريم الأدبي من الحكومة العثمانية و رجال الحكمدارية في الخرطوم (٣) وهذا لعمري قمة الإخلاص والتضحية بالمال في سبيل الصالح العام و قد وضعت خطة ضم دارفور في١٢٩٢هـ /١٨٧٤م بالإشتراك بين جيش بحرالغزال بقيادة الزبير، وجيش

---

(١) الدفتر رقم (١٦) صادر عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ص (٢٦/٥٢، ٢٦/٥٣) التلغراف رقم (٣٤٦) في ٨ شوال سنة ١٢٩٠هـ /٣٠ من نوفمبر ١٨٧٣م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم (٢١) وارد عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ص (٨/٥٥ ، ٨/٥٦) التلغراف رقم (٣٣٣) نهاية شعبان سنة ١٢٩٠هـ ٢١من أكتوبر سنة ١٨٧٣م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٦،٥

نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٧٣ .




الحكومة العثمانية بقيادة اسماعيل أيوب على أن يبدأ الزبير زحفه من الجنوب و في الوقت نفسه يزحف جيش الحكمدارية من الشرق حيث يلتقي الجيشان في دارا (١) ثم يواصلان زحفهما إلى الفاشر عاصمة الدولة الفوراوية ، ولكن لأمر ما أبطأ الحكمدار إسماعيل أيوب في الزحف فتعرض جيش الزبير لحصار شديد في مدينة دارا فاستنجد الزبير بالحكمدار طالباً منه الإسراع وتخليصه من الحصار فرد عليه الحكمدار برسالة طلب فيها من الزبير محاولة رفع الحصار عن نفسه والحضور بجيشه في دارا .

و لعل الحكمدار رأى أن الزبير قد تسرع و أن هذا التسرع مقصود لذاته حتى لا يعمل الزبير تحت إمرة الحكمدار مباشرة ، أو أن الزبير أراد أن يحرز قصب السبق وحده فيفوز بما يترتب عليه من إكرام أدبي و مادي .

و على الرغم من موقف الحكمدار هذا والزبير في هذا الموقف الحرج فإن الزبير عندما دخل الفاشر أرسل رسولاً إلى الحكمدار في مدينة فوجة يستحثه على الحضور إلى الفاشر و يؤكد أن تأمين طريق الحكمدار من مسئولية الزبيرالشخصية (٢) فلما وصل الحكمدار إلى الفاشر استقبله الزبير إستقبالاً يليق بعظمة الدولة العثمانية التي يمثلها ، حيث أُستقبل الحكمدار بما يستقبل به القادة الكبار من التعظيم و التشريف و الإجلال وذلك لشرف ومكانة الدولة التي يمثلها وأن هذا الفتح تم باسمها وتنفيذا لأوامرها ، وبعد ذلك قام الحكمدار بتهنئة الزبير وجنوده على هذا النصر ، و شكر لهم ما بذلوه من جهد و مال في سبيل إحرازه ، ووعدهم بأنه مقابل ذلك سيبذل أقصى وسعه فيما يسرهم و يرفع من شرفهم وقدرهم و لكن الأيام أثبتت أنه لم يف بما وعد به (٣) .

---

(١) الدفتر رقم (١٧) صادر عابدين ، تلغرافات شفرة عربي ص (٣)، ١٢، ١٢/٢٤) التلغراف رقم ١٣٨ في ٢٤ من ذي الحجة سنة ١٢٩٠هـ الموافق ١٥ فبراير ١٨٧٤ م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ١٦

(٣) الدفتر قم ٥ معية سنيه عربي وارد إفادات ص ٢٣ مكاتبة رقم ٥ حرر في غرة شوال سنة ١٢٩١هـ / ١١ من نوفمبر ١٨٧٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




و ربما يرجع عدم وفاء الحكمدار بما وعد به إلى ما إنطوت عليه نفسه من منافسة تبدأ عادة بين القرينين ثم تتطور إلى حقد على الآخر خاصة إذا كان المتفوق رجلاً عظيماً كبير النفس مثل الزبير . و بعد أن إنتهت تلك الإحتفالات أرسل الحكمدار الزبير في سنة ١٢٩١هـ /١٨٧٤م لملاحقة الأمير حسب الله المتحصن بجبل مرة ، فامتثل الزبير للأمر لتنفيذ أوامر الحكمدار و هناك إتفق الزبير مع الأمير حسب الله على أن يتولى الأمير سلطنة الفور باسم الحكومة العثمانية بشرط أن يدفع لها مائة ألف جنيه سنوياً ، ولكن عندما حضرا أمام الحكمدار رفض هذا الحكمدار الإتفاق(١) غير عابئ بكلمة الشرف التي أعطاها قائد عظيم مثل الزبير للأمير حسب الله ، فعرّض شخص الزبير و كرامته للإهانة أمام الأمي حسب الله ، و عظماء رجاله ، مما أجج نيران البغض و الكراهية في نفس الزبير و قواده على هذا الحكمدار ، كل هذا و الزبير محتسب صابر مظهراً للطاعة ممتثل لتنفيذ أوامر الحكمدارغير أنه إعترض على الضرائب الباهظة التي فرضها هذا الحكمدار على سكان دارفور فطلب منه الحكمـــدار عدم التدخل في سياسته و التوجه إلى بحر الغزال مقر ولايته ،فأمتثل الزبير للأمر (٢) ، لكنه أمام ديكتاتورية حكمدار السودان العمياء واتته فكرة الذهاب إلى القاهرة لمقابلة السلطان العثماني و رجال دولته والتفاكر معهم في إدارة الأراضي التي فتحها و تلك التي يمكن أن يفتحها باسم الحكومة العثمانية ولكن الحكومة االعثمانية استصوبت بقاءه في القاهرة درئاً لأي محاولة يمكن أن يقوم بها الزبير في سبيل الإستقلال عن مصر إذ أن الحكومة العثمانية لم تبادله الثقة المطلقة التي كان يضعها هو فيها .

---

(١) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ١٦
نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨١ .

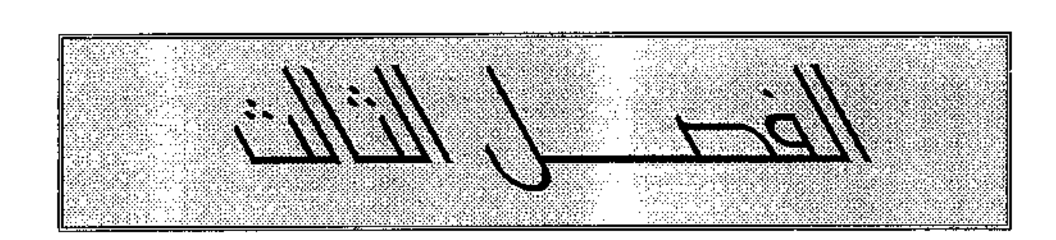
(٢) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ١٧ .
نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٢ .

و هكذا ظل الزبير حريصاً كل الحرص على بقاء علاقاته قوية مخلصة مع الحكومة العثمانية في مصر بامتثاله لكافة أوامر و نواهي حكومة الحكمدارية في الخرطوم اعتقاداً منه بأن الحكمدارية هي ظل الحكومة العثمانية في مصر التي تحكم باسم الدولة العثمانية التي هي محط رجاء المسلمين كافة ، فالإمتثال و الولاء و الإخلاص للحكمدارية و الحكومة العثمانية في مصر والدولة العثمانية في نظر الزبير أمر واحد لا ينفصم كالرباط الذي يربط الحكمدارية والحكومة العثمانية في مصر و بالدولة العثمانية في استنبول .

فالولاء و الإخلاص للدولة العثمانية و ممثليها ظل عقيدة ثابتة عند الزبير ألزم نفسه بالمحافظة عليها حتى آخر يوم من حياته .







الفصل الثالث

الفصل الثالث :

الزبير وتجارة الرق

المبحث الأول : مدخل مقارنة الرق عند الأوروبيين وعند المسلمين .

أ ـ الرق عند الأوروبيين

ب ـ الرق عند المسلمين

المبحث الثاني:

تجارة الرق في السودان في العهد العثماني

المبحث الثالث :

جهود الحكومة العثمانية في مصر لإلغاء الرق في السودان .

المبحث الرابع :

زيف الإتهامات التي ألصقت بالزبير حول تجارة الرقيق .

الفصل الثالث :

المبحث الأول : مدخل

مقارنة الرق عند الأوروبيين وعند المسلمين .

أ ـ عند الأوروبيين .

ب ـ عند المسلمين .




مقارنة الرق عند الأوروبيين وعند المسلمين :

أ/ الرق عند الأوروبيين :

تناولنا هذا المبحث و هو (تجارة الرقيق عند الأوروبيين) لأن هذه التجارة هي القضية التي من خلالها تغلغل النفوذ البريطاني في السودان خاصة و النفوذ الأوروبي في أفريقيا عامةً (١) كما أن إشتغال الأوروبيين بهذه التجارة المشينة فيه دفع للإتهام الموجه ضد العرب و المسلمين بأنهم وحدهم هم الذين يحملون وزر هذه التجارة اللاإنسانية و قد إتهم الإنجليز العرب المسلمين من أبناء الشمال السوداني بأنهم مارسوا هذه التجارة المشينة في جنوب السودان وإتخذوا من إخوانهم في الجنوب (٢) سلعاً تباع و تشترى و قد ترتب على هذه الدعاية الكاذبة آثار أضرت بمسيرة المجتمع السوداني نحو الحضارة و التقدم حتى اليوم (٣) .

إن الرق و الإتجار فيه عمل عرفته كل الشعوب بلا إستثناء و كان لكل أمة أو شعب مفاهيم خاصة حول الرق و طرق الحصول عليه ، و معاملته ، و الأعمال التي يؤديها . فأوروبا كانت تحكمها مفاهيم خاطئة كثيرة بعيدة عن الشرائع الربانية (٤) و كنتيجة حتمية لهذه المفاهيم الخاطئة كان تعاملها مع قصة الرق سلسلة من الأخطاء مع غيرها من الشعوب ، و حتى عندما أفاق الأوروبيون ، و أرادوا معالجة هذه القضية جاءت معالجتهم أخطاء أخرى جسيمة في حق الشعوب البريئة المقهورة (٥) ، ففي الوقت الذي نجد فيه الإسلام قد وضع للرق مفهوماً واضحاً

---

(١) زاهر رياض ـ الاستعمار الأوروبي لافريقيا في العصر الحديث جامعة القاهرة .

(٢) GESSI R , SEVEN YEARS IN THE SUDAN P. 199 MARSTON AND COMPANY , LONDON 1968 .

(٣) قصدنا بها مشكلة جنوب السودان و هي مشكلة حواجز نفسية غرسها الإستعمار بين أبناء الشمال العربي وأبناء الجنوب الزنجي نتيجة للفوارق الثقافية والمادية التي صنعها الإستعمار بنفسه ثم إستغلها لإثارة الكراهية والحقد بين أبناء الوطن الواحد ، فما زالت الحرب تدور بسبب هذه المشكلة حتى اليوم .

(٤) محمد قطب : شبهات حول الإسلام ص ١١ ـ دار الشروق ١٣٩٣هـ /١٩٧٣م .

(٥) صلاح حامد : السياسة البريطانية و مشكلة جنوب السودان ص ٥٨ . رسالة ماجستير جامعة أم القرى ١٤١٢هـ .



وعمل جاهـداً للتخلص منـه عبـر منافـذ عـديدة مع تضييق مداخله نجـد أن الديانـات و المذاهب الأوروبية قد عجزت عـن أن

تقر شيئاً مؤثراً تجاه قضية الرق مقارنة بمـا جـاء بـه الإسـلام ، بـل أكـدت المفـاهيم الخاطئة التي تصب في مصلحـة الحضـارة الأوروبيـة الماديـة ، لذلـك مـرت قضيـة الـرق في أوروبا بمـراحل عـديدة ، واحتاجت أوروبـا قرونـاً عـديدة حتـى تخلصـت مـن الرق .

أما مفهوم الرق في الحضارة الأوروبية فترجع جذوره إلى فترات موغلة فـي القدم حيث عُرف الرق و الإسترقاق رغم بشاعته في نظر الإنسان المتحضر ، ومـن العجب أن الإنسان المتوحـش البدائي لم يعـرف الرق مـن قبل (١) .

إن الحضـارة الأوروبية التي إنبعثت من اليونانيـة القديمـة نشـأت علـى أسـاس مادي بحت بحيـث إنقسم المجتمـع إلـى طبقتيـن : طبقـة الأحـرار المالكـة ، و طبقـة الفقراء الذين لا يملكون ، والذين قضى قانون المدنية آنذاك باسترقاقهم(٢) وإسـترقاق من يرتكبون أفعالاً تخل بالنظام السياسـي والإحتمـاعي فـي المدينـة و إستمرت هـذه القوانين تحكم المجتمع حتى عصر النهضة ، حيث بقي الأرقاء محرومين من أبسط مقومـات الإنسـانية لا حـق لهم فـي الحيـاة أو البقـاء إلا بـإرادة سـادتهم الأغنيـاء والأشراف و الأمراء . حتى حقهم في الزواج كان مرهوناً بإرادة سادتهم الذين كانوا غالباً ما يرون أن تزاوج الرقيق يؤدي إلى تكاثره (٣) و بالتالي يؤدي إلـى مزيـد مـن الربح كأية سلعة تجارية أخرى .

---

(١) عبدالسـلام الترمـانيي : الـرق ماضيـه وحاضـره ص ١٥ . الكويـت المجلس الوطني للطباعـةأة والفنـون والآداب ١٩٧٩ م .

(٢) عبدالسلام الترمانيني : الرق ماضيه و حاضره مرجع سابق ص ١٦ .

(٣) المرجع السابق ص ١٦ .





أما اليهود فمفهوم الـرق عندهـم يقـوم علـى إسـتعلاء العنصـر اليهـودي علـى غيرهم من سـائر البشـر ، وأنهـم شـعب اللـه المختـار ، و أن اليهـودي إذا وقـع فـي الأسر فله قيد زمني محدد يسترد بعده حريته أما غير اليهـودي فمـن حـق اليهـود إسترقاقهم لأن الله خلقهم عبيداً لهم حسبما يعتقدون و كما جاء في تلمودهم(١).

أما المسيحية فقد تطور مفهوم الرق وفقاً للتطورات التـي إعترت المسـيحية نفسها في أوروبا ، فكانت المسيحية في أيامها الأولى بعد أن بُعث سيدنا عيسى تدعو المؤمنين بها إلى الخير و معاملة الآخرين معاملة حسنة مخالفةً بذلـك مفـاهيم اليهـود التي تدعو إلى العنصرية و الإساءة إلى غير اليهـود (٢) فمـا كـان مـن اليهـود إلا أن نقموا على هذه الدعوة المخالفة فتعاونوا مع الطبقات الأرستقراطية (٣) فـي الشـعوب الأخرى كا لرومان و غيرهـم على التحلل مـن هـذه المفاهيم حتى أدت إلى إباحـة الإسترقاق عند الشعوب النصرانية ، فدعا القديس الشهير بولس (٤) العبيد إلى طاعـة سادتهم و الإخلاص لهم و التفاني في خدمتهم و بذلك أصبح الرق عندهم نظاماً إلهيـاً ساندته الكنيسة بكل قوتها .

و عندما إتجهت أوروبا في القرن العاشر الهجري ، السادس عشـر الميـلادي إلى أسترقاق زنوج أفريقيا و نقلهم إلى مستعمراتها في أمريكا و الهند وقفت الكنيسـة تعضد ذلك العمل الشائن مُدّعيةً أن نوحاً عليه السلام لعن إبنه حامـا و دعـا ربه بأن

---

(١) عبد السلام الترمانيني - الرق ماضيه وحاضره - مرجع سابق ص ٣٠ .

(٢) عبدالسلام الترمانيسي : الرق ماضيه و حاضره مرجع سابق ص ٢٩/ ٣٠

(٤) القديس بولس من أشهر دعاة المسيحية ومن كبار قديسيها ، و لد بين السنة الخامسة و الخامسة عشـرة للميـلاد من أبوين يهوديين و اعتنق المسيحية و طـاف ينادي بهـا فـي بـلاد الإمبراطوريـة الرومانيـة و تعتـبر تعاليمـه من دعائم الديانة المسيحية ، مات سنة ٦٧ للميلاد .يعتبره المسيحيون من الشهداء . المرجع السابق ص ٣٠ .

(٣) الطبقات التي تملك النفوذ من حيث السلطة والمال .



يجعله هو و أبناءه عبيداً لأخويه سام و يافث (١) و لكن يبدو أن الكنيسة كانت تهدف من وراء هذا التأييد إلى جمع الأموال حيث عملت على تعميد الرقيق المنقول ليصبح مسيحياً وتتطهر روحه، ففرضت رسماً محدداً من المال على كل رجل أو إمرأة ما عدا الأطفال (٢) و أطلق على هذا الرسم ضريبة التعميد (٣) وبذلك جمعت الكنيسة أموالاً طائلة .

كما استفادت الكنيسة أيضاً من نقل المسترقين في خدمة املاكها في المستعمرات الجديدة فيما بعد .

بدأ البرتغاليون تجارة الرقيق في أفريقيا في منتصف القرن العاشر الهجري ـ السادس عشر الميلادي ثم تبعهم الاسبان (٤) ثم الانجليز والفرنسيون والدنماركيون والسويديون والالمان ثم الهولنديون (٥) وكان لدخول الاسلحة الحديثة في افريقيا أثرها في انتشار هذه التجارة وقد فقدت افريقيا بسبب هذه التجارة ما يقارب الثمانين مليون من أبنائها (٦) .

وفي أواخر القرن الثامن عشر الميلادي بدأت أوروبا في وقف هذه التجارة والعمل على تحرير الارقاء حيث وافق البرلمان الانجليزي في عام ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٨م على تحريم تجارة الرقيق وحذا حذو بريطانيا كل من السويد التي أبطلت الرق ما بين عامي ١٢٦١ ـــ ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦ ـــ ١٨٤٧م وفرنسا والدنمارك في عام ١٢٦٣هـ/١٨٤٨م وهولندا في عام ١٢٧٧هـ/١٨٦٢م ثم تلتهم اسبانيا والولايات المتحدة الامريكية (٧) .

---

(١) عبد السلام الترمانيني : الرق ماضيه وحاضره مرجع سابق ص ٣٠ .

(٢) أحمد محمد عطية : دفاع عن الزنوج مرجع سابق ص ٣٢ .

(٣) عبد السلام الترمانيني : الرق ماضيه وحاضره مرجع سابق ص ١٥٨ .

(٤) أحمد محمد عطية ـ دفاع عن الزنوج مرجع سابق ص ٣١ .

(٥) BASIL Dawson . Guide of Africa History . p 69 london 1971

(٦) زاهر رياض ـ استعمار افريقيا مرجع سابق ص ٧٠ .

(٧) السيد يوسف نصر ـ الوجود المصري في افريقيا مرجع سابق ص ٥٢/٥٣ .



المسلمون و تجارة الرقيـق :

للرق مفهوم محدد في الإسلام وهو ذلك الاسترقاق الذي جاء بعد حرب شرعية وقعت بين المسلمين واعدائهم غير المسلمين وهو الباب الوحيد الذي يقره الاسلام للمعاملة بالمثل مع الاعداء وما سوى ذلك لا يقرره الاسلام مطلقاً مهما كانت أسبابه ودواعيه وبذلك يصبح ما عرف في التاريخ الحديث بالرق والتجارة فيه أمراً منكراً وجريمة بشعة لا يقرها الاسلام حتى ولو مارسها المسلمون أنفسهم نتيجة لبعدهم عن منهج الإسلام .

ولكن كثيرون من مؤرخي الغرب و كتابه وصموا العالم العربي و الإسلامي بأنه منبع و مصدر تجار الرقيق في العصر الحديث و ذلك ليحولوا أنظار الأجيال الحديثة عن المآسي و المآخذ التي إرتكبتها أوروبا عبر تاريخها الطويل في حق الإنسانية و تلك الأفعال المشينة التي ارتكبتها أوروبا المتحضرة في حق كثير من شعوب العالم و خاصة شعوب أفريقيا و أمريكا ابان فترات الإستعمار المتلاحقة فانطبق على الغرب المثل العربي القائل (رمتني بدائها و انسلت) .

و قد كان للإعلام الأوروبي دوره البارز في تغيير كثير من حقائق التاريخ، حتى أصبحت الأخطاء التاريخية مسلمات عند كثيرين من الطبقة المثقفة في العالم العربي والإسلامي .

(ومن الحقائق التي بُدلت و غُيرت بدعايات مضللة كاذبة موقف الإسلام من الرق وتلك الدعاية المضللة وقع في شراكها كثيرون من أبناء العالم الإسلامي الذين لا يلمون إلماماً كافياً بحقائق الإسلام ، فأعتقدوا خطأً أن الرق وصمة عار في جبين الأمم الإسلامية وهم متأثرون بالشائعات المضللة التي نسبت ما اقترف في حق الشعوب السوداء من إسترقاق و معاملة وحشية بشعة إلى العرب المسلمين وحدهم فاستفظعوا أن يكون الرق أمراً يقره الإسلام وتمنوا لو أن الإسلام أراح قلوب معتنقيه و قلوبهم فنص على تحريمه بالقول الصريح)(١).

---

(١) محمد قطب شبهات حول الإســلام مرجع سابق ص ٣٤/٣٥ .




ومن المعروف أن الإسلام سد جميع منافذ الرق و أبقى باباً واحداً على سبيل الإختيار و هو باب الحرب لأسباب معقولة و مشروعة و جعل إسترقاق الأسرى من الأعداء (١) أمراً إختيارياً يراه إمام المسلمين أو لا يراه و ذلك ليوازن بهم أسرى المسلمين لدى الأعداء ، و بالإسترقاق الشرعي يصبح الرق مقيداً بقيود معنوية لاحسية الى أن يأذن الله له بفرج الحرية الإسلامية أو بفرج الفداء أو بفرج تبادل الأسرى (٢) .

لأجل هذا أبقى الإسلام هذا المنفذ مفتوحاً مع بيان فضله حين سد أبواب الرق الأخرى و التي ظلت قروناً طويلة موارد عظمى لنشر الرق في العالم ولابد من وقفة مع حقائق التاريخ لمعرفة أحوال الرقيق في غير العالم الإسلامي إذ بالمقارنة تبدو هذه القضية أكثر وضوحاً .

لقدمر بنا في صفحات سابقة من هذا البحث أن الرقيق عند الرومان لم يوضع في مصاف الإنسانية و إنما كان شيئاً لاحقوق له ، و في الوقت نفسه كان عليه كل ثقيل من الواجبات ، فقد كان الرومان يقومون بغزوات متعمدة لإسترقاق أبناء الجنسيات الأخرى لأجل إشباع شهوة إستعباد الآخرين لديهم و تسخيرهم لمصلحتهم فانتشر الرقيق في الحقول الرومانية يعملون و هم مصفدون بالأغلال الثقيلة خوف الفرار و يساقون بالسياط و يطعمون فقط لأجل الإبقاء على حياتهم و ينامون في زنازين أسوأ من حظائر الأبقار كما كانوا يساقون إلى الأعمال الثقيلة في أماكن أخرى (٣) .

وكان الروماني يجد متعته في مشاهدة حلقات المبارزة بالسيف والرمح بين الأرقاء و خاصة جين يقضي أحدهم على الآخر و خلاصة القول أن الرقيق عند الرومانلم يكن له أي حق ، بل الحق كل الحق في يد سيده الذي كان له مطلق الحرية في إستغلال عبيده و تعذيبهم إن هم نكصوا عن العمل و قتل من كان يرى أنه يستحق القتل دون أن يكون لهؤلاء العبيد حق الشكوى و دون أن تكون هناك جهة تنظر شكاواهم أو تعترف بها و كذلك كان حال الرقيق في كل من الهند وفارس و غيرها(٤) .

---

(١) محمد قطب ـ شبهات حول الإسلام ـ مرجع سابق ص ٥٤
(٢) المرجع السابق ص ٥٥
(٣) عبدالسلام الترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ـ مرجع سابق ص ٣٧
(٤) المرجع السابق ص ٥٥/٥٦




فجاء الإسلام و أحوال الرقيق كما وصفتُها فكان لابد أن يرد لهؤلاء البشر إنسانيتهم ، فقال تعالى للساده (بعضكم من بعض) (١) و قال رسول الله صلى الله عليه و سلم (أنتم بنو آدم و آدم من تراب) (٢) أي قرر وحدة الأصل والمنشأ والمصير و أنه لا تفاضل بين سيد و عبد إلا بالتقوى ، كما قال صلى الله عليه وسلم (ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي ، و لا لأسود على أحمر ، و لا لأحمر على أسود إلا بالتقوى) (٣) .

وبعد أن أكد الإسلام أن الرقيق بشر و أنه لظروف طارئة أصبحوا في هذا الوضع أمر بحسن معاملتهم فقال تعالى : (و أعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً و بالوالدين إحسانا و بذي القربى و اليتامى و المساكين و الجار ذي القربى و الجار الجنب والصاحب بالجنب وإبن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لايحب كل مختالاً فخورا)(٤)

كما أكد الإسلام أن الرقيق أخوة للسادة بقول رسوله الكريم (إخوانكم خولكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم و ليلبسه مما يلبس و لا تكلفوهم ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم) (٥) كما راعى الإسلام مشاعر الرقيق حيث وجه السادة بأن (لا يقل أحدكم هذا عبدي و هذه أمتي و ليقل فتاي و فتاتي) (٦) كذلك أكد الإسلام على حقوق الرقيق و أنه لا يسمح بإنتهاك كرامتهم أو إنسانيتهم فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم : (من قتل عبده قتلناه ، و من جدع عبده جدعناه ، ومن أخصى عبده أخصيناه) (٧) ، و بذلك أصبح الرقيق في ظل الإسلام ذا حقوق حمت إنسانيته و كرامته و ليس (شيئاً) يهان و يستذل .

---

(١) الآية ٢٥ من سورة النساء .

(٢) أبو داود ــ كتاب الادب ، باب في التفاخر بالاحساب ٣٤٠/٣٩٩/٥ حديث رقم ٥١١٦ . ط عزت الدعاس وعادل السيد .

(٣) رواه الامام احمد في المسند عن صحابي مجهول ٤١١/٥ .

(٤) الآية ٣٦ من سورة النساء .

(٥) رواه البخاري ، كتاب الايمان ، باب المعاصي من أمر الجاهلية ١٣/١.

(٦) رواه مسلم في كتاب الالفاظ من الادب وغيرها ، باب حكم اطلاق لفظة العبد والامة والمولى والسيد .

(٧) رواه ابوداود في كتاب الديات ، باب من قتل عبده أو مثل به أيقاد منه ؟ ٦٥٢/٤ ــ ٦٥٣.




و الإسلام الذي رفع الرقيق إلى مستوى الأخوة الكريمة واقعاً لاقولاً و مثلاً فحسب حتى شهد التاريخ (الذي لم ينكره أحد حتى الصليبيون المتعصبون من أهل أوروبا بأن معاملة الرقيق في صدر الإسلام بلغت حداً من الإنسانية الرفيعة لم تبلغه في أي مكان آخر. حداً جعل الرقيق المحررين يأبون مغادرة سادتهم السابقين ـ مع أنهم يملكون ذلك بعد أن تحرروا إقتصادياً وتعودوا على تحمل تبعات أنفسهم ـ لأنهم يعتبرون أهلاً لهم يربطهم بهم ما يشبه روابط الدم (١) ، بل إن دولاً و سلطنات قامت على كواهل الرقيق كدول المماليك في مصر و العراق و الهند و هذا يدل على الفرص كانت متكافئة بين الأحرار و الأرقاء في أغلب الأحوال و لو إتبع الخلف طريق السلف لما شهد العالم الإسلامي تجارة الرق المخالفة لنصوص الشريعة وروحها و لانحسر الرق بمضي الزمن ولشهد نهايته في المجتمعات الإسلامية .

و لقد استن الصحابة ومن بعدهم التابعين بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم في حسن معاملة الموالي حتى أصبح أكثرعلماء القرن الأول من الموالي أمثال سليمان بن يسار و نافع مولى عبدالله بن عمر و ربيعة الرأي و مجاهد بن جبير و عكرمة مولى إبن عباس و عطاء بن رباح و محمد بن مسلم و سعيد بن جبير والحسن بن يسار و محمد بن سيرين و يزيد بن أبي حبيب في مصر (٢).

و قد أثبت التاريخ حسن المعاملة و المكانة الرفيعة التي وصلها الرقيق في المجتمع العربي و الإسلامي في كافة عصوره التاريخية المختلفة إبتداء بعصر النبوة و الخلافة الراشدة ثم عهد بني أمية و عهد بني العباس و العهد الأموي في الأندلس و الخلافة العثمانية حتى أن كثيراً من الخلفاء في بعض العصور الإسلامية من أبناء الجواري (٣) .

---

(١) محمد قطب شبهات حول الإسلام ص ٣٩ ـ دار الشروق ١٣٩٣هـ ./ ١٩٧٣م مرجع سابق .

(٢) ابن سعد / محمد بن سعد بن منيع الزهر ت ٢٣٠ هـ ـ الطبقات الكبرى ج٧ ص ١٩٣ وما بعدها ـ دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٣٧٧هـ / ١٩٥٨ م . (٣)عبدالسلام الترمانيني : الرق ماضيه وحاضره ص ١٣١ .

الفصل الثالـــث :

المبحـث الثانــي :

تجارة الرقيق في السودان في العهد العثماني



تجارة الرقيق في السودان في العهد العثماني :

عرف العالم تجارة الرقيق منذ القدم و جاء الإسلام فسد منابع الرق جميعها إلا منبع الحرب فإنه أبقاه على سبيل الإحتياط لا اللزوم و فتح في الوقت نفسه أبواباً كثيرة متعددة لتحرير الرقيق .

ومما لاشك فيه أن تجارة الرقيق التي إنتشرت وراجت منذ العصور الوسطى و حتى أواخر القرن التاسع الميلادي لا تتفق مع روح الإسلام و نصوصه ، ومن وجهة النظرالإسلامية إن هذا الرقيق الذي بني على الخطف و المتاجرة لا أساس له في الشريعة الإسلامية .

و قد عرف أهل السودان كغيرهم من شعوب العالم تجارة الرقيق منذ أزمان سحيقه ، كما عرف كثير من بلاد العالم السودان كمصدر للرقيق الأسود الذي يتميز بالقوة و النشاط و الصبر و إحتمال المشاق .

لذلك عندما وقّع العرب المسلمون معاهدة البقط مع ملك النوبة سنة ٣١هـ كان من أهم بنودها أن يدفع ملك النوبة عدداً من الرقيق سنوياً (١) .

و إتسعت تجارة الرقيق داخل المجتمع السوداني بين كافة طوائفه ، مسلمين وغير مسلمين عرب أو غيرعرب في الشمال أو الجنوب ، في الشرق والغرب فالكل مارسوا تجارته كما وقع الرق على كثير من القبائل الزنجية المسلمة وغير المسلمة على السواء ، و كان للرقيق أسواق رائجة في كل من شندي و سنار والفاشر و غيرها (٢) .

---

(١) البلاذري ـ أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ ـ فتوح البلدان ج١ ص٢٨١ تحقيق صلاح الدين المنجد ـ دار العدالة للطباعة والنشر القاهرة .

(٢) مدن سودانية مشهورة . نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ١٣٨.



و قبل أن يعرف السودان تجار الرقيق الأوروبيين كانت تجارة الرقيق تجارة داخلية متغلغلة في كيان المجتمع أي أنها أصبحت جزءاً من نمط حياته لا سبيل للتخلي عنها في الشمال أو في الجنوب ، و هي تختلف عن تجارة الرقيق في أوروبا فبينما كانت هذه التجارة في أوروبا موجهة لتحقيق أرباح طائلة على حساب حريات الأشخاص كانت في السودان أثراً مترتباً على الحروب، كان الهدف من تجارة الرقيق في السودان هو إستخدامه في المزارع أو المراعي أو البيوت و كانت القبائل عند الإغارة على بعضها تسترق من يقع في أسرها بغض النظر عن لونه أودياناته .

فعندما تغير قبيلة قوية كالبقارة أو البجة أو الأزاندي على قبيلة ضعيفة تسترق من تأسر سواء كان حراً أو رقيقاً في الأصل (١) فيصبح المأسورون رقيقاً لديها للإستخدام أو للبيع .

كما كانت هناك وسائل أخرى للحصول على الرقيق كبيع بعض الأهالي أبناءهم بسبب الضائقات المختلفة كالمجاعات و غيرها (٢) ، كما كانت بعض القبائل تبيع أصحاب الجنايات كالسارق و الزاني و غيرهما بعد أن تحكم عليهم بالرق جزاء ما إقترفوه من آثام (٣) .

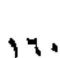
ولكن تجارة العبيد في السودان لم تبلغ مداها الواسع إلا بعد بداية حكم محمد علي باشا للسودان في سنة ١٢٣٦هـ/١٨٢١م لأن جلب العبيد كان من أهم أهداف محمد علي باشا في السودان و ذلك لدعم بناء القوى البشرية في الجيش ، فقبل أن يصل

---

(١) محمد عمر بشير : جنوب السودان ص ٤٩ ترجمة أسعد حليم القاهرة ١٩٧١م

(٢) حمدنا الله مصطفى حسن : التطور الإقتصادي و الإجتماعي مرجع سابق ص ١٥٠ .
الشاطر بصيلي : تاريخ و حضارة السودان مرجع سابق ص ٤٠ القاهرة ١٩٦٦م

(٣) مذكرات الزبير مصدر سابق ص ٤
نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٤ .

اسماعيل بن محمد علي إلى سنار طلب منه والده محمد علي باشا أن ينصب أحد مخلصيه قائداً للغزوات المصرية في السودان المنوط بها جمع الرجال الذين سيزود بهم محمد علي باشا جيشه(١) و بعد شهرين من دخول إسماعيل بن محمد علي سنار بعث محمد علي باشا في ١٢ من ذي الحجة ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م رسالة إلى الكتخدا (٢) في القاهرة أخبره فيها بوصول القافلة التي أرسلها إبنه إسماعيل مع حكمداره سليم أغا من السودان وهي نحو ألف وتسعمائة زنجي ، و ألفي جمل ، وألف رأس من البقر ، كما أمره فيها بأن يقوم أعوانه بفرز ذكور الزنوج الذين يصلحون للجندية و إبقائهم في بندر إسنا ، أما الباقون و هم الذين لا يصلحون للجندية والأطفال فيمكن إستخدامهم في أي من أعمال الخديوية (٣).

و عندما عرف محمد علي باشا قصور همة إبنه إسماعيل في حكم السودان وعدم إسراعه في تنفيذ أهدافه و خاصة إرسال الأعداد الوفيرة من الرجال السود بادر بإرسال إبنه إبراهيم باشا (٤) في عام ١٢٣٥هـ / أكتوبر ١٨٢١ م إلى السودان ليكون مسئولاً عن إرساء قواعد الإدارة المصرية الصحيحة في البلاد .

---

(١) مكي شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص ٣٢٩ .

(٢) الكتخدا : هو وكيل الباشا الوالي على مصر ، مقره في القاهرة .

(٣) مكي شبيكة ـ تاريخ شعوب واد النيل مرجع سابق ص ٣٣٠

(٤) وصل إبراهيم لسنار في ٢٢ من أكتوبر ١٨٢١م و أرسل من يصطاد السود من أعالي النيل حتى يرسلهم لوالده و لكن غزواته في أرض الدينكا بجنوب السودان لم تثمر عن أكثر من ستمائة أسيرو لم يطل المقام بابراهيم حيث أصيب بمرض الناسور رجع على أثره للقاهرة تاركاً كل السؤوليات لأخيه إسماعيل .




كما وجه همته إلى القيام بإرسال أكبر عدد من الرجال السود ليدعم بهم جيشه الجديد الذي ينوي إقامته في مصر . وقد أكد محمد علي لإبنه إبراهيم أنه لن يرسل إليه أية إمدادات من الجند إلا بشرط ، وهو أن يرسل إليه ثلاثة آلاف من الرجال السود مقابل كل ألف(١) جندي ألباني تركي يرسلون إليه .

أما الأطفال و النساء الذين يتم جمعهم فقد رأى محمد علي باشا أن يباعوا في الحجاز و يُشترى بثمنهم أرزاً وطعاماً للجيوش في السودان ، ثم أرسل محمد علي باشا رسالة إلى الدفتردار (٢) في كردفان في ٣ من صفر ١٢٣٧هـ / ١٨٢١م بعد أن وافته الأخبار بسيطرة الدفتردار على كردفان ، و قد إفتتح محمد علي رسالته بشكر الدفتردار و تقديره ، ثم حثه فيها على استخراج معادنها و ما ينفع من حاصلاتها ، ومعرفة كل ما خفي وجلى فيها كما نبهه إلى أن ما تجشمه من المشاق و مابذله من الأموال من أجل جلب الرجال السود بكثرة ووفره ومما جاء في رسالته (إن مطلوبنا هو أن تديروا الأمر على الوجه الذي تقتضيه غيرتكم و تستدعيه حميتكم ، فتبذلوا مزيداً من الجهد و قصارى العناية في تحري كل ماهو في سبيل جلبهم وإرسالهم مهما بلغ قدره و أن تنفقوا في سبيل تحقيق هذه الغاية ماتصل إليه قدرتكم) (٣) .

---

(١) رتشل هل : مصر في السودان ص ١١ .
HILL , R EGYPT IN THE SUDAN P. 11 .London 1958.

(٢) الدفتردار : محمد بك الدفتردار صهر محمد علي باشا و كان محمد علي أرسله على رأس حملة إلى كردفان و دارفور سنة ١٢٣٦هـ /١٨٢١م كما أرسل إبنه إسماعيل على رأس حملة سنار في السنة نفسها .

(٣) مكي شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص ٣٣٣ .




كما أخبره في رسالة أخرى بعث بها إليه في هذا التاريخ بأنه علم أن كردفان مليئة بمناجم الحديد الجيد ، و هو الآن مشغول بإعداد الأوسطوات المهرة (١) لإرسالهم إلى كردفان لبناء الأفران و إستخراج الحديد و الجبس ثم حذره من أن يشغله إستخراج المعادن عن واجب أرسال العبيد أو أن يضيع الوقت في جلبهم أو أن يتكاسل في صرف الطاقة في سبيل تحقيق هذه الواجبات (٢) كما أرسل رسالة تالية إلى هذا الدفتردار في ١٥ من ربيع أول سنة ١٢٣٧هـ أكد فيها على ما جاء في رسالتيه السابقتين و هو الحث على إرسال المزيد من الرجال السود (٣) ، كما بعث إليه في رجب سنة ١٢٣٣هـ رسالة ذكر له فيها أنه رأى أن يرتبط مع حاكم دارفور باتفاق يسمح بجلب الرجال السود و إستخراج المعدن ، كما ذكر له أنه أرسل إلى حاكم دارفور رسالة مع أحمد بك (أحد المماليك الأمراء) بخصوص ذلك ، و على الدفتردار أن يقبل النظام الذي يقرره حاكم دارفور ، عليه أن يبذل جهده في إستخراج النحاس و جلب العبيد (٤) .

كذلك بعث محمد علي باشا في ١٩ من ذي القعدة سنة ١٢٣٧هـ برسالتين إحداهما للدفتردار بكردفان و الثانية إلى إسماعيل باشا بسنار إستحث فيهما كلاً منهما على إرسال الرجال السود (٥) ، كما أشار إلى أماكن تواجدهم (٦) و أكد لكل منهما أن تكنات أسوان و فرشوط قد إكتسبت نظامها ولم يبق غير ورود الرجال السود الذين طلبهم (٧) .

---

(١) الأوسطوات : جمع أوسطى ، و الأوسطى هو الفني الماهر { المعلم }.

(٢) مكي شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص ٣٣٤.

(٣) المرجع السابق و الصفحة نفسها .

(٤) مكي شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص ٣٣٦ .

(٥) المدر نفسه ص ٣٣٧/٣٣٨ .

(٦) الدفتر رقم ١٠ معية تركية (وثيقة ٣٤٠) في ١٩ من ذي القعدة سنة ١٢٣٧هـ /١٨٢١م دار الوثائق القومية القاهرة.

(٧) المصدر السابق .




ومن أجل الإهتمام بالجيش عملت الإدارة المصرية على تنظيم تجارة الرقيق بعد أن عقدت عليها الآمال باعتبارها مورداً يعتمد عليه في تكوين الجيش ، فأرسلت الحملات الحربية إلى الجهات الجنوبية و الشرقية لأسر الرجال السود وإرسالهم إلى مصر ، فعلى سبيل المثال كانت إحدى الحملات التي غزت الدينكا تتكون من ألفين من المشاة، والف من الفرسان ، يصحبهما أربعة مدافع ، وستمائة جمل ، وبعد خمسة أيام عادت الحملة و معها ستمائة و أثنان و عشرون من الرجال السود ، و ألف وخمسمائة من الثيران ، ثم تقدمت إلى بودون وقبضت على خمسمائة وستة و عشرين من الرجال السود و لكن كان أغلبهم جرحى و لم يصلح منهم للجندية إلا خمسة وسبعون أضيفوا إلى المجموعة الأولى و سيروا إلى مصر لينضموا هناك إلى الجيش (١) .

كما هاجمت هذه الحملة بعض المدن على الحدود الإثيوبية ففر الأهالي منها، فدخلت الحملة المدينة و أحرقتها و أسرت بعض الرجال و على الرغم من هذه المجهودات التي بذلتها هذه الحملة فإنها أعتبرت فاشلة لأنها لم تأسر سوى ألف وثمانمائة و خمسة و سبعين من الرقيق بينما أسرت بعض الحملات الأخرى أكثر من خمسة آلاف من الرجال السود (٢) .

و يبدو أن الأسرى كانوا يرسلون إلى مصر سيراً على الأقدام فيصلون إليها مرضى منهوكي القوى مما اضطر محمد علي أن يكتب لإبنه إسماعيل في إحدى رسائله(أن الغرض من مجيئكم إلى هذه البلاد هو الحصول على العبيد (٣) اللازم إبتغاؤهم وفق المطلوب، وإيصالهم إلى تكنات أسوان غير معرضين إلى الضياع والتلف وليس في نيتنا ولافي نظرنا غاية أعز من هذا الأمل ، كما هو

---

(١) د/ زاهر رياض : السودان المعاصر مرجع سابق ص ٦٩ .

(٢) زاهر رياض : السودان المعاصر مرجع سابق ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٣) تركنا اللفظ كما هو إحتراماً للنص و إن كان كلمة العبيد لاتمثل واقعاً شرعياً خاصة و إن القوى المؤثرة في السودان في ذلك الوقت كانوا قوى مسلمة .

ظاهر أن قيمة العبيد عندنا بمثابة قيمة الجواهر ، نظراً لمقتضى الوقت والحال ، بل هي أعز من تلك و أجل ، و المطلوب إرسال ستة آلاف من العبيد) (١).

وكان جلب الرجال السود من السودان يتم بطرق مختلفة منها الأسر والإختطاف و منها الشراء ، ومنها الحصول عليهم من القبائل كضرائب (٢) بدلاً من تحصيلها نقداً أو عيناً ، و كانت أولى هذه الطرق طريقة الصيد، فلقد كانت قوات محمد علي تهاجم القبائل السودانية في كل مكان و ذلك لإلقاء القبض على العدد المطلوب من العبيد السود ، و بعد ذلك يتم إرسالهم إلى مصر .

و يبدو أن طريقة الأسر والإختطاف التي اتبعتها قوات محمد علي في بداية الأمر أضرت بالقبائل السودانية التي تعرضت لعمليات الهجوم ، فمن المرجح أن الأعداد التي كانت تنجو من القبض كانت تفر هاربةً إلى المناطق النائية لكي تنجو بحياتها و كانت القبائل التي لا تقوى على صد هجوم تلك القوات تفر هي الأخرى بمجرد أن تسمع عما حدث لغيرها من مخاطر . و حتى لا تلقى المصير الذي لقيته القبائل الأخرى و ربما ترتب على ذلك تدهور في أحوال البلاد الإقتصادية والإجتماعية زيادةً على إنتشار الفوضى و الذعر في أرجائها (٣) .

و عندما علم محمد علي بالأضرار التي ترتبت على عمليات أسرالرجال أو إختطافهم و ما أدت إليه من أضراربالغة أصابت كيان البلاد بالخلل قرر إلغاءها

(١) محفظة ٣ ، معية سنية ، الدفتر رقم ١٠ معية تركية ، وثيقة ٣٤٠ في ٩ من ربيع الأول سنة ١٢٣٧هـ /١٨٢١م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) فرض الدفتردار على قبائل كردفان تقديم ثلاثة آلاف من الرجال السود إلى الحكومة المصرية كضريبة كما فرض إسماعيل باشا عدداً آخر على المك نمر ملك الجعليين . الجعليون ينطقون (المك) بحذف اللام بدل الملك والمصادر السودانية تكتبها المك .

(٣) السيد يوسف نصر : الوجود المصري الأفريقي ص ٣٨ .



واستبدالها بطريقة أقل ضرراً و هي طريقة الشراء ، فطلب من ناظر أسوان في ١٢٣٧هـ ـ ١٨٢١م أن يقوم بشراء العبيد السود و خاصة الذكور منهم من تجار الجلابة القادمين من دارفور (١) و أن يبادلهم الذكور بالإناث و يترك لهم النساء والمسنين و الصبيان .

وكان من نتائج عمليات الشراء هذه أن إزدحمت ثكنات أسوان بالرجال السود و لكن محمد علي لم يكتف بهذا القدر بل طلب من مامور جرجا في ١٢٣٧هـ ـ ١٨٢١م أ ن يقوم بشراء الرجال السود من الجلابة الذين يأتون إلى مديريته حتى و لو كانت أعمارهم لا تتعدى الثالثة عشرة و طلب منه أيضاً ألاّ يرسلهم إلى معسكرات أسوان و ذلك لإزدحامها بالعبيد (٢) .

و لم تقتصرطريقة الشراء على ماموري أسوان و جرجا فحسب ، بلقام بها أيضاً حاكم السودان و خاصة عندما طلب منه محمد علي أن يدفع أثمان المستعبدين من قيمة الضرائب المُحصلة من أصحاب السواقي (٣) .

و نتيجة لرغبة محمد علي الأكيدة و حرصه الشديد على جلب أعداد غفيرة من العبيد السود ليكونوا أساساً للجيش القويالذي ينوي تكوينه لبسط نفوذه في مصر و السودان و شبه الجزيرة العربية سواء أكان الحصول على العبيد عن طريق الغزو أم الشراء . فقد أدت هذه الرغبة إلى إزدهار تجارة الرقيق في مصر و شبه الجزيرة العربية و السودان الذي كان مصدراً للرقيق الأسود .

---

(١) المحفظة : معية سنية ، في ٤ جمادي الثاني ١٢٣٧هـ ـ ١٨٢١م دار الوثائق القومية بالقاهرة .
الدفتر ١٠ معية تركي ، في ٢٢ من رجب سنة ١٢٣٧هـ ـ ١٨٢١م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) محافظ أبحاث السودان : الدفتر ١٠ ، الوثيقة ٣١٨ معية سنية في ٢٥ من شوال سنة ١٢٣٧هـ ـ ١٨٢١م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) محافظ أبحاث السودان. الدفتر ٢٦ الوثيقة ٦ معية في ١١من جمادي الآخرة ١٢٤٢هـ ـ ١٨٢٦م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




وكانت هناك عدة قوافل للرقيق تأي من السودان تعرف الأولى منها بقافلة النيل الأزرق وكانت تبدأ رحلتها من سنار إلى شندي ثم تصل إلى أبي حمد ومنها إلى كرسكو فأسوان و تعرف الثانية بقافلة النوبة وكانت رحلتها تبدأ من المحس وتنتهي عند أسيوط ، و تعرف الثالثة بقافلة كردفان و تبدأ رحلتها من الأبيض إلى دنقلة أو الدبة ثم تصل إلى المحس فأسيوط و تعرف الرابعة و الأخيرة بقافلة دارفور وكانت تبدأ رحلتها من كوبي عبر صحراء ليبيا ثم تصل في النهاية إلى أسيوط عن طريق درب الأربعين (١) .

ومما زاد في ازدهار تجارة الرقيق في السودان فتح النيل الأبيض للملاحة والتجارة منذ نجاح حملات سليم قبطان ١٢٥٤ــ ١٢٥٦هـ / ١٨٣٩ ــ ١٨٤١م فاندفع إلى السودان المغامرون و المكتشفون والتجار من الأوروبيين والليفانتين (٢) الذين استفادوا من نفوذ قناصل الدول الأوروبية التي اشتركت في اتفاقية ١٢٥٥ ــ ١٢٥٦هـ / ١٨٤٤ ــ ١٨٤١م ومع أن الوالي عباس باشا كان قد نجح في وقف نزوح الأجانب إلى مصر في عهده فإن هؤلاء قد وجدوا في السودان ميداناً لنشاطهم (٣) وفي سنة ١٢٦٤هـ /١٨٤٩م ألغى الخديوي عباس إحتكار الصمغ الذي كان في يد الحكومةو كانت الحكومة قد إنصرفت قبل ذلك عن احتكار التجارة في مصر .

ونتيجة لإلغاء الحكومة احتكارها تجارة الصمغ إتجه كثير من الأوروبيين إلى الجنوب لجمع العاج والإتجار فيه ، ثم تحولوا إلى أسر الرجال السود لإسترقاقهم عندما نضبت موارد العاج وقل فيه الربح و لم يكن هؤلاء التجار من خيار القوم بل كانوا من السفلة المغامرين الذين وقفوا جهودهم على خطف الرجال السود محتمين بما كانوا يتمتعون به من امتيازات أجنبية .

---

(١) السيد يوسف نصر ــ الوجود المصري في أفريقيا ص ٥٠ .

(٢) الليفانيين : الشرقيين من أهالي الشام و غيرهم. (شرق البحر المتوسط) جون جنز.داخل افريقيا الجزء الثاني ص ٨٩ ــ اشراف حسن جلال العروي مكتبة الانجلو المصرية .

(٣) محمد فؤاد شكري : مصر والسيادة على السودان ص ٦٣ . دار الفكر العربي المعاصر



ومما ضاعف مسئولية الأوروبيين في هذا العمل أن قناصلهم شاركوا تجار الرقيق الأوروبيين في هذه التجارة لقاء بسط حمايتهم عليهم بعد أن ضعفت سلطة حكومة مصر في السودان حتى أنها أصبحت لا تتعدى جنوب الخرطوم ثم زالت نهائياً في الأجزاء البعيدة فظهرت الجماعات المسلحة و انتشرت الزرائب والمحطات التي كانت مخازن للمؤن والأسلحة و البارود و مستودعات للرقيق والعاج وأقفرت أقاليم واسعة من سكانها و عمّت الفوضى أرجاء السودان الجنوبي من جديد ، و أصبحت السلطة الحقيقية في يد هؤلاء التجار بفضل مابيدهم من سلاح و ما تحت نفوذهم من أعوان مدربين . ... (١) .

ومنذ عام ١٢٦٩هـ / ١٨٥٤م أصبحت التجارة في المسترقين هي السلعة الرئيسية في سوق الخرطوم بلا منازع بعد أن كان العاج يمثل هذه المرتبة . ففي هذا العام وبالقرب من غندكرو على بحر الجبل قتل تاجر العاج السرديني (فودي) وبعض رجاله فكانت هذه الحادثة سبباً في توسع تجار الخرطوم في استعمال الحراس .

وقد أغرت هذه التجارة عدداًكبيراً من أصحاب رؤوس الأموال الصغيرة من أهل الخرطوم ومتعددي الجنسيات عندما تنبهوا منذ عام ١٢٦٥هـ / ١٨٥٠م إلى ضخامة مكاسب رحلات العاج ، فبدأ جمع عظيم منهم يتجه الى الجنوب جرياً وراء الأرباح العظيمة والثراء ، و هذا ما دفع بالزنوج إلى رفع أسعار عاجهم فأدى هذا إلى إتجاه التجار و أصحاب رؤوس الأموال إلى تجارة الرقيق التي كانت نفقاتها تقل كثيراً عن نفقات العاج (٢) .

---

(١) زاهر رياض : السودان المعاصر مرجع سابق ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) د/ حمدنا الله مصطفى حسن : التطور الإقتصادي و الإجتماعي مرجع سابق ص ١٤٥ / ١٤٦.

وكثيراً ماكان هؤلاء التجار يتحالفون مع أحد الرؤساء المحليين للإغارة على القبائل المجاورة للحصول على الحبوب و الماشية التي يبادلونها فيما بعد بسن الفيل، وكان الأسرى الذين يؤتى بهم بعد هذه الغارات يصبحون عبيداً للتجار الذين ما لبثوا أن وجدوا فيهم تجارة رابحة (١) .

و لقد لجأ تجار المسترقين إلى إستئجار المناطق الجنوبية من الحكومة نظير مبالغ سنوية على أن يختص كل واحد منهم بمنطقة ، فكونوا بالإتحاد مع بعض الأجانب شركات كبيرة أنشأت لها قوات من الرجال و السفن مزودة بالسلاح والعتاد ، وممن برز في هذا الميدان من التجار الأجانب دي بوفو ، وأمبيلي الإيطاليين ،وبلزك الفرنسي ، وباركاولاقارو . و من المصريين السيد أحمد العقاد ، وموسى العقاد ، ومحجوب البوصلي ، عبدالحميد و أبوعموري ، ومحمد خير ، وإبراهيم و شنودة ، وغطاس ،وخورشيد أغا ، وقد تألفت من أبوعموري والبوصلي و كوشك على شركة ثلاثية إستأثرت بكل النفوذ في بحر الغزال ، في حين تألف من دي بوفو و شنودة و خورشيد أغا شركة ثلاثية أخرى حول غندكرو في بحر الجبل (٢) ،

وكانت فشودة و القلابات و الأبيض تختص برقيق دارفور و جبال النوبة وبحر الغزال و خط الإستواء و الحبشة ، و منها ينقل الرقيق إلى أسواق الخرطوم والمسلمية وودمدني و سنارو القضارف وكسلا و بربر وشندي و يصدر مايزيد عن حاجة البلاد عن طريق النيل و البحر الأحمر(٣) .

---

(١) محمد عمر بشير : جنوب السودان مرجع سابق ص ٣٤ .

(٢) زاهر رياض : السودان المعاصر مرجع سابق ص ٧٩ .

(٣) حمدنا الله مصطفى حسن ـ: التطور الإقتصادي و الإجتماعي مرجع سابق ص ١٥٠ .

هناك طريقتان لجلب الرقيق الأولى تعرف بالبحارة حيث يتوغل صيادو الرقيق في النيل الأبيض حتى يصلوا إلى أعاليه منتشرين في بلاد بحر الغزال وخط الإستواء (١) و الثانية تعرف بالنهاضة و هم الذين يغزون الجبال كجبال النوبة وجبال فازوغلي (٢) .

وخلاصة الأمر أن تجارة الرقيق في السودان انتشرت انتشاراً كبيراً في أول عهد محمد علي ثم أخذ محمد علي في أواخر أيامه ايقاف هذه التجارة وكبح جماحها وكذلك خلفاؤه من بعده ورغم ما بذلوه إلا أنها استمرت حتى نهاية العهد العثماني على يد الدولة المهدية .

---

(١) نعوم شقير ـ تاريخ السودان ـ مصدر سابق ص ٢٤٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٨ .




الفصل الثالث :

المبحث الثالث :

جهود الحكم العثماني في مصر لإلغاء الرق وتجارته في السودان




جهود الحكم العثماني في مصر لإلغاء الرق وتجارته في السودان .

سبق أن ذكرتُ في المبحث السابق أن المجتمع السوداني عرف تجارة الرقيق منذ عهود قديمة و أن هذه التجارة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من كيان المجتمع في الشمال و الجنوب وهذه التجارة بلغت أقصى حدها في العهد العثماني إذ أن سعي محمد علي باشا لإعداد جيش قوي جعل من أهدافه الأولى بعد ضم السودان جلب الرجال السود الأقوياء الذين يصلحون للجندية و قد تضمنت مكاتباته لأمرائه في السودان حثهم على إرسال أكثر أعداد ممكنه من الرجال السود ، فانطلق هؤلاء الأمراء مستخدمين ماتحت أيديهم من أسلحة فعالة لأسر الرجال السود تحقيقاً لأهداف محمد علي باشا ، أما الحملات الإستكشافية التي سيّرها محمد علي باشا إلى أعالي السودان و التيقام بها الضابط سليم قبودان بين عامي ١٢٥٣ــ ١٢٥٦هـ / ١٨٣٨ـ١٨٤١م لاستكشاف منابع النيل في جنوب السودان فقد كان لها أثر كبير في تنشيط تجارة الرقيق أثر فتح طريق النيل الأبيض أمام الملاحة و التجارة ، كما أن دخول التجار والمستكشفين الأوروبيين السودان أثر إلغاء محمد علي نظام الإحتكار الإقتصادي ، وإستتباب الأمن ، ووجود أسلحة حديثة فتاكة بالإضافة إلى حماية قناصل الدول الأوروبية لهؤلاء التجار و المستكسفين الأوروبين كل ذلك أدى إلى انتشارتجارة الرقيق في السودان بصفة خاصة وفي أفريقيا بصفة عامة.

و قد استمر محمد علي في إستغلال تجارة الرقيق الأسود منذ أن دخلت قواته السودان عام ١٢٣٦هـ / ١٨٢١م حتى عام ١٢٥٥هـ / ١٨٤٠م (١) ففي هذا العام

---

(١) محمد علي لم يكن يتاجر في الرقيق (أي لم يكن يشتري ليبيع) و إنما كان يشتري الرقيق للعمل في الجندية وهو أمر أدى بطريق غير مباشرإلى إنتشار تجارة الرقيق في كل من مصر و السودان .

مكي شبيكة ، تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص ص ٣٣٥/٣٣٦




أصبح في غير حاجة إلى المستعبدين و ذلك لعدة عوامل منها إبرام معاهدة لندن بين الدولة العثمانية من ناحية وبين الدول الأوروبية الكبرى (إنجلترا، روسيا ، النمسا) من ناحية أخرى (١) فقد أدى عقد هذه المعاهدة إلى أمرين عظيمين أولهما : تخلي محمد علي عن ممتلكاته في كل من سوريا و جزيرة العرب و كريت و إقليم أدنة ، و ثانيهما : تحديد عدد جيشه بثمانية عشر ألفاً من الجنود فقط (٢) ومن هذه العوامل أيضاً إلغاء نظام الإحتكار الإقتصادي الذي كان سائداً في مصر وملحقاتها في البلاد الأخرى (٣) .

وقد تزعمت بريطانيا حركة وقف تجارة الرقيق في أفريقيا بعد أن قُضي عليها في أوروبا مع أنها لم يكن لها نفوذ يذكر في أفريقيا في ذلك الوقت و قد طلبت بريطانيا من محمد علي أن يقوم بوقف تجارة الرقيق في أفريقيا لماله من نفوذ في هذه القارة ، ثم أرسلت إليه في عام ١٢٥٢هـ / ١٨٣٧م عضو البرلمان البريطاني جون بورنج (BOWRING) الذي طلب من محمد علي ضرورة العمل على إلغاء تجارة الرق في السودان ، و أخبره بأن ضباطه يقومون بتوزيع الرقيق على الجنود كمرتبات . فقال له محمد علي :إنه كان يعلم أن ضباطه يقومون بالإتجار في الرقيق مع أنه غير موافق على مثل هذه التصرفات ، ووعد العضو البريطاني في نهاية اللقاء بأنه سوف يتخذ من الإجراءات مايكفل وقف هذه التجارة (٤) .

---

(١) السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا مرجع سابق ص ٥٠ .

(٢) عبدالرحمن الرافعي : عصر محمد علي ص ٣٣٤ . دار المعارف القاهرة

السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا مرجع سابق ص ٥٠

(٣) د . أحمد الحته : تاريخ مصر الإقتصادي ص ٤٤ .

(٤) السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا مرجع سابق ص ٥٢ ـ ٥٣ .

فما كان من محمد علي بعد ذلك إلا أن أرسل إلى خورشيد أغا حكمدار السودان (١٢٤٦ ـ ١٢٥٧هـ / ١٨٣٦ ـ ١٨٣٧م) أوامره بمنع هذه التجارة ووقف غزوات النهاضة الموسمية .

و قد جاء في أحد أوامره (إنني لا أريد تجارة لا تشرفني و إني لعلى إستعداد لبذل كل تضحية إذا تطلب إلغاء هذه التجارة أية تضحيات من جانبي (١) كذلك كتب محمد علي الى حكمدار السودان يوضح له أن بريطانيا تستهجن هذا النظام أي تجارة الرقيق، و نظراً إلى أنه تربطه روابط صداقة متينة مع هذه الدولة وتقوم بينه و بينها علاقات وطيدة ومراعاةً لهذه الصلات والروابط و الصداقة ، فيجب الغاء نظام تجارة الرقيق و نظام إعطاء الجنود العبيد والجواري بدلاً من الرواتب والعلوقة ، وعلى الرغم من أن هذا النظام يعود على الميري (أي الحكومه) بفائدة إلاّ أنه مستعد لتحمل الضرر و الخسارة المترتب على هذا العمل لذلك فهو يطلب بصورة قطعية إلغاء هذا النظام (٢) كما طلب محمد علي باشا في رسالة أخرى بعث بها إلى حكمدار السودان عدم بيع الرجال السود بأي حال من الأحوال و إنما يجب إعادتهم إلى أوطانهم لأن بيعهم يثير ثائرة الأفرنج ويجعلهم يحملون عليه من جديد ، و حذر الحكمدار في نهاية رسالته من استمرار بيع الرجال السود ثم أنذره بأنه لو سكت عن إستمرار تجارة الرقيق فإنه لن يقبل منه عذراً مهما إعتذر أو تذرع بالذرائع كما طلب محمد علي باشا إطلاق سراح الرجال الذين تم بيعهم قبل صدور هذا الأمر و إلغاء هذا البيع كما أكد على الحكمدار بتشديد العقوبة على كل من يقوم ببيع أي رقيق أومسترق(٣) .

---

(١) السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا مرجع سابق ص ٥٢ ـــ ٥٣ .

(٢) مكي شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص ١١٩ .
السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا مرجع سابق ص ٥٣ .

(٣) مكي شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل مرجع ص ٤٧٩ .
السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا مرجع سابق ص٥٤ .

و لما علمت جمعية إلغاء الرق THE ANTI SLAVERY SOCIETY بالإجراءات التي إتخذها محمد علي أرسلت إليه رتشارد مادن RECHARD MADEN أحد أعضاء الجمعية لكي يقوم بتقديم الشكر إليه ، وكان برفقة مادن أثناء هذه المقابلة هودجز HODGES القنصل البريطاني في مصر ، و كان محمد علي قد أخبره بأن العمل على إلغاء الرق دفعه واحده يعتبر من الأمور الصعبة لأنه أصبح عادة متأصلة في كيان الأسر الإجتماعي حتى أنهم إذا لم يجدوا الرقيق متوفراً في الأسواق بادروا بالشكوى (١) .

أخذت مصر تتودد وتتقرب الى كلٍ من انجلترا وفرنسا منذ عام ١٢٤٧هـ/١٨٣٢م حين وقعت حرب الشام بين الباب العالي و محمد علي ورغم ذلك فإن هاتين الدولتين (٢) إتخذتا من مسألة الرق و سيلة للضغط السياسي على مصر ، وكان من العسير حقاً أن تقوم مصر بمحاولة تحرير الرقيق في السودان دفعة واحدةً بأوامر تفرض على المجتمعات السودانية دون أن تعطى الفرصة المتأنية لكي تتكيف مع النظام الجديد (٣) ، وحيث أخذ العالم يتخلى عن ممارسة الرق والإتجار فيه وحتى تتاح الفرصة للإدارة العثمانية لتهيئة المجتمع السوداني ليتقبل أمر إلغاء الرق فيتخلى عنه طواعية ودون إكراه .

وقد أخذت مسألة الإسترقاق هذه تتضاعف حتى صارت مصدراً شديد الخطر تمخضت عنه الأحداث و الفتن في السودان (٤) .

---

(١) مكي شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص ٤٧٩ .
يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا مرجع سابق ص ٥٣ .
يوسف نصر : الوثائق التاريخية للسياسة المصرية في إفريقيا ص ١٣١ .

(٢) بينما تدخلت إنجلترا مباشرة لدفع مصر إلى إلغاء الرقيق في السودان فإن فرنسا أخذت تراقب مسألة الرقيق بواسطة قنصلهافي القاهرة الذي كان يرفع التقارير إليها بصفة دورية .

(٣) الشاطر بصلي : معالم تاريخ السودان مرجع سابق ص ٥٦/٥٧ .
الدفتر ١٠ عابدين الوثيقة ١٢١ ص ١٧ في ٢٥ من المحرم ١٢٦٠هـ ــ ١٨٤٤م .

(٤) الشاطر بصلي : معالم تاريخ السودان مرجع سابق ص (١٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٧).

و في سنة ١٢٦٥هـ /١٨٤٩م ألغى الوالي عباس باشا احتكار الحكومة العثمانية في مصر لتجارة الصمغ ، وكان هذا نتيجة طبيعية لإنصراف الحكومة عن إحتكار التجارة في مصر ، و نتيجة لذلك إتجه كثيرون من التجار الأوروبيين والسوريين إلى الجنوب لجمع العاج و الإتجار فيه ثم تحولوا إلى أسر الرجال السود لإسترقاقهم وذلك عندما نضبت موارد العاج و قل فيه الربح (١) و لم يكن هؤلاء التجار من خيار القوم كما وصفهم كوهون القنصل البريطاني في مصر (سنة ١٢٧٦هـ /١٨٦٠م) بل كانوا من المغامرين الذين ماتت ضمائرهم إذ وقفوا جهودهم على خطف الرجال السود أو أسرهم محتمين بما كانوا يتمتعون به من إمتيازات أجنبية ولم تقتصر أعمال الإسترقاق على هؤلاء القراصنة فقد شاركهم القناصل الأوروبيون في هذا العمل القرصني بطريق المتاجرة فيه وذلك نظير بسط حمايتهم عليهم بعد أن ضعفت سلطة الحكومة العثمانية في الخرطوم .

وقد واجهت مصر هذا الصلف الأوروبي المتمثل في إزدواجية سياسته على المستويين الرسمي و الميداني بأن طالبت قناصل الدول الأوروبية بأن يرفعوا عن رعاياهم حماية التجار المشتغلين بإسترقاق الرجال السود وبيعهم و أن يكون للحكومة المصرية حق الرقابة القوية على تصدير الأسلحة و الذخيرة إلى السودان وبهذا تستطيع الحكومة القضاء على هذه التجارة في مواطنها و إضطر التجار الأجانب أمام موقف مصر القوي ومطالبتها القناصل بالتدخل لوقف نشاطهم المشبوه إلى بيع مؤسساتهم للحكومة العثمانية في مصر ، و قد قامت الحكومة المصرية بالإستيلاء على الزرائب و تعويض أصحابها (٢) وتبع ذلك إمتداد سلطان الإدارة المصرية نحو الجنوب و العمل على إحتكار التجارة في عهد الحكمدار

---

(١) زاهر رياض : السودان المعاصر مرجع سابق ص ٧٤

(٢) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ السودان مرجع سابق ص ١٥٧ .

عبداللطيف باشا و لكن التجار و قناصل الدول احتجوا لدى الوالي العثماني عباس باشا على هذا الاحتكارو طالبوه بالحرية التجارية ، فاستجاب لهم بإعلان حرية الملاحة في النيل الأبيض سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢م ، وتم نقل الحكمدار عبداللطيف إلى القاهرة غير أن هذا كله أدى إلى نشاط تجارة الرقيق من جديد (١) وكان نشاط هؤلاء التجار وعودتهم بقوة إلى تجارة الرقيق من الأمور التي مهدت بمرور الزمن لخروج أقاليم شاسعة من سلطان الحكومة العثمانية في مصر .

ولقد ضج السودانيون من الغزوات التي كان يرسلها من الخرطوم التجار الأوروبيون و العرب لخطف الرجال السود أو أسرهمفي جهات النيل العليا والجهات الواقعة على حدود المديريات السودانية ، فكان النخاسون يدمرون قرى الأهالي و يصادرون مواشيهم و يسترقون رجالهم و نساءهم و أطفالهم.

لذلك لم يكد الوالي العثماني سعيد باشا يجلس على أريكة الحكم في القاهرة عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م حتى وجد أن أول واجباته مكافحة تجارة الرقيق و إستجابة لدواعي الإنسانية من ناحية و حفاظاً على ممتلكات حكومته في أفريقيا من الضياع من ناحية أخرى ، كما كان من واجباته العمل على إزالة المساوئ التي جأر منها السودانيون بالشكوى كالضرائب الباهظة التي توقع شيوخ السودانيين أن يتخلصوا منها في العهد الجديد .

وفي نوفمبر عام ١٢٧٣هـ /١٨٥٧م قام الوالي العثماني سعيد باشا بزيارة للسودان بغية الوقوف مباشرة على مشاكله و العمل على حلها ، و عندما وصل مدينة بربر

---

(١) محمد فؤا شكري : مصر و السيادة على السودان مرجع سابق ص ٣٢ .

(٢) محمد فؤاد شكري : مصر والسيادة على السودان مرجع سابق ص ٣٣ .

أصدر أمره بإلغاء تجارة الرق في السودان ومن الطبيعي ألا يشمل تنفيذ هذا الأمر السودان كله بل ماخضع منه للإدارة المصرية فقط و هو الجزء الذي ينتهي غرباً بكردفان ، و جنوباً ببحر العرب ، وشرقاً بالهضبة الأثيوبية و ساحل البحر الأحمر ، و لقد كان من الضروري أن يؤمن الأهالي بمبدأ إلغاء التجارة الفاضحة ، وهو شئ لم يكن قد تم بعد (١).

وقد عمل الوالي العثماني سعيد باشا أثناء هذه الرحلة على حل كثير من مشاكل السودان وأصدر أوامره بتخفيف الضرائب ، و ألغى الإحتكار و نظم الإدارة ولكن هذه الإصلاحات لم تؤت أكلها لإنشغال سعيد بتثبيت دعائم حكمه في مصر والسودان بعدما تلبدت السحب في سماء السياسة الأوروبية عام ١٢٧٥هـ/١٨٥٩م (٢) فضعفت الإدارة المصرية من جديد في الخرطوم ، ونشط تجار الرقيق نشاطاً واسع النطاق ، وعاد النخاسون و الجلابون سيرتهم الأولى تحت سمع الحكومة وبصرها ، بل لقد كان مضيهم في هذه التجارة الشائنة راجعاً إلى تشجيع نفر من الحكام أنفسهم ، ولم تجد الجهود التي بذلها قناصل الدول في القاهرة والخرطوم لوقفها ومنع شرورها، ولقد أفاد تجار الرقيق من إنشغال سعيد عن مراقبة الأحوال السودانية ، فتألفت شركات تجارية من تجار الرقيق الذين أتخذوا من من صيد الفيل و الحصول على العاج ستاراً لنشاطهم المرذول ، و إستطاعت هذه الشركات أن تحصل من حكومة الخرطوم الضعيفة على حق الإتجار في مساحات شاسعة في بحر الغزال وجنوبي دارفور وكردفان (٣) .

---

(١) زاهر رياض : السودان المعاصر مرجع سابق ص ٧٨ / ٧٩ .

(٢) في عام ١٨٥٩ أثناء الأزمة الأوروبية فكر سعيد في الإستقلال فلم تسعفه الظروف ، فعمل على الإستقلال الذاتي وجعل وراثة حكم مصر في أصلابة .
شكري : مصر والسيادة على السودان ص ٣٦ . دار الفكر العربي القاهرة ١٩٤٦ م .

(٣) ضرار صالح ضرار . تاريخ السودان الحديث ص ٧٨/٧٩ بيروت ١٩٦٨ .

وبدون قصد شجع الوالي العثماني سعيد باشا نفسه تجارة الرقيق وذلك عندما أراد في عام ١٢٧٥هـ / ١٨٥٩م تشكيل حرس خاص من الرجال السود المسترقين ، فاتفق مع شركة السيد موسى العقاد وهي من أكبر البيوت أو الشركات العربية العاملة في تجارة الرقيق و العاج في النيل الأبيض ولكن الوالي نفسه وبعد عام واحد من تعاقده مع شركة موسى العقاد، أصدر سعيد في عام ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م قانوناً يحرم تجارة الرقيق في الأراضي الخاضعة لسلطانه و من بينها أراضي السودان ، غير أن تلك التجارة إستمرت على الرغم من صدور هذا القانون(١) .

وعندما تولى إسماعيل باشا حكم مصر في سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٣م كانت مشكلة الرق والنخاسة في السودان من أخطر المشاكل التي واجهته، كما أن جهات كثيرة في جنوب السودان كانت قد خرجت تماماً عن سلطة الحكومة الخديوية المصرية غير أن مشكلة الإسترقاق في السودان كانت من المشاكل الملحة التي تستدعي حلاً جذرياً حتى يستتب الأمن و يعم الرخاء كل البلاد الأفريقية ، فأضطر الخديوي إسماعيل إلى الإسراع في العمل على وقف هذه التجارة خاصة بعد أن تم القضاء عليها في معظم الدول الأورorبية ، غشرع في إتخاذ بعض الإجراءات التي يمكن بها القضاء على هذه التجارة الذميمة وأول هذه الإجراءات أنه أصدر تعليماته إلى حكمدار السودان ولإلى مديري المديريات والتي حثهم فيها على ضرورة العمل على عتق ما يملكه الجلابة من الرقيق الأسود ، ثم بعد ذلك يحصل هؤلاء الرقيق على شهادات عتقهم ، ثم يعودون بالتالي إلى أوطانهم تحت حماية الحكمدارية، وفي حالة عدم رغبة هؤلاء العبيد في الرجوع إلى بلادهم لخوفهم من وقوعهم مرة ثانية في أيدي الجلابة تعمل حكمدارية الخرطوم على إلحاقهم بالأعمال المختلفة شأنهم في ذلك شأن رعايا الحكومة المصرية ، كما أصبح من واجبات الحكمدارية أن تربي أولادهم وتزوج بناتهم (٢) .

---

(١) زاهر رياض : السودان المعاصر مصدر سابق ص ٧٨/٧٩ .

(٢) محمد فؤاد شكري : الحكم المصري في السودان مرجع سابق ص ٢٠٠ .

د/ السيد نصر ـ الوجود المصري في أفريقيا مرجع سابق ص ١٤٢ .



ومن الإجراءات التي اتخذها إسماعيل لوقف تجارة الرقيق أنه أمر بمصادرة المراكب التي تعمل في النيل الأبيض إذ ضبطت محملة بالرقيق ، وقد تم بالفعل ضبط سبعين سفينة تحمل رجالاً مسترقين في فترة قصيرة ، كما تم تحرير ماضبط من مسترقين (١) ، وفي الوقت نفسه أمر إسماعيل بتشديد الرقابة على سفن الشركة العزيزية المصرية التي تعمل في البحر الأحمر ، حذرهما من نقل المسترقين من سواكن ومصوع أو من أي ميناء آخر من موانئ البحر الأحمر إلى الموانئ الأخرى(٢) .

كما أرسل حملة عسكرية في عام ١٢٨٦هـ إلى منطقة أعالي النيل و ذلك لمهاجمة مراكز تجارة الرقيق في المنطقة الواقعة بين الخرطوم و غندكرو وعين على رأس هذه الحملة السير صمويل بيكر الذي زوده بسلطة مطلقة حتى يكون له الحرية في إتخاذ القرارات التي تتطلبها الحملة ، وكان من أهم أهداف هذه الحملة(٣)

١/ القضاء على تجارة الرقيق في منطقة أعالي النيل وتدمير مراكزها التجارية بالإضافة إلى إخضاع هذه المنطقة للسيادة المصرية .

٢/ تنظيم حركة التجارة المشروعة في هذه البلاد .

٣/ فتح طريق الملاحة بين النيل الأبيض و البحيرات العظمى .

٤/ تأسيس سلسلة من المحطات العسكرية و المراكز التجارية على الطرق الممتدة من الخرطوم شمالاً إلى بحيرة البرت جنوباً بحيث تبلغ المسافة بين كل محطة و أخرى مسيرة ثلاثة أيام .

---

(١) SHUKRY . THE KHEDAIWY ISMAIL AND SLAVERY IN THE SUDAN .P 93 .

(٢) محمد فؤاد شكري : الحكم المصري في السودان مرجع سابق ص ١٧٠ .

(٣) د/ السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا في الفترة من ١٨٢٠ ــ ١٨٩٩ م ص ١٤٣ ط١ دار المعارف القاهرة ١٩٨١م .




وقد تأثرت مجريات الأحوال في السودان بالأحداث التي ألمت بمصر خاصةً بعد إفتتاح قناة السويس في عام ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م مما هيأ للسياسة البريطانية فرصة الإنفلات من موقف الإنتظار و مراقبة تطور الظروف إلى العمل الجاد فبعد حفر القناة خشيت بريطانيا من الوجود الأوروبي عامة و الفرنسي خاصةً و الذي تعاظم في مصر فتقربت من الإدارة المصرية مستفيدة من التحول الدولي ضد تجارة الرقيق ، فضغطت على الخديوي في ذلك فعمل على إرضائها و الإستجابة لمطالبها فعين صمويل بيكر لإدارة خط الإستواء لأجل القضاء على النخاسة و ذلك في سنة ١٢٩٦هـ ـ ١٨٧٩م و لقد حارب بيكر تجارة الرقيق ، ونكل بهم ، و امتدت قسوته إلى الأهليين فزاد بعمله هذا كراهية الأهالي للإدارة المصرية حتى فقدوا ثقتهم بها، و ترتب على ذلك أن فقدت الحكومة الخديوية المصرية نفوذها ، وصارت القبائل تتربص برجال الإدارة المصرية ريب المنون ، وتتحين الفرص للفتك بهم (١) .

ومما لا شك فيه أن صمويل نجح في نشر روح التذمر بين الأهليين الذين صاروا يتطلعون إلى الخلاص من رجال الحكم المصري و احتمى الكثيرون منهم بالتجار الذين يمارسون تجارة الرقيق في محطاتهم التي أنشاؤها بعيداً عن سلطات الحكومة المصرية .

وبعد أن استقال بيكر في ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م أقنعت إنجلترا الخديوي إسماعيل بتعيين غوردون بدلاً منه ، فعينه في سنة ١٢٩١هـ /١٨٧٤م حاكماً على مديرية خط الإستواء ، ولكنه كان مستقلاً في أعماله عن حكمدار السودان بدلاً من أن يكون خاضعاً له مثل سلفه بيكر.

---

(١) الشاطر بصلي : معالم تاريخ السودان مرجع سابق ص ١٤٧ .
علي ابراهيم عبده : أضواء على المنافسة الدولية في أعالي النيل ص ٥٠ ، ١٩٦٣م)

الفصل الثالث

المبحث الرابع :

زيف الإتهامات الأوروبية التي ألصقت بالزبير حول تجارة الرقيق



الأوروبيون يتهمون الزبير بالعمل في تجارة الرقيق

إتهم كثير من الأوروبيين الزبير في حياته وبعد مماته بأنه تاجر رقيق ولعل على رأس هؤلاء عدوه اللدود غوردون باشا آخر حكمدار للسودان في العهد العثماني ففي دار الوثائق القومية بالخرطوم تقرير لغوردون يقع في ٢٤ صفحة يتحدث فيه عن الزبير باشا ومكانته في بحر الغزال وعن ابنه سليمان وثورته ويصفهما أنهما من كبار تجار الرقيق (١) وفي برقية من غوردون الى كرومر القنصل البريطاني في مصر في أواخر عام ١٢٩٨هـ /١٨٧٩م يشرح له فيها الاحداث التي ادت الى خروج الزبير من السودان (لا شك أن الزبير باشا كان أكبر قناصي الرقيق على الاطلاق) (٢) .

كما أن صاحب كتاب النيل الابيض يتفق مع غوردون في اتهامه للزبير بالعمل فى تجارة الرقيق ورغم أن الحديث جاء في الاشادة بمقدرة الزبير الادارية إلا أنه لم يملك الا الاساءة اليه حيث قرر(أن أمثال الزبير كانوا أوغاداً ولكنهم كانوا يعرفون كيف يحكمون أقاليمهم خير مما يحكمها الاتراك المصريون الذين جاءوا الى السودان من مصر والذين ارتكبوا فظائعهم باسم المدنية)(٣) .

وكرومر نفسه يؤكد أن الزبير باشا لم يبن سلطانه العظيم ولم يصنع ثروته الهائلة إلا بالعمل في تجارة الرقيق (٤) .

---

(١) دفتر رقم 1/15/74 ص ٥ وما بعدها دار الوثائق القومية بالخرطوم .

(٢) كرومر بريطانيا في السودان ص ٨٥ تعريب عبد العزيز أحمد عرابي الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٠ م .

(٣) آلان مورهيد ـ النيل الابيض ص ١٩٦ ترجمة محمد بدر الدين خليل دار المعارف بمصر ١٩٦٥م .

(٤) كرومر ـ بريطانيا في السودان مصدر سابق ص ٨٤ .



كما أنه عندما رأى ميل الحكومة العثمانيــة فـي القـاهرة الـى ارسـال الزبـير الـى السـودان لمعاونـة غـوردون ضـد الحكومـة المهديـة فـي عــام ١٨٨٤م كتب كرومر الى وزير الخارجية البريطاني لـورد جرانفيـل يقـول له (تقترح الحكومة المصرية ارسـال الزبـير باشـا الـى سـواكن وسـعادتك تدرك سوابقه بغير شك ، فقد كان وثيق الصلة بتجارة الرقيق)(١) .

وعندما وافقت الحكومة العثمانيــة علـى رغبـة عـوردون فـي ارسـال الزبير الى السودان اعترضت الحكومة البريطانية بحجـة أن الـرأي العـام البريطاني لا يمكنه أن يقبل بذلك لأن الزير (أعظم صائد للعبيد ظهـر فـي الوجود) (٢) .

أما جسي R.Gessi صـاحب كتـاب سبع سنوات فـي السـودان Seven Years in the Sudan فقد أنه فـي عـام ١٢٩٧هـ/١٨٧٨م كـان يوجـد فـي بحر الغزال اثني عشرة زريبة لجمع العاج والعبيد تخص كل مـن غطـاس وكنتشول على وحسـب اللـه وأبـو نـوري وبصيلـي وغـيرهم بالاضافـة الـى زريبتين رئيسيتين يملكهما الزبير باشا (٣) .

وأما ونجت باشا F.R. Wingate صـاحب كتـاب المهديـة والسـودان المصري Mahdisim and the Egptain Sudan فقد أكد أن الحـرب التـي شنها جسي باشا فـي عـام ١٢٩٧هـ/١٨٧٨م فـي بحـر الغـزال إنمـا كـانت للقضاء على تجارة الرقيق التـي كـان الزبـير باشـا وابنـه سـليمان اعمدتهـا الحقيقيين (٤) .

---

(١) المصدر السابق ص ٤٢ .

(٢) ألآن مورهيد ـ النيل الأبيض مرجع سابق ص ٢٣٧ .

(٣) R.Gessi Seven Years in the Sudan p 50.

(٤) **F.R. Wingate - Mahdisim and Egyptian Sudan p 10 London 1968**



وقد أكد سبنسر Spencer ما ذهب اليه جسي بان الزبير باشا كان يشكل خطراً في المنطقة لأنه حاكم مستقل وصاحب نفوذ وحركة كبيرة لاصطياد العبيد (١) .

وقد جاء في كتاب تاريخ جنوب السودان أن الزبير وابنه كانوا يصدرون سنوياً حوالي ١٨٠٠ عبد (٢) .

أما جاكسون صاحب كتاب العاج الأسود Black Ivory فقد أكد أن جمعية محاربة الرق البريطانية هي التي وقفت ضد ارسال الزبير للسودان لمساعدة غوردون وذلك لأن الرأي العام البريطاني عرف الزبير باعتبار أنه أعظم صائد للعبيد ظهر في الوجود(٣) .

ومما تقدم يوضح كيف أن بعض الكتاب الأوروبيين والساسة منهم على وجه الخصوص عملوا باصرار على الاساءة الى الزبير وذلك بوصمهم له بالعمل في تجارة الرقيق وأنه أخطر تاجر وأعظم صائد للعبيد عرفه الوجود وذلك لأن العمل في تجارة الرقيق أصبح من الأعمال المشينة في أواخر القرن الثالث عشر الهجري ، التاسع عشر الميلادي .

وفي الصفحات التالية سأحاول تفنيد هذه التهم ودفعها عن الزبير ورد الاعتبار لرجل لعب دوراً مهماً في تاريخ السودان على وجه الخصوص وتاريخ الدولة العثمانية بوجه عام .

---

(١) Spencer Trimugham . Islam in the Sudan p .92 London 1965

(٢) Ruchwad Gray . A History of the Southern Sudan 1839 - 1889 p . 68 Oxford University

(٣) **H . C . Jackson , Black Ivory p 11 Negro Universities pressb New York .**

آلان مورهيد ـ النيل الابيض مرجع سابق ص ٢٣٧ .




عرفت إفريقيا عامة و السودان خاصة تجارة الرقيق منذ زمن بعيد جداً ، وكان الرق متأصلاً في كيان السودان الإجتماعي و الإقتصادي (١) و لم تكن هذه التجارة حكراً على أفريقيا أو السودان بل عرفتها أوروبا و جهات أخرى في العالم منذ القدم ، و كان الرق عنصراً مألوفاً في الحياة الإقتصادية للمجتمعات القديمة منذ بداية التاريخ في مصر و اليونان و روما و الهند و الصين و فارس و لم تضمحل تجارة الرقيق إلا مع تقدم المدنية (٢) .

ورغم إشتهار السودان بالعديد من قوافل تجارة الرقيق (٣) فإنه لم يكن في تجارة الرق بالسودان ما يميزها عن غيرها من تجارات الرق الأخرى إلا أنها بدأت تجارة داخلية عرفها المجتمع السوداني بأسره شماله العربي المسلم وجنوبه الزنجي الوثني على السواء نتيجة للحروب الداخلية بين القبائل (٤) .

ويرجع تطورها إلى دخول محمد علي السودان سنة ١٢٣٦هـ /١٨٢١م وفي هذا تختلف تجارة الرقيق في السودان عن تلك التي عرفتها أوروبا ، فبينما كانت تجارة الرق في أوروبا موجهة للمتاجرة في الشعوب السوداء في أفريقيا كانت في السودان أثراً مترتباً على الحروب القبلية سواء في الشمال وفي الجنوب على السواء (٥) .

---

(١) السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا ص ٤٩ .

(٢) محمد عمر بشير : جنوب السودان مرجع سابق ص ٣٤ .

(٣) د/ السيد يوسف نصر : الوجود المصري في أفريقيا مرجع سابق ص ٤٩ .

(٤) جلال يحيى ـ مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر ص ٢٩/٣٠ دار المعارف ١٩٨٤م

(٥) محمد عمر بشير : جنوب السودان مرجع سابق ص ٣٤ .

وكانت القبائل تستولي على المخطوفين و المأسورين بغض النظر عما إذا كانوا من السمر أو من السود فعندما تُغير قبيلة قوية كالبقارة (١) أو البجة (٢) أوالأزاندي (٣) على قبيلة ضعيفة فإنها تأسر منها الأحرار و العبيد فتسترقهم (٤) .

وقد بلغت هذه التجارة مداها الواسع في السودان بعد الحكم العثماني المصري الذي رافقه التدخل الأوروبي السافر نتيجة لاستعانة الحكم العثماني بالاوروبيين في ادارة السودان ، و قد بدأت شهرة التجارة أصلاً في العاج ، وكثير ما كان التجار يتحالفون مع أحد الرؤساء المحليين للإغارة على القبائل المجاورة للحصول على الحبوب و الماشية التي يبادلونها فيما بعد بسن الفيل .

وكان الأسرى الذين يؤتى بهم نتيجة لهذه الغارات فانهم يصبحون عبيداً للتجار الذين مالبثوا أن وجدوا فيهم تجارة رابحة (٥) .

وفي سنة ١٢٦٤هـ /١٨٤٩م ألغى الوالي العثماني عباس باشا احتكار تجارة الصمغ الذي كانفرضته حكومته و كان هذا نتيجة طبيعية لإنصراف الحكومة المصرية عن احتكار التجارة في مصر ، و كان من نتيجة ذلك أن إتجه كثير من التجار الأوروبيين والسوريين إلى الجنوب لجمع العاج و الإتجار فيه ثم لإسترقاق الرجال وذلك عندما نضبت موارد العاج وقل الربح فيه (٦) .

---

(١) البقارة قبيلة عربية تسكن غرب السودان (كردفان ودارفور) .

(٢) البجة قبيلة حامية تسكن شمال شرق السودان .

(٣) الأزاندي قبيلة زنجية تسكن المناطق الغربية و الجنوبية الغربية من جنوب السودان .

(٤) د/ حسن مكي : السياسة التعليمية في جنوب السودان ص ١١ .

(٥) محمد فؤاد شكري : مصر و السودان مرجع سابق ط٣ ص ٨٤ .
محمد عمر بشير ـ جنوب السودان مرجع سابق ص ٣٤ .

(٦) د/ زاهر رياض : السودان المعاصر مرجع سابق ص ٧٤ .




ولكن حكومة مصر أخذت تغير من سياستها بعد ذلك و تتجه إلى محاربة تلك التجارة الهمجية (تجارة الرقيق) ، بينما كانت حكومات أوروبا في هذا الوقت لا تزال تمارسها (١) .

ولما تولى إسماعيل حكم مصر في سنة ١٢٧٩هـ ــ ١٨٦٣م كانت مشكلة الرق من المشاكل الملحة التي تستدعي حلاً جذرياً حتى يستتب الأمن و يعم الرخاء كل البلدان الأفريقية ، فأضطره ذلك إلى الإسراع في العمل عاى وقف هذه التجارة وخاصة بعد أن قضى عليها في معظم الدول الأوروبية (٢) .

و الأسئلة التي تطرح نفسها بعد أن توقفت هذه التجارة في عهد إسماعيل هي لماذا أصبح العمل السابق في تجارة الرق سبه في وجه الزبير دون سواه ؟ و هل كان الزبير هو الوحيد الذي يعمل في هذه التجارة دون غيره ؟ و هل كان فعلاً يعمل بها ؟ وما الهدف المقصود من إتهامه بالإتجار في العبيد ؟

على افتراض أن الزبير كان يعمل بهذه التجارة فهل ياترى كان بدعاً دون سواه ؟ و سنجد فيما يلي الإجابة عن تلك الأسئلة وهي في الوقت نفسه النقط التي ستوضع على الحروف ، فعلى الصعيد المحلي و الإقليمي • ذكرنا أن السودان عرف تجارة الرق قبل ميلاد الزبير بمئات السنين و أن جميع الأجناس و القبائل في السودان مارسته ، وكان من أشهر تجار العبيد في الجنوب أحد رؤساء قبيلة

---

(١) د/ زاهر رياض : السودان المعاصر مرجع سابق ص ٨٦ .

(٢) الشاطر بصيلي ــ معالم تاريخ سودان وادي النيل مرجع سابق ص ١٦٠ ومابعدها .
نعوم شقير : مرجع سابق ص ٢٥١ ومابعدها .
شبيكة : مرجع سابق مرجع سابق ص ٥٠٨ ، ٥٣١ .
د/ جلال يحي : مصر الأفريقية مرجع سابق ص ٥٥ وما بعدها .

الأزاندي و يدعى (موبوي) و قد باع هذا الزعيم من العبيد ألوفاًأسرهم في الحرب أو خطفهم في الغارات التي نظمها ضد القبائل المجاورة (١) .

وكان بعض تجار الرقيق من السوريين (٢) و الإيرانيين (٣)و المصريين فمن أشهر تجار العرب المعروفين في ذلك الوقت محمد خير و إبراهيم و خليل شامي وشنودة ، وغطاس ، وخورشيد أغا وكوشوك علي .

وقد تألفت من أبوعموري وبصيلي و كوشوك علي شركة ثلاثية استأثرت بكل نفوذ و سلطة حقيقية على السود في إقليم بحر الغزال ، في حين تألفت من ديبوتو و شنودة و خورشيد أغا شركة ثلاثية أخرى حول غندكرو في إقليم بحر الجبل و جهات النيل االعليا و قد تألف من هذه الاتحادات شركات تجارية ، وكان الغرض من تأليف هذه الشركات أن يساوم أصحابها من العرب وغيرهم السلطات الحكومية في الخرطوم على إحتكار تجارة العاج وهي التجارة التي إتخذوها ستاراً لإخفاء نشاطهم في النخاسة و تجارة الرقيق (٤) .

ومن التجار العرب الذين أسسوا شركات في الخرطوم للتجارة في العاج وإتخاذها ستاراً لتجارة الرقيق (السيد أحمد العقاد و شريكه موسى العقاد) وهذان ألفا(شركات العقاد) ومنهم (محجوب البصيلي و عبدالحميد) وهذان ألفا (شركة البصيلي) ومنهم علي أبوعموري الذي ألف (شركة أبوعموري) .

---

(١) محمد عمر بشير ـ جنوب السودان مرجع سابق ص ٣٥ .
حسن مكي : السايسة التعليمية في جنوب السودان مرجع سابق ص ١١ .

(٢) محمد فؤاد شكري : مصر والسودان مرجع سابق ص ٨٣ .

(٣) المرجع السابق نفسه و الصفحة نفسها .

(٤) محمد فؤاد شكري : مصر والسودان مرجع سابق ط٣ ص ٨٥ / ٣٦ .




أما على الصعيد الأوروبي فقد كـان هنـاك مجموعـة مـن التجـار الأوروبييـن تعمل في تجارة العاج وتتخذها ستاراً لتجارة الرقيق ومن أشـهرهم ديبونـو(DEBONO) وقريبه أمبيلي (AMBILE) وهما مالطيان .

ومـن الفرنسـيين لافـارج LAFARGUE وبـارثلمي BARTHLEMY ومـلزاك NELZAC وهو صاحب زرائـب كبيرة لجمـع العـاج و إسترقاق الرجـال فـي بحـر الغزال عموماً ، وأشهر هذه الزرائب محطة رومبيك .RUMBEK .

ومن النمسا فرانز بندر FRANZ BANDO والبارون مللـر MULLER و ثيودور فون هوجلين و الدكتور ناتر NATTER الذي توفي الخرطـوم سـنة ١٢٧٨هـ /١٨٦٢ وغيرهم من الإنجليز أمثال جون بتريك .

ومـن أصحـاب البيـوت الإيطاليـة التجاريـة فـي السـودان أنجيلـو بولونيـيزي أنطونيولي ANGELO BOLOYNESI ANTONYOLI الذي إختص بالتجاره مع الحبشة (١) .

ولـم يكـن هـؤلاء الأجـانب مـن أفـاضل القـوم بـاعتراف معـاصريهم مـن الأوروبيين أنفسهم ، أساءوا إلى سمعتهم كما أساءوا إلى سمعة بلادهم لأنهم لـم يهتمـوا إلا بالوصول إلى الغنى السريع و اكتناز المال مـن أي سـبيل فتـاجروا فـي أول أمـرهم بالعاج فلما قل معينه وتناقص ربحـه إنقلبـوا علـى هـذا العمـل و إهتمـوا بتجـارة الرقيـق فصـارت سفنهـم في النيـل الأبيض تحمـل الرقـيق المخطـوف وهـي مطمئنـة تحميها

---

(١) حمدنا الله مصطفى : التطور الإقتصادي و الإجتماعي مرجع سابق ص ١٤٦ .
محمد فؤاد : مصر والسودان مرجع سابق ص ٨٣ /٣٥ .




أعلام الدول التابعين لها و التي كانت تؤازرهم وتقوم بالدفاع عنهم أمام السلطات المحلية بواسطة قناصلهم في الخرطوم (١) .

وقد وصف أحد الرحالة الفرنسيين بعد أن زار السودان و أثيوبيا حياة هؤلاء الأوروبيين في الخرطوم و أصدر كتاب رحلته من باريس سنة ١٢٧٨هـ /١٨٦٢م فرسم صورة سيئة لحياتهم الأخلاقية و الإجتماعية والتي إنتشرفيها الطلاق وزواج المتعة و الزواج المختلط و إهمال الأولاد ، كما أكد أنهم جميعاً إشتغلوا بتجارة الرقيق ماعدا الدكتور هوجلين (٢) ، وهؤلاء الأوروبيين هم الذين أعطوا تجارة الرقيق في السودان شهرتها التجارية ، إذ إستخدموا أعوانهم الذين ينتمون إلى الجنس العربي والذين أعمتهم المطامع وطمس على قلوبهم حب المال ، كما إستخدموا بعض رؤساء القبائل الزنجية و أنشأوا لهذا الغرض محطات في داخل البلاد وبذلك أصبح الكثيرون من العرب و السودانيين المتاجرين في العبيد يعتمدون على رؤوس الأموال التي يقدمونها لهم الممولون الأوروبيون بالإضافة إلى ماكانوا يجلبونه لهم من الأسلحة الفتاكة التي زادتهم قدرة على خطف الرجال أو أسرهم و جعلت لهم سيطرة واضحة و هيمنة قوية في أرجاء البلاد .

و لا شك في أن فتح النيل الأبيض للملاحة كان من أهم الأسباب التي جعلت هؤلاء الأوروبيين يقبلون بنشاط جم على أسر الرجال أو خطفهم ثم إسترقاقهم و المتاجرة بهم و ذلك لأن فتح النيل الأبيض أمام الملاحة الحرة سرعان ما جعل في إستطاعة هؤلاء التجار التوغل في أصقاع شاسعة جديدة تحت غطاء البحث عن العاج فاصطادوا فيها الفيلة وجمعوا العاج ثم أسروا المواطنين أو خطفوهم

---

(١) محمد فؤاد شكري : مصر والسودان مرجع سابق ٨٣ .
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة .

ليسترقوهم ، و لم يكن هذا العمل مقصوراً على هؤلاء التجار الأوروبيين الذين كانوا تحت حماية قناصلهم فلقد عمل كثيرون من القناصل الأوروبين أنفسهم في هذه التجارة بل إن بعض الحكمداريين في السودان مارس هذه التجارة غير الأخلاقية و على رأسهم غوردون نفسه على الرغم من أنه إشتهر بالقسوة في محاربة التجارة تنفيذاً للإتفاقات الدولية (١).

فالحقيقة التي لاشك فيها هي أن كثيراً من التجار الأوروبيين ورؤساء القبائل المحليين عملوا بهذه التجارة المشينة ، كما أن بعض التجار العرب و الإيرانيين عملوا أيضاً في هذه التجارة ، غير أن الأوروبيين كانوا عمود هذه التجارة الفقري وأركانها و ذلك بإدخالهم رؤوس الأموال و الأسلحة الفتاكة في مجال هذه التجارة .

فإذا كان كل هؤلاء قد عملوا في تجارة الرقيق فلماذا حاول الأوروبيون وصم الزبير بهذه التجارة دون غيره ؟ .

لقد كانت هذه التجارة تبدو في ذاك العصر شيئاً عادياً يدور مع حركة الحياة و كان الرقيق جزءاً من المجتمع العامل و بدونه تتوقف كثير من الأعمال التي بها تدور عجلة الحياة ، و الزبير باشا كزعيم إعتمد على الرقيق في كثير من مشروعاته العسكرية و المدنية و كان لابد له من أن يعتمد على مثل هذا النظام السائد لكن إعتماده على هذه القوة البشرية كان يحدوه الشرف و تحكمه الأخلاق والمبادئ وهذا هو الفرق بينه و بين الأوروبيين ومن سار على دربهم .

فالزبير رجل دولة إشترى الرقيق للجندية و المشروعات لينهض بدولته ، فارتقى بهم من ذل العبودية إلى شرف الجندية و العمل الكريم ، ولم يثبت أنه سلك مسالك الأوروبيين ومن سايرهم ، فلم تتلوث يداه بخطف الرجال و إسترقاقهم ، ولم يدنس خلقه ببيع هؤلاء الرجال ليكدس الأموال في خزائنه كما فعل هؤلاء

---

(١) محمود طلعت : غرائب الزمان في فتح السودان مرجع سابق ص ٦٢ .



الأوروبيون ومن سايرهم أو سار على نهجهم و مع ذلك فإن الزبير نفسه لم ينف عن نفسه أمر شراء العبيد ، و إنما نفى عن نفسه تهمة بيعهم و الإتجار بهم ، وأثبت أنه كان يشتريهم و يطعمهم و يكسوهم و يدربهم على حمل السلاح ، و أنه كون منهم جيشه الذي قهربه عرب الرزيقات و أزال به حكم سلاطين الفور وضم سلطتهم إلى أملاك الحكم العثماني ووقف به على حدود واداي .

و هناك من اعتقد (١) أن سلاطين الدينكا كانوا يقومون بحملات إستجلاب الرقيق لمصلحة الزبير (٢) أي إنهم كانوا يقومون بمهاجمة القبائل الأخرى وخطف رقيقهم و أبناءهم و دفعهم إلى الزبير باشا و ذلك لحاجتهم الماسة إلى بضائعه ، علماً بأن سلاطين الدينكا كان لهم رقيقهم الخاص من قبائل بحر الغزال مثل الكريس و الفرتيت .

وكان الزبير بعد أن يشتري هذا الرقيق يقوم بتدريبهم مكوناً منه جيشه الضخم و قد أحسن الرائد عصمت زلفو (٣) حين أتى من الشواهد بما يعضد رواية الزبير عن نفسه بأنه كان يشتري الرقيق و لا يبيعه أو يتاجر به ، بل إنه كان يشتري الضحايا الذين صدرت في خقهم أحكام الإعدام ، ثم يعمل على تدريبهم وعتقهم وتسليحهم وضمهم إلى جيشه فهو لم ينكر الشراء و لكنه أنكر البيع و المتاجرة .

---

(١) عصمت زلفوا : كرري مرجع سابق ص ٣٠

(٢) لايستبعد أن يكون بعض سلاطين الدينكا تعامل مع الزبير وباع له كثيراً من الرقيق الذي يملكونه أصلاً ولكن لا نعتقد أن الحملات كانت أصلاً من أجل الزبير إذ أن هذه الحروب بين القبائل كانت شيئاً مألوفاً و قد أشار الزبير إلى ذلك في مذكراته أنظر ص ٥ من مذكرات الزبير .

(٣) الرائد عصمت زلفو . ضابط في الجيش السوداني قام بعمل دراسة تحليل عسكري لمعركة كرري التي دارت رحاها في منطقة كرري شمال أم درمان في سبتمبر ١٨٩٨م حيث إنتصرت الجيوش الإستعمارية الإنجليزية على دولة المهدية و قد صدر هذا البحث قي كتاب حوى أكثر من ستمائة صفحه وطبع لأول مرة سنة ١٩٧٣م والطبعة الثانية سنة ١٩٧٨ م .

ولقد تساءل زلفو كيف كان الزبير يستطيع إنشاء ذلك الجيش الكبير الذي واجه به قبيلة الرزيقات أقوى القبائل العربية في السودان و أغناها و أكثرها عدداً لولاحسن التدريب الجيد والصلة الحميمة بين القائد و جيشه و التي نبعت عنها حسن الطاعة و إمتثال الأوامر و الإستعداد للفداء ، كيف كان الزبير سينتصر على هذه القبيلة التي لا تعرف إلا حياة الكر و الفر و الأمان بل كيف كان سيواجه جيش سلطان الفور الذي تجاوز مئات الألوف إذا لم يكن له جيش من هؤلاء المسترقين .

ومما لاشك فيه أن إخلاص جنوده المسترقين ، و استماتتهم في القتال ، والعلاقات الأخوية التي نشأت بينه و بينهم لهي أعظم برهان و أقوى دليل على تلك النهضة التي إستنهضم بها حيث نفى عنهم ذل العبودية و أسبغ عليهم كرامة الإنسانية ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون العلاقة التي سادت بين الزبير وجنوده هي العلاقة بين التاجر و بضاعته ، بل تكاد تؤكد روايته أنه أنقذهم من الموت ، و أنه إفتدى كثيرين منهم ، و أطعمهمو كساهم ، ثم دربهم ليصبحوا ذلك الجيش القوي ذا العزة و المتعة و الكرامة، غير أن الإنجليز عندما رفعواهذا الإتهام في وجهه كانوا هم قبل غيرهم يعلمون شرفه و أخلاقه ، و أنه لم يمارس تجارة الرقيق بأساليبها المألوفة في أي مرحلة من مراحل حياته في الجنوب ، و لم يستخدم قط أسلوباً من أساليب الأوروبيين المستهجنة .

و سياسة الإنجليز خاصة و الأوروبيين عامة مشوبة في مثل هذه المواطن ، فهم عندما أطلقوا الشائعات التي صورت الزبير بأنه مصدر النخاسة في أفريقيا إنما أرادوا أن يحولوا الأنظار عن بني جنسهم الذين إرتكبوا أبشع الجرائم في ميادين النخاسة ليصبح الزبير المشجب الذي يعلق عليه هؤلاء جرائمهم وأخطاءهم .

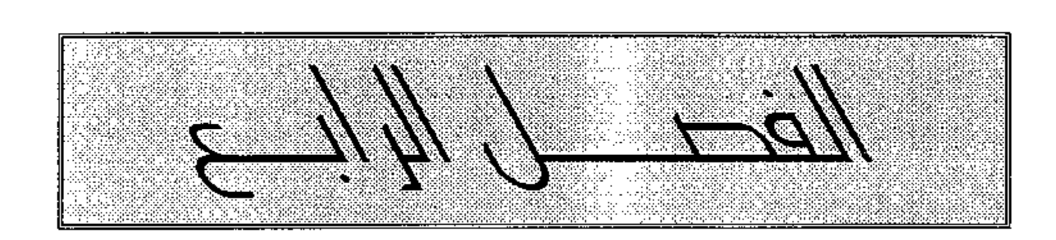


ومن خلال هذه الدراسة يتضح لنا أن الأسباب التي دفعت بالأوروبيين لرفع هذه الإفتراءات الظالمة في وجه الزبير هي :

أولاً : الكسب السياسي : إذ أن إلصاق مثل هذا الإتهام بالزبير إنما أراد به بعض الساسة الإنجليز تبرئة أحزابهم لتبدوا صحافهم أمام مواطنيهم ففي ذلك الوقت تكونت في الغرب عامة و إنجلترا خاصة جمعيات تحرير الرقيق التي دفعت بالمجتمع ليقف أمام كل مايسئ إلى حرية الإنسان .

ثانياً : إن الزبير ومن حوله من أبناء الشمال الذين إنحرطوا في خدمته كانوا يمثلون الوجود العربي المسلم في جنوب السودان ووسط أفريقيا وهي منطقة تريد إنجلترا خلوها من هذه المؤثرات العربية الإسلامية إذ ذلك الوقت أخذت الدول الأوروبية تسعى لتقسيم القارة الأفريقية فيما بينهما و كل دولة كانت تحاول تحديد منطقة بعينها لتؤول إليها السيطرة عليها ، وكانت إنجلترا تسعى لسيطرة على منطقة وسط أفريقيا و شرقها بما فيها مصر والسودان و يوغندا و غيرها ، فهي لا تريد وجدوداً عربياً اسلامياً ذا قوى عسكرية كالوجود الذي تمثله سلطنة الزبير في جنوب السودان لأنه سيحول دون تنفيذ بعض مشروعاتها الاستعمارية في تلك المناطق .

ثالثاً: أرادت إنجلترا بإطلاقها تلك الشائعات ضد الزبير أن يبقى محدداً الإقامة في مصر حتى يظل السودان خالياً من العناصر القوية المؤثرة وحتى لايتحد مع الثوار المهديين فيلتقي مع الثوار العرابيين في مصر فيهدد الوجود الإنجليزي ليس في السودان فحسب بل في مصر أيضاً .


الفصل الرابع

الفصل الرابع :

المبحث الأول :

تعيين البلالي مديراً لبحر الغزال من قبل الإدارة المصرية في الخرطوم و إصطدامه بالزبير باشا سنة ١٢٨٦هـ - ١٨٦٩ م .

الفصل الرابع :

الصراع بين الزبير باشا والقوى المجاورة

المبحث الأول :

تعيين البلالي مديراً لبحر الغزال من قبل الإدارة المصرية في الخرطوم واصطدامه بالزبير سنة ١٢٨٦هـ - ١٨٦٩م .

المبحث الثاني :

دوافع استدعاء الزبير إلى مصر واستبقائه فيها .

المبحث الثالث :

حملة جسي على بحر الغزال وعلاقة غوردون بمقتل سليمان بن الزبير .

المبحث الرابع :

اشتعال الثورات بعد خروج الزبير من السودان واستبقائه في مصر .

المبحث الخامس:

أثر الزبير في قيام دولتي المهدية ورابح ومحاولات الانجليز والفرنسيين إستغلال الزبير في مواجهة ذلك .



تعيين البلالي مديرا لبحر الغزال من قبل الإدارة المصرية في الخرطوم

حملة البـلالـي:

كان الإنجليز يرقبون بقلق شديد التطورات التي تحدث في جنوب السودان أثر فتح طريق النيل الأبيض في وجه الملاحة و تدفق التجار العرب و جنودهم المسلمين من الشمال واحتكاكهم بأهالي المنطقة مما أدى إلى إنتشار اللغة العربية والدين الإسلامي بين الجنوبيين وكان على رأس هؤلاء التجار الزبير رحمت الجميعابي الذي نجح في السيطرة على مناطق واسعة في بحر الغزال و بسط نفوذه عليها و عمل جاهداً على بسط الأمن و تمدين الأهالي و نشر اللغة العربية و الدين الإسلامي بين السكان الجنوبيين .

فسعى الإنجليز لمحاصرة هذا النشاط ثم القضاء عليه فأوعزوا إلى والي مصر إسماعيل بتعيين السير صمويل بيكر لفتح منطقة خط الاستواء باسم الحكومة العثمانية وكان ذلك عام ١٢٨٦هـ / ١٨٦٩م و في الوقت نفسه عملوا جاهدين لضرب نشاط الزبير و رفاقه في بحر الغزال .

و قد سنحت لهم الفرصة في هذا العام عندما طلب حاكم السودان جعفر مظهر من الخديوي إسماعيل الموافقة على إنشاء قسم بحر الغزال ، وقد وجدوا ضالتهم المنشودة في رجل يسمى الحاج محمد البلالي (١) .

و البلالي رجل من سكان غرب أفريقيا تخلف أثناء عودته من مكة المكرمة بعد أداء فريضة ثم سافر إلى مصر و تمكن من مقابلة والي مصر إسماعيل باشا في القاهرة و إستطاع إقناعه بأنه يملك جزءاً من أراضي دارفور و أنه يريد إستغلال النحاس الموجود في حفرة النحاس (٢) بجنوب دارفور بإسم الحكومة العثمانية في مصر .

---

(١) يعرف محمد البلالي في كثير من مصادر التاريخ بإسم الهلالي أيضاً . وقد وقع بينه وبين الزبير باشا صراع أدى إلى مقتل البلالي سنة ١٢٨٧هـ/١٨٧١م - جميل عبيد ـ المديرية الاستوائية مرجع سابق ص ١١٦ .

(٢) حفرة النحاس منطقة في أقصى الجنوب الشرقي لدارفور يستخرج منها النحاس و قد أخذت إسمها من وجود النحاس بها ـ سعد الدين الزبير ـ الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٤٦ .



فكتب والي مصر إلى حكمدار السودان كتاباً في ذي الحجة ١٢٨٥هـ /أبريل ١٨٦٩م بإنشاء قسم بحر الغزال وتعيين الشيخ محمد البلالي ناظراً عليه (١) .

فما كان من جعفر مظهر حكمدار السودان إلا أن جهزه للتوجه إلى بحر الغزال بقية إستغلال مناجم النحاس و جعل تحت إمرته جيشاً نظامياً يتكون من مائتين من الجنود السودانيين بقيادة الصاغ محمد أفندي منيب(٢) ، و أربعمائة من العساكر الباشبوزق (غير النظاميين) بقيادة اليوزباشى(كتشوكا علي (٣) بالإضافة إلى ستمائة رجل من الخطرية (٤) .

و قد طلبت الحكومة العثمانية من الحكمدارية في الخرطوم ضرورة التنبيه على الحكام و المأمورين المزمع إرسالهم إلى بحر الغزال بمعاملة الأهالي باللين لإستجلاب محبتهم نحو الحكومة (٥) وفي الوقت الذي جهز فيه جعفر مظهر حاكم السودان الشيخ محمد البلالي للتوجه إلى بحر الغزال أرسل رسالة إلى الزبير رحمة يخبره فيه بقدوم محمد البلالي لإستغلال مناجم النحاس في حفرة النحاس ، و يطلب منه أن يقدم له كل عون و مساعدة (٦) .

---

(١) الدفتر قم (٥٧٣) صادر عابدين ، معية سنية ، مكاتبات تركي ص ص(١٦٨، ١٨٤) المكاتبة رقم (٤) بتاريخ ٢٨ من ذي الحجة سنة ١٢٨٥هـ / ١٢ من أبريل ١٨٦٩م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الصاغ رتبة عسكرية .

(٣) الدفتر رقم (٥٧٣) صادر عابدين ، معية سنية ، مكاتبات تركي ص ص(١٦٨/١٨٤) المكاتبة رقم (٤) في ٢٨من ذي الحجة ١٢٨٥هـ / ١٢ من أبريل ١٨٦٩م دار الوثائق القومية بالقاهرة .
سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٤٦ .
نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٦ .

(٤) الخطرية فرقة من القوات النظامية .

(٥) الدفتر رقم (٥٨٣) ، صادر معية سنية ، مكاتبات تركي ص (١٤) المكاتبة رقم (١) في ٢٩ من جمادي الثانية ١٢٨٦هـ / ٣٠ من أغسطس سنة ١٨٦٨م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٦) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٤٨ .




و قد كان حاكم السودان حريصاً على تسهيل مهمة الشيخ البلالي و في الوقت نفسه كان يخشى إعتراض التجار بقيادة الزبير ، ووقوع مصادمات بينهم و بين البلالي لأن الزبير كان هو القائم على استخراج النحاس من تلك الجهة إذ كان من بين أتباع الزبير من لهم خبرات بإستخراج النحاس و الذهب لأنهم اعتادوا العمل في المناجم منذ عهد بعيد ، و كان في إستطاعتهم إستخراج تسعة وتسعين قنطاراً أو مائة قنطارمن النحاس الخام ، و قنطاراً آخر من الذهب (١) .

و عندما وصل الشيخ البلالي إلى بحر الغزال كتم خبر مهمته الأصلية و هي إستغلال مناجم النحاس ، ثم جمع التجار و إدعى أنه موفد من قبل الحكومة مديراً على بحر الغزال و طالبهم بتسليم زرائبهم و أسلحتهم إليه فرفض الزبير و من معه ذلك الأمر فأظهر البلالي خطاب جعفر مظهر حاكم السودان الذي حدد فيه واجباته ، فقام الزبير بتقديم العون من الملابس و الأغذية له ولجنده نزولاً على رغبة حعفرمظهر و حتى لا يوصم بالخروج على طاعة الحكومة ، و أخذ في تمهيد السبيل لوصول الشيخ البلالي إلى الغرب للقيام بإتمام مهمته التي جاء من أجلها (٢).
وعندما رأى البلالي أن مهمته إنكشفت أمام الزبير و من معه من التجار ، و أنه فشل في السيطرة على بحر الغزال أظهر التسليم و مصالحة الزبير ، ولكنه أضمر سوء القصد حيث كتب برسالة بعث بها إلى الحكومة العثمانية يطلب فيها إمداده بمزيد من الأسلحة و العتاد بغية محاربة تجارة الرقيق (٣) في تلك الأماكن ، و بما أن الحكومة كانت تسعى للقضاء على هذه التجارة فقد أمدته بعد مضي أكثر من عام ببعض العتاد و الجنود مما أظهره في أعين كثير من التجار وأهالي البلاد بأنه ممثل الحكومة فعلاً .

---

(١) سعد الدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٤٩ .

(٢) حسب مكاتبات الحكومة أن البلالي أرسل إلى بحر الغزال لاستغلال مناجم النحاس (الدفتر رقم ٥٧٣ صادر عابدين معيه سنيه مكاتبات تركي ص (١٦٨ ، ١٨٤) المكاتبة رقم ٤ في ٢٨ من ذي الحجة ١٢٨٥هـ ـ ١٢ من ابريل ١٨٦٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) ذكرت بعض المراجع أن الشيخ البلالي نفسه كان من تجار الرقيق . أنظر الدكتور محمد صبري : الإمبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ص ٢٢ .




و قد واصل الهلالي تنفيذ خطته فعمل على تحريض بعض جنود الزبير وضمهم إلى قواته فدارت معركة بينه و بين الزبير ثم كانت الغلبة للزبير رحمت فأرسلت الحكومة فريقاً للتحقيق في هذه الأحداث (١) وفي مقتل كوتشوك علي (٢) ، ثم تمت مصالحة بينهما و لكن بعد وصول الإمدادات للشيخ البلالي فأحس من نفسه قوة فلم يبال بما تم بينه و بين الزبير من مصالحة فاستغل غياب الزبير عن عاصمته و قام بحرقها فدارت معركة أخرى بينه و بين الزبير في ١٢٨٧هـ/ أبريل سنة١٨٧١م و قد إنتهت هذه المعركة بمصرع البلالي و هزيمة جيشه (٣) و كان هذا الإنتصار الذي أحرزه الزبير فرصة أخرى لإظهار قوته والتفاف كثير من التجار وأهالي البلاد حوله بعد أن شاع خبرإنتصاره في أرجاء السودان مما أدى إلى زيادة عدد أتباعه حتى بلغ جيشه في نهاية عام ١٢٨٨هـ /١٨٧٢م أثني عشر الف رجل و أصبح إقليم بحر الغزال كله تقريباً يدين له بالولاء (٤) .

و قد كانت الأحوال كلها و المكاتبات الرسمية المعلنة تشير إلى أن الحكومة لم ترسل البلالي لمهاجمة الزبير و إنما أمدته بالأسلحة لمحاربة تجار الرقيق ، ولم يكن الزبير من بينهم بدليل مكاتبة جعفر مظهر للزبير بمعاونة البلالي في

---

(١) الدفتر رقم (١٨٥) وارد عابدين ، معية سنية ،مكاتبات عربي ص (٤٢) ، المكاتبة رقم (٨) في غرة شوال ١٢٨٨هـ / ١٤ من ديسمبر ١٨٧١م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) كانت هناك خلافات بين كتشوك و البلالي توفى على أثرها الأول فاتهم الزبير الثاني بأنه وراء قتل الأول بالسم .

(٣) سعد لدين الزبير : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ٦١ .
نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٦ .
محمد صبري : الإمبراطورية السودانية مرجع سابق ص ٢٢ .

(٤) شوقي الجمل : تاريخ سودان وادي النيل جزء ٢ مرجع سابق ص ١٧٢ .




مهمته بإعتبار الزبير أحد المتعاونين مع الحكومة , و لكن طمع البلالي في السيطرة على بحر الغزال ، و حقده على الزبير و على ما آتاه الله من عز وجاه إذ أصبح هو وأتباعه المسيطرين على هذا الإقليم ، حتى لقد أصبح الزبير عند البلالي الصخرة التي تقف أمام طموحاته كل هذا دفعه دفعاً إلى الهجوم على الزبير والإعتداء عليه مخالفاً بذلك أوامر حكومته بمهاجمة حليف لها .

و على الرغم من هذا كله فإن الزبير رحمت ظل حريصاً على ولائه للحكومة العثمانية في مصر مستمسكاً بتحالفه معها فأرسل في أوائل عام ١٢٨٧هـ /١٨٧١م رسالة إلى جعفر مظهر حكمدار السودان يبين له فيها عدوان البلالي عليه و ما وقع بينهما من مصادمات و حروب أدت إلى قتله (١) . كذلك قام الزبير بإرسال رسالة إلى مدير دنقلة و بربر طلب فيها الوساطة لدى الخديوي للعفو عنه في مقتل الشيخ البلالي موضحاً له أسباب تعدي البلالي عليه ، و قد قام مدير قبلي السودان بمكاتبة الحكومة العثمانية في مصر في شأن الزبير و طلب فيها إصدار قرار بالعفو عنه محتجاً بأن الشيخ محمد البلالي لم يقم بتنفيذ الواجبات الموكولة إليه من قبل الحكومة و إنما جعل هدفه إنتزاع السلطة من الزبير كما أكد على ضرورة النظر الفاحص و التحقيق فيما حدث(٢) و قد نصح الحكمدار بعدم إظهار العداوة للزبير(٣).

و قد وافقت الحكومة على طلب مدير بربر بخصوص العفو عنه بشرط حضوره إلى الخرطوم و مقابلة الحكمدار (٤) .

---

(١) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ٦١ .
نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٦ .

(٢) الدفتر رقم (١٨٦٤) وارد معية سنية ، مكاتبات ص (٣٨) مكاتبة رقم (٤) في ٢٥ من شعبان ١٢٨٩هـ /٢٥ من أكتوبر ١٨٧٢م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) شوقي الجمل : تاريخ السودان مرجع سابق ج٢ ص ١٧٢ .

(٤) الدفتر رقم (١٨٧٢) وارد معية سنية ، مكاتبات عربي ص (١٧) المكاتبة رقم (٧٨) في ٢٧ من رمضان ١٢٨٩هـ / ٢٨ من نوفمبر سنة ١٨٧٢م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




و في شعبان سنة ١٢٨٩هـ / أكتوبر ١٨٧٢م صدر أمر إلى حكمدار السودان بضرورة إنتخاب شخص من طرفه صاحب ذمة و شرف مشهور بالصدق و الأمانة لإجراء تحقيق في الأحداث التي وقعت بين الشيخ البلالي و الزبير رحمت فإذا ثبتت براءة الزبير يجري العمل من قبل الحكمدار لإستمالة قلبه و تأمينه على نفسه و ماله من قبل الحكومة كما يجب على الحكومة أن تقوم بتعويضه عما تلف من أمواله (١) و قد أسفر التحقيق عن براءة الزبير مما نسب إليه على الرغم من الشكوى التي رفعها أقارب الشيخ البلالي (٢).

و بعد أن ظهرت براءة ساحة الزبير من قتل الشيخ البلالي تلقى حكمدار السودان تلغرافاً من الحكومة االعثمانية في مصر تتضمن موافقته على إثبات براءة الزير وأمره بأن يعمل الحكمدار لاستمالة الزبير إلى جانب الحكومة و أن يبلغه بأن الحكومة العثمانية في مصر قد أنعمت عليه برتبة قائمقام وعينته مديراً على بحر الغزال وأن يقوم بإعانته بقدر من العتاد و العساكر لمؤازرته في حربه ضد عرب الرزيقات(٣) .

و كان الزبير رحمت قد طلب من الحكومة بعد أن ثبتت براءته المبالغ التي

---

(١) الدفتر رقم (١٩٤٦) أوامر عربي ، ص ٩ ، رقم (٢) ، تاريخ ١٠ من شعبان ١٢٨٩هـ /١٣ من أكتوبر ١٨٧٢م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

و جميل عبيد : المديرية الإستوائية ص ٣٥٩ /٣٦٠ . ط ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م دار الكتاب العربي القاهرة .

(٢) الدفتر رقم (١٨٦١) صادر معية سنية عربي مكاتبات ص (٧١) المكاتبة رقم (١٧) في ١٧ من ربيع الأول سنة ١٢٩٠هـ / ١٦ من مايو سنة ١٨٧٣م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم (١٦) صادر عابدين ، تلغراف شفرة عربي ص ص(٤٢/٨٣، ٤٢/٨٤) رقم (٥٠٦) في ٢ من ذي القعدة ١٢٩٠هـ /٢٣ من ديسمبر ١٨٧٣م دار الوثائق القومية بالقاهرة .



صرفها على ضباط و جنود الشيخ محمد البلالي (١) و قدرها ألف كيسه (٢) .

و سعياً من الحكومة العثمانية في مصر لكسب الزبير إلى جانبها و إشعاره بأنه أصبح من رجالها فقد تمت الموافقة على رد أمواله إليه في شهر شعبان سنة ١٢٩٠هـ /١٨٧٤م (٣) .

و خلاصة هذا الأمر أن التجار المسلمين و على رأسهم الزبير باشا في جنوب السودان كان لهم أثر كبير في بسط اللغة العربية و إنتشار الثقافة الإسلامية وكان الإنجليز يراقبون هذا النشاط بقلق شديد و يتحينون الفرصة لمحاصرته و قد واتتهم الفرصة حين قدم رحلٌ من سكان غرب أفريقيا يدعى الشيخ البلالي كان في طريق عودته من أداء فريضة الحج و قد إدعى هذا الرجل أن له نفوذاً في جنوب السودان و جنوب شرق دارفور واستطاع تقديم نفسه للحكومة العثمانية في مصر على أنه رجل يمكن الإستفادة منه لصالح الحكومة في تلك المناطق فوافقت الحكومة العثمانية في مصر وكاتبت ممثليها في الخرطوم الحكمدار جعفر مظهر ليعتبر الشيخ البلالي من رعايا الحكومة و يقدم له العون و المساعدة حتى يتمكن من استخراج النحاس الموجود في حفرة النحاس (جنوب شرق دارفور) .

و لما كان الحكمدار جعفر مظهر يدرك نفوذ التجار في تلك المناطق وعلى رأسهم الزبير باشا فقد كاتب الزبير باشا موضحاً له مهمة الشيخ البلالي وطلب منه أن يقدم له العون و المساعدة . ولكن البلالي أراد بسط نفوذه على بحر الغزال فدارت بينه وبين الزبير عدة وقائع أدت إلى مقتل البلالي ولكن الحكومة العثمانية في القاهرة برأت ساحة الزبير من دمه (٤).

---

(١) الدفتر رقم (١٨٧٥) قيد الإفادات إلى المعية من المديريات و المحافظات و المشايخ ص (١٠) إفادة رقم (٢١) بتاريخ ٤ من ربيع الثاني سنة ١٢٩١هـ / ٢١من يوليو سنة ١٨٧٤م دار الوثائق القومية .

(٢) كيسه أو كيس فيه خمسون ألف جنيه عثماني .

عاتق بن غيث البلادي : معجم الكلمات الأعجمية و العربية في التاريخ الإسلامي ص ٩٥ . مكة المكرمة ١٤١١هـ /١٩٩٠م

(٣) الدفتر (١٩٤٨) صادر معية عربي ص (٧٣) المكاتبة رقم (٢٧) في١٦ من شعبان سنة١٢٩٠هـ/٢٨ من ١٨٧٤م دار الوثائق القومية .

(٤) الدفتر رقم ١٨٦١ صادر معية سنية عربي مكاتبات ص ٧١ مكاتبة رقم ١٧ في ١٧ من ربيع الأول ١٢٩٠هـ ١٦ مايو ١٨٧٣م دار الوثائق القومية بالقاهرة .





الفصل الرابع

المبحث الثاني

دوافع إستدعاء الزبير إلى مصر و إستبقائه فيها .




دوافع استدعاء الزبير إلى مصـر:

مر بنا في الفصل الثاني أن النزاع اشتد بين حكمدار السودان إسماعيل أيوب باشا و بين الزبير باشا بعد فتح دارفور (على يد الثاني) في عام ١٢٩١هـ ١٨٧٤م . وكان لهذا النزاع أثره البالغ على إستقرار الحكم الجديد في دارفور خاصة و في بحر الغزال عامة مما دفع الزبير إلى طلب السفر إلى القاهرة لعرض الأمر على الحكومة العثمانية في مصر (١)

و مما لا شك فيه أن وجود الزبير في دافور كان ضرورياً بعد فتحها للإستفادة من مقدراته العسكرية في بسط الأمن و مناهضة الثورات التي كان من الطبيعي أن تندلع بعد رحيله ، لما سيسببه رحيله من فراغ أمني خاصةً إذا علمنا أن قبائل الفور لم تتعود خلال تاريخها الطويل من عمر السلطنة الفورية لم تتعود الخضوع لسلطانٍ غير سلطان ملوك الفور الذين هم من أصلاب القبيلة نفسها، ولم يخضعوا للسلطة الجديدة إلا بعد معارك شرسة قدموا فيها مئات الألوف من الضحايا لقد كان من مصلحة الحكومة العثمانية في مصر اعطاء هذا الإقليم للزبير لتستفيد من قدراته الإدارية في تنمية الإقليم والإستفادة من قدراته العسكرية في بسط الأمن بالإضافة إلى ضرورة الإستفادة من خبراته في ضم أقاليم أخرى مثل سلطنة واداي دون أن تتحمل الخزينة العامة أعباء مالية فوق الأعباء المالية المعتادة . أيضاً كان في مصلحة الحكومة العثمانية في مصر الأخذ برأي الزبير في إسناد حكم دارفور إلى الأمير حسب الله ليحكم بإسم العثمانية مقابل مبلغ من المال سنوياً و لكن الحكومة العثمانية لم تأخذ بهذا الرأي و لو أن الحكومة العثمانية في مصر أخذت برأي الزبير لوفرت

---

(١) الدفتر رقم ٢٥ صادر تلغرافات عابدين شفرة عربي رقم ٦٩ في ٢١ شعبان ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

نفقات باهظة أنفقها على إقليم دارفور، و لكسبت في نفس الوقت أموالاً طائلة (١) لكنها خالفت رأيه فخسرت الكثير من الأموال أنفقتها في سبيل إستقرار الأحوال في دارفور ، و حرمت خزائنها من أموالٍ عظيمة كانت ستتدفق إليها من هذا الإقليم في حالة استقرار الحكم فيه تحت زعامة الأمير حسب الله .

و لقد كان لإسماعيل أيوب حكمدار السودان آنذاك (٢) دور كبير في تشويه صورة الزبير في أعين الحكومة العثمانية في مصر مما جعلها تتشكك في نواياه ، و لقو قُدر لهذا الحكمدار أن يتعاون مع الزبير بعد فتح دارفور لتجنب هذا الإقليم قيام كثير من الثورات التي كلفت الحكمدارية في السودان و الحكومة العثمانية في مصر كثيراً من النفقات المالية و العتاد الحربي و الأنفس البشرية .

إن العداء الذي أبداه الحكمدار إسماعيل أيوب تجاه الزبير لأسباب غير معلومة كلف الحكومة العثمانية كثيراً بل حرمها الإستفادة من سلطة ونفوذ وشخصية هذا الباشا السوداني(٣) ولقد أكد صاحب غرائب الزمان في فتح السودان (٤) أن حكمدار السودان لو أخذ برأي الزبير باشا و هو أن يكون حكام دارفور من أبناء ملوكها السابقين مقابل مائة ألف جنيه سنوياً (٥) لاتبعت دار فور واداي ثم برنو ثم باقرمي و غيرها من الأمارات الأفريقية ولامتد ملك مصر إلى ما وراء دارفور بكثير . فهذا الحكمدار بتصرفه أضاع على مصر هذا النفوذ ومن الغريب جداً أنه في الوقت الذي رفض فيه هذا الحكمدار رأي الزبير

---

(١) التزم الأمير حسب الله بدفع مبلغ مائة ألف جنيه سنوياً للحكومة الخديوية و في نفس الوقت يقوم بالإتفاق على الجانب الإداري و الأمني و في هذا كسب كبير للحكومة الخديوية ، فبالإضافة إلى مبلغ المائة ألف يوفر لها المبلغ الذي كان يمكن إنفاقه على الإدارة و الأمن .

(٢) كان إسماعيل أيوب في الفترة من ١٨٧٢م إلى ١٨٧٤م يشغل وظيفةمدير عموم السودان ثم أصبح حكمداراً عاماً للسودان في ٢٢ نوفمبر ١٨٧٤م و ظل في الحكمدارية حتى عام ١٨٧٧م / ١٢٩٦هـ.

(٣) جلال يحي : مصر الأفريقية ص ٦٤ طبعة القاهرة ١٩٨٤م .

(٤) محمود طلعت : غرائب الزمان في فتح السودان ص ٨٧ . مطبعة الاسلام بمصر ١٣١٤هـ .

(٥) هذا المبلغ كان قد إرتضاه الأمير حسب الله إذا وافقت الخديوية على تنصيبه ملكاً على دارفور . مذكرات الزبير باشا ـ مصدر سابق ص ٤ ـ دار الوثائق القومية بالخرطوم .

في أن يكون حكام دارفور ملوكها مقابل مبلغ معلوم من المال كان يرى الكتابة إلى سلطان واداي لكي يدفع مبلغاً معلوماً سنوياً إلى مصر ويظل حاكماً على بلاده ، غير أن الحكومة العثمانية في مصر رأت تكليف الزبير بإخضاع و ضم واداي عنوة(١) و لكن الحكمدار إعترض على هذا الرأي بحجة أن فتح دارفور قد كلف الزبير كثيراً و تكليفه بفتح واداي يضيف إليه عبئاً جديداً كما أنه سيؤثر على إستتباب الأمن في دارفور (٢) و لذلك تأجل فتح واداي .

لقد كان الحكمدار يرى في الزبير العقبة الكؤود أمام تطلعاته الشخصية والتي سوف تخطف الأضواء من حوله لذلك عقد العزم على إزاحته من طريقه ، وعدم إتاحة الفرصة له لإضافة أمجاد حربية و إدارية إلى أمجاده السابقة أو عدم إتاحة الفرصة له للإستمتاع بثمار فتوحاته ، فعمل على إخراجه من دارفور وغيرها من الأقاليم حقداً عليه و إنتقاماً منه و ذلك بعد أن شوه صورته لدى الحكومة العثمانية كإنسان همجي لا يحب التمدن ولايفقه شيئاً من الإدارة الرشيدة،(٣) متناسياً كل مظاهر التمدن و الحضارة التي صبغ بها الزبير مظاهر دولته في بحر الغزال ، فأججت جهود الحكمدار في تشويه صورة الزبير نوازع الشك بين رجال الحكومة العثمانية في إخلاص الزبير و قد ظهر الخلاف بين الحكمدار و بين الزبير لأول مرة بعد فتح دارفور ، و لكن المتتبع للأسباب التي أثارت هذا الخلاف بين الرجلين يجد أنها سبقت فتح دارفور .

---

(١) الدفتر رقم ٢١ ، صادر تلغرافات عابدين ، شفرة عربي تلغراف رقم ٢٣٨ ص ٣٢ في ١٥ من ذي القعدة سنة ١٢٩١هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم ٢٩ ، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي تلغراف رقم ٤١٢ ص ٥٣ في ٢٦ من ذي الحجة ١٢٩١هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم ٣٠ ، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ١٤٦ ص ١٨ في ٢٣ من المحرم ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .




وقد كان من الممكن أن يكون الإستقبال الكبير الذي أقامه الزبير إكراماً للحكمدار عقب وصوله إلى الفاشر و تنازل الزبير عن السلطة و تسليمه مقاليد الأمور إلى الحكمدار كان من الممكن أن يكون كل هذا نقطة تحول يتجاوز فيها الحكمدار عما يجده في نفسه على الزبير من مآخذ في سبيل المصلحة العامة .

لكن ضيق أفق الحكمدار وحقده علـى الزبير حمـلاه علـى إثارة هذا النزاع مقدماً مصالحه و مطامعه الشخصية و مضحياً بالمصلحة العامة التي كانت ترجى من جهود وإمكانات الزبير لتوسيع حدود دولته العثمانية في مناطق غرب دارفور.

و مما لاشك فيه أن أسباب هذا النزاع كانت هي العوامل الحقيقية التي عجلت باستدعاء الزبير إلى مصر فيما بعد .

و فيمايلي نوضح تلك الأسباب التي أدت إلى تواصل النزاع بين حكمدار السودان إسماعيل أيوب باشا و بين الزبير باشا .

أولا: عندما وصل إسماعيل أيوب إلى الخرطوم و تولى منصب مدير عموم قبلي السودان سنة ١٨٧٢م وجد تقريراً عن الأحداث التي وقعت بين الزبير و محمد البلالي (١) في بحر الغزال و على ضوئها كتب تقريراً رفعه إلى الحكومة العثمانية وقد جاء التقرير في مصلحة الزبير و بناء عليه وافق الحكمدار على تعيين الزبير مديراً على بحر الغزال (٢) غيرأن تعيين الزبير مديراً على بحر الغزال جاء على غير هوى إسماعيل أيوب فكتم موافقة العثمانية في مصر هذه عن الزبير وطلب منه الحضور

---

(١) الدفتر رقم ١٨٦٤ وارد معية سنية مكاتبات ص ٣٨ مكاتبة رقم ٤ في ٢٥ شعبان سنة ١٢٨٩هـ/ ٢٥ اكتوبر ١٨٧٢م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم ١٨٧٥ ، معية تركي رقم ٦٤ ، ص ٣ في غرة رجب ١٢٩٠هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .




إلى الخرطوم ليناقشه في أمـر تعيينه مديراً على بحر الغـزال (١) ثم ذكر لـه أنـه متى حضر إلى الخرطوم و تعهد بانفاذ ما سيشترطه عليه يمكن لـه أن يكـون حاكمـاً على بحر الغزال (٢) .

و هنا يبرز سؤالان : أولهما لماذا كان إسماعيل مؤيداً للزبير باشا في تقريـره الذي بعث به إلى القاهرة و ثانيهما لماذا أصبح ضنينـاً بتسليم الزبـير منصبـه الـذي أنعمت به العثمانية في مصر و لاشك في أن الإجابة على هـذين السؤالين إستنتاجيه تؤخذ من إستنطاق الوقائع عليه ؟

فربما كان المدير يعلق آمالاً كبيرة على مقابلة الزبير في الخرطـوم هذه الآمال تتعلق بمطامعه الشخصية و طموحاته المالية و قد رأى بعض الباحثين أن حكمدار السودان إسماعيل أيوب ما كتب تقريره فـي صـالح الزبـير باشـا بـادئ ذي بـدء إلا لمصلحة شخصية و ذلك للحصول على بعض الهدايا و المال من الزبير باشا (٣) .

و كيفما كان الأمر فإن الزبـير تـأخر علـى الرغـم مـن موافقتـه علـى الحضـور إلـى الخرطوم للقاء حكمدار السودان و ذلك بسبب حربه مع قبائل الرزيقات ، و قد بعـث إلى حكمدار السودان يعتذر بإنشغاله بهذه الحرب و قد قبـل الحكمـدار عـذر الزبـير عسى أن يأتيه بعد إنتهاء الحرب بينه و بين الرزيقات ، و لكن عدم حضـور الزبـير إلى الخرطوم على الرغم من إنتهاء حربه مع الرزيقات (٤) كان من أوائـل الأسباب التي أججت الخلاف بين إسماعيل أيوب باشا و الزبير باشا .

---

(١) الدفتر رقم ١٨٦٤ ، معية تركي ، ص ٣٨ ، في ٢٥ شعبان ١٢٨٩هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم ١٨٧٥ ، معية تركب ، رقم ٦٤ ص ٦٤ ص٣ ، غرة رجب ١٢٩٠هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة

(٣) عثمان عمر فضل : العلاقات بين سلطنة دارفور و الحكم التركي المصري سنة ١٨٢١ ـ ١٨٨٤ م ص ٢١٥ . رسالة دكتوراه جامعة القاهرة .

(٤) إن نهاية حرب الرزيقات قادت إلى الحرب مع سلطنة دارفور و لكن الحكمدار لم يكن يرغب في أن يبدأ الزبير هذه الحرب و كان يلح في حضور الزبير إلى الخرطوم .



ثانياً: انكشاف حقيقة الهدايا التي بعث بها الزبير باشا إلى الحكمدار و قدرها ثلاثة آلاف جنيه و قد إعتبرتها الخديوية رشوة و أمرت الحكمدار بردها إلى الزبير والإستفادة منها في بناء مسجد و مكتبة في بحر الغزال غير أن حكمدار السودان لم يرد هذه الأموال إلى الزبير باشا ، ثم تعلل بأنه أرسل ثلثي هذا المبلغ إلى القاهرة بإسمه(١) أي بإسم الحكمدار و كان الزبير أثناء وجوده في دارفور يطالب الحكمدار ببعض تلك المبالغ التي إستولى عليها من الخزانة المرسلة من بحر الغزال (٢) وقد ذكر صاحب كتاب (غرائب الزمان) (٣) أن حكمدار السودان إسماعيل أيوب باع الهدية و قبض ثمنها البالغ ثلاثة آلاف جنيه و لما انتشر الخبر بين الأهالي و التجار الأوروبيين خاف الحكمدار وأبرق إلى العثمانية في مصر بأمر هدية الزبير باشا فجاءه الرد بإرجاع المبلغ إلى الزبير للإستفادة منه في بناء مسجد ومكتبة ببحر الغزال (٤) .

إذن فقد كان المال وراء الخصومة بين الحكمدار و الزبير باشا ، و بدأ الحكمدار يكيد للزبير و يعمل على إقصائه عن منصبه فوقف ضده في مواقف كثيرة في سبيل تحقيق هدفه هذا و سنتعرض فيمايلي للأحداث التاريخية التي تضمنت تلك المواقف العدوانية التي وقفها الحكمدار من الزبير .

---

(١) الدفتر رقم ١٦ ، صادر عابدين ، شفرة تركي ، التلغراف رقم ٧٠ في ٢٩ من رجب ١٢٩٠م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) عثمان عمر : العلاقات بين سلطنة دارفور و الحكم التركي المصري مرجع سابق ص ٢١٥ .

(٣) محمود طلعت : غرائب الزمان في فتح السودان مصدر سابق ص ٥٨/٥٧

(٤) أكد صاحب كتاب غرائب الزمان ص ٥٨ أنها هي أموال الهدية و لكن ليس هناك مايقطع بأنها هي و إن كنت أميل إلى أنها هي لأن صاحب كتاب غرائب الزمان معاصر للزبير و قابله في كردفان و ربما أكد له الزبير أو أحد أتباعه ذلك و إن لم يشر إلى ذلك .

فعندما فتح الزبير شكا حاصره عرب الرزيقات أبلغ إسماعيل أيوب بذلك ، وطلب منه أن يمده بعساكر يلتزم بإقامتهم في تلك الجهات ، على أن يرسل الزبير ضعف هذا العدد من المردان الجدد(١) و لكن الحكمدار شكك في نوايا الزبير أمام المسؤلين في القاهرة ، بل طلب من الزبير الحضور إلى الخرطوم ليتأكد من حقيقة أمره ثم يمده بما يحتاج إليه من عساكر.

و قد شدد الحكمدار إسماعيل أيوب على ضرورة حضور الزبير إلى الخرطوم و إتهمه بالمراوغة بل إعتبر طلباته مماطلة لتجنب القدوم لمقابلته ، وأخذ عليه أنه دخل (شكا) دون إذنه و هذا على الرغم من ثناء القاهرة على خطوات الزبير في شكا ، كما أخذ يستهين بما حققه الزبير من إنتصارات على عرب الرزيقات ، و كذلك بموقفه العسكري في المناطق التي فتحها ، فطلب الحكمدار من الزبير أن يجعل قواته في مكان آمن ثم يأتي إلى الخرطوم غير مبال بما يمكن أن تتعرض له هذه القوات في غياب قائدهم الزبير .

وقد تعلل إسماعيل باشا في عدم نجدته للزبير بعدم وجود جنود يبعث بهم إليه ثم قرن ذلك بحضور الزبير شخصياً ، و لم يكن هذا الموقف سوى مماطلة من الحكمدار و مناورة أراد أن بها إلى التنصل من إرسال الجنود إلى الزبير فلما إنكشف أمره أمام الحكومة العثمانية في مصر ووضع أمام الأمر الواقع إجتهد و قام بنفسه لنجدة الزبير على الرغم من أنه كان يؤكد فيما مضى أن إرسال النجدة إلى الزبير يؤدي إلى توتر العلاقات بين الحكومة العثمانية في مصر و سلطنة دارفور(٢)

(١) المردان الجدد : الشباب الصغار الذين لم تنبت لحاهم و ذلك حتى ينشأوا في الجندية و هم صغار فينشأوا
(٢) الدفتر رقم ٢٢، وارد تلغراف عابدين ، شفرة عربي ، رقم ٢٦ في نهاية شوال ١٢٩٠هـ .

و أخيراً استقر رأي الحكمدار على إبعاد الزبير إذا لم يحضر و تعيين آخر مكانه في بحر الغزال وضم إدارة شكا إلى كردفان (١) و هو بذلك يريد إبعاده من المناطق التي فتحها بجهده و ماله و رجاله دون إعتبار لما يسببه هذا الإبعاد من مصاعب للزبيرو للدولة ، و عندما جاءت التعليمات من القاهرة بضرورة ترتيب النجدة و إرسالها إلى الزبير أعلن إسماعيل أن الزبير لا يستطيع تحمل أعباء هذه القوات ، و قد أعلن إسماعيل رأيه هذا دون أن يدري مدى إمكانيات الزبير لإعاشة هذا العدد من العساكر و إقترح في الوقت نفسه إرسال قوة تساعد الزبير فب بسط الأمن على بحر الغزال ثم أخذ يكاتب الزبير ليعرف رأيه (٢) وإحتياجاته من العساكر بدقة ووضوح و تلك مناورة أخرى هدف بها إلى تأجيل إرسال القوات أو عدم إرسالها.

و حقيقة الأمر هي أن الحكمدار لم يكن يريد للزبير أن ينال شرف فتح دارفور لذلك إقترح إقتراحاً من شأنه أن يعطل هذا الفتح أو يفشله و هو أن يكون فتح دارفور من جهتي الجنوب و الشرق فكان من البديهي أن لا توافقه القاهرة وأكثر منه بأن يكون الهجوم من جهة بحر الغزال فقط (٣) و أن الإعتماد سوف يكون على الزبير ، فلم يهتم إسماعيل أيوب بإمداد الزبير بالعون اللازم له .

و عندما شعر حكمدار السودان بجدية الزبير و سعيه لفتح دارفور و خشي أن يفتضح أمره في القاهرة إضطر إلى الإهتمام بتقديم المساعدة العسكرية إلى الزبير فقاد بنفسه القوات المطلوبة بحجة أن المساعدة في فتح دارفور تتطلب أن يتحرك بنفسه على رأس حملة كردفان ، لكن الحقيقة كانت تكمن في أنه كان يريد إنتزاع القيادة و شرف الفتح من الزبير .

---

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) الدفتر رقم ٢٣ ، وارد عابدين ، تلغراف ، شفرة تركي ١٧٥ ص ٣ في ٨ من المحرم ١٢٩١هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم ٢٤ ، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، التغراف رقم ٥٧١ ، ص ٨٣ في ٧ من جمادي الأول ١٢٩١هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .




قاد الحكمدار الحملة بنفسه من جهة كردفان و بذلك أصبحت خطة فتح دارفور واقعياً من جهتين ، الزبير من جهة الجنوب ، و الحكمدار من جهة الشرق على أن يلتقي الجيشان في دارا.

وصل الزبير في أثناء سير معاركه إلى دارا و هناك حاصرته جيوش الفور و كان من المنتظر أن تصل جيوش الحكومة القادمة من الشرق بقيادة الحكمدار ولكن الحكمدار أبطأ في سيره جداً و عند وصوله إلى فوجة و علم بحصار الزبير في دارا كتب إليه يقول : إني جئتك بنجدة فتشدد فما كان من الزبير إلا أن طلب في غضب من الحكمدار أن يسرع إلى نجدته و كان الحكمدار يومئذٍ في أم شنقة فرد عليه غاضباً أيضاً (ما أنا أمرتك بالتقدم إلى دارة و لا أفندينا فإن إستطعت أن ترفع الحصار و تنجو بجيشك إلى هنا فافعل،و إلا فدبر أمرك بما تراه صواباً) (١) .
و أصبح الموقف بين الرجلين هو أن الحكمدار لم يكن راضياً عن تقدم الزبير كما أن الزبير لم يكن يريد للحكمدار أن يشاركه شرف فتح دارفور ، لذلك عندما سقطت الفاشر و دخلها الزبير قبل وصول الحكمدار كان في دواخله مسروراً جداً لأن الحكمدار لم يشاركه شرف فتح دارفور و ضمها إلى جسم الدولة الخديوية ، وعندما وصل الحكمدار إلى الفاشر كان في دواخله غاضباً جداً بسبب فشل مساعيه في تحطيم قوة الزبير أو كسب شرف القيادة لضم دارفور .

و على الرغم من الإحتفال الكبير الذي إستقبله به الزبير و تنازله له عن السلطة ، فلقد كان الحكمدار يشعر بالقلق و يحاول أن يحرر نفسه من كابوس الزبير يتخبط في قراراته بين التمسك بالزبير و بين الإستغناء عنه (٢) .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨١ .
سعد الدين الزبير : الزبيرباشا رجل السودان مصدر سابق ص ٨٦/٨٧ .
(٢) عثمان عمر فضل : العلاقات بين سلطنة دارفور و الحكم التركي مرجع سابق ص ٢٢١ .




و قد أشار سلاطين (١) إلى واقعة يعتقد أنها زادت الخلاف بين الرجلين و هو أن الزبير و جنوده استأثروا بالأموال التي خلفها السلطان إبراهيم بجانب عدد كبير من الإماء ، و لكن يبدو أن هذه الواقعة غير صحيحة لأن الزبير لم يذكرها ، كذلك لم يذكرها الحكمداروهو الذي كان يبحث عن كل نقيضة يرمي بها الزبير (٢) و مما يؤكد عدم صحة هذا الخبر أن النور عنقرة (٣) قال في مذكراته : ودخلنا الفاشر استلمناه واستلمنا جميع مخازنه المليانة من الذهب والجواهر والفضة وقام و حضر لنا باقرب وقت و يقصد الحكمدار إسماعيل أيوب،لأنه كان منتظر أخبارنا ، بحضوره سلمناه جميع المخازن المليانة مما جميعه) (٤) و مما زاد الخلاف بين الرجلين بعد سقوط الفاشر أيضاً إختلافهما حول الأمير حسب الله وكان الزبير قد طلب من الحكمدار أن يحكم الأمير حسب الله دارفور باسم الحكومة العثمانية مقابل جزية (ضريبة) سنوية فرفض الحكمدار ذلك (٥) و إعتبر هذا المطلب تدخلاً من الزبير في شئونه ، وأمره بالطاعة والإمتثال بالتوجه إلى دارا و البقاء فيها إلى أن يُصدر إليه أمراً آخر بالتوجه إلى بحر الغزال (٦) و قد كان الخلاف بين الرجلين

---

(١) سلاطين : ضابط نمساوي و لد سنة ١٨٥٧م في فيينا ثم جاء مصر سنة ١٨٧٨ فعينه غردون حاكماً على دارفور سنة ١٨٨٤م . أسرته جيوش المهدية حتى عام ١٨٩٥م ثم فر إلى مصر و اشترك في استرداد السودان و أصبح موظف في حكومة السودان حتى ١٩١٤م عند الحرب العالمية الأولى فترك السودان ورجع إلى بلاده حيث دخل في خدمة الصليب الأحمر وكتب كتاباً سماه السيف والنار تحدث فيه عن قصة أسره وفراره من جنود المهدية وعامل فيه على الخليفة عبدالله كثيراً.
سلاطين : السيف و النار ص ٨ ط٣ دار الجيل بيروت / لبنان سنة ١٤٠٨هـ /١٩٨٨م .

(٢) عثمان عمر العلاقات بين سلطنة دارفور والحكم التركي مرجع سابق ص ٢٢٢ .

(٣) النور عنقرة محمد : ولد عام ١٨٤٤ تقريباً و أصبح أحد قادة الزبير باشا ثم صار أحد قادة الحكم التركي بعد مقتل سليمان بن الزبير ، ثم أصبح من أبرز قادة المهدية فيما بعد .

(٤) تاريخ حياة النور عنقرة ـ دار الوثائق بالخرطوم رقم ١١٩٠/ ١١٦٧

(٥) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨١ .

(٦) محمود طلعت : غرائب الزمان مصدر سابق ص ٥٩ / ٦٠ .
نعوم شقير : تاريخ السودان مصد سابق ص٢٨٢ .



حول الأمير حسب الله قد أدى إلى إزدياد النفور بينهما ، إذ إعتبر الحكمدار رأي الزبير تدخلاً في شئون سلطته كما إعتقد الزبير أن الخحكمدار صادر حقه في المشاركة بالرأي و العمل ، و أنه بإتفاقه مع الأمير حسب الله حقن الدماء بين الحكومة و الدارفوريين ، و أسس دعائم الأمن في تلك الربوع ، وو فر على الحكومة باهظ النفقات كما أن الزبير كان يرى أنه أعطى كلمة شرف للأمير حسب الله و أنه لا بد من أن ينفذ ما وعد ، و كان على الحكمدار أن يرعى هذا العهد والميثاق و يحفظ عليه كرامته ، و شعر الزبير أن الحكمدار أهانه إهانة بالغة ، وطعنه بخلاف في كرامته بعدم إمضائه العهد الذي قطعه الزبير للأمير حسب الله .

ذكر صاحب غرائب الزمان أن الحكمدار تشكك في نوايا الزبير نتيجة وقيعة بثها بين الرجلين ، محمد إمام زوج أخت السلطان إبراهيم سلطان الفور فحواها أن إتفاقاً وقع بين الزبير و الأمير حسب الله على معصية الحكومة (١) فتخوف الحكمدار من ذلك و رفض طلب الزبيربتنصيب الأمير حسب الله ملكاً على على دارفور ، ثم كان إعتراض الزبير على تلك الضرائب الباهظة التي فرضها الحكمدار على أهالي دارفور القشة التي قصمت ظهر البعير فقد قدّم الزبير إعتراضه على تلك الضرائب إلى حكمدار السودان كتابةً مخلياً بذلك مسئوليته عنها فاشتاط الحكمدار غضباً ، وأصدر أوامره إلى الزبير بالتوجه فوراً إلى بحر الغزال .

و شعر الزبير بأن ثمة مؤامرة تحاك ضده إذ بوصوله إلى دارا أتته برقية من مصر تأمره بعدم التعرض للحكمدار (٢) فتيقن أن الحكمدار قد شكاه إلى حضرة الحكومة العثمانية بمصر ، و أنه طعن في صداقته لها و إخلاصه لها . كما علم أيضاً برغبة الحكمدار في تسريح جنوده و إستلام مشاريعه ببحر الغزال (٣) . فتأكد الزبير أن الحكمدار يهدف إلى حرمانه من جني ثمار إنتصاراته (٤) .

---

(١) محمود طلعت : غرائب الزمان . مصدر سابق ص ٦٣ .

(٢) الدفتر رقم ٢٥ ، صادر تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، رقم ٦٩ في ٢١ من شعبان ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم ٢١ ، صادر تلغرافات عابدين ، شفرة تركي التلغراف رقم ٦٩١ في ١٩ من المحرم سنة١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) الدفتر رقم ٣٢ ، وارد عابدين ، التلغراف رقم ٤٢٨ في ٢١ من رجب ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .




و اعتقد الزبير خطأ أن رأي الوالي العثماني فيه مغاير لرأي الحكمدار ، فطلب الإذن بالذهاب إلى مصر لعرض الأمر على الوالي العثماني و رجال حكومته والتباحث معهم حول البلاد التي يمكن فتحها في المستقبل (١) فجاءه الرد بالموافقة (٢) . ولم يكن الزبير يدرك أن الشفرات المتبادلة بين الحكمدار والمهردار (٣) هي التي تملي السياسة و أن السياسة في هذا العصر لها ظاهر و باطن و قد شرح ذلك المؤرخ مكي شبيكة بقوله(إن الزبير بحكم تربيته وسلوكه ووسطه ما كان يدرك أن للسياسة ظاهراً و باطناً و ما كان له أن يدرك طريقة الدسائس التركية ، فما يبديه له الحكمدار من لين و قول يأخذه على أنه حقيقة ، و لم يستشعر أن هناك تخوفاً من جانبه كتمرد أو عصيان أو إستقلال ، وهوعلى ما تعود عليه ما كان مخادعاً في ولائه للحكومة الخديوية ، بل داوم على إخلاصه ، غير أن العنصر التركي الحاكم في ذلك الوقت ما كان يصدق أن رجلاً عصامياً مثل الزبير بنى لنفسه مجداً في مجاهل أفريقيا ، و فتح بلاد دارفور من موارده الخاصة ـ يكون خلواً من المطامع . و ماكان هؤلاء الحكام بحكم تربيتهم وتقاليدهم التركية أن يطمئنوا إلى مثل هذا الرجل ، فقد تعني أقواله الظاهرة معنىً يخالف ما يبطنه في ضميره ، و لذلك كان موقف الحكمدار منذ البداية موقف الحذروالإحتراس) (٤) .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٤ .

(٢) الدفتر رقم ٢٣ ، صادر عابدين ، التلغراف العربي رقم ٢٠٨ ، ص ٣٦ في ١٦ من جمادي الأولى ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) حافظ مُهر الوزير (ختمه) فارسي الأصل و أخذ العرب (المهر) منه مهر ، يمهر .
عاتق بن غيث البلادي ـ معجم الكلمات الأعجمية و العربية في التاريخ الإسلامي ص ١٠٢ . ط مكة المكرمة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م .

(٤) مكي شبيكة : السودان في قرن مرجع سابق ص ٩٥/٩٦.



كانت تلك هي حصيلة الأسباب التي حدت بالزبير ليطلب الإذن بالسفر إلى القاهرة ، وهي في النهاية عوامل إستدعائه إلى مصر ، و التي واكبتها عوامل أخرى (٢) غير مباشرة كان لها أثرها في دفعه نحو مصر كما كانت لها بصماتها الواضحة في استبقائه هناك خاصة إذا علمنا أن في هذا الوقت وصل بيكر باشا إلى خط الإستواء .

و خلاصة الأمر هو أن دواعي إستدعاء الزبير رحمت إلى القاهرة هو مجموع الأسباب التي أدت إلى تفاقم الخلاف بين الزبير باشا و الحكمدار إسماعيل أيوب الحاكم باسم الحكومة العثمانية .

و أول هذه الأسباب: تأخر الزبير عن الحضور إلى الخرطوم لمقابلته والموافقة على شروطه في تولي إدارة مديرية بحر الغزال و ذلك لإنشغاله بحربة ضد قبائل الرزيقات .

ثاني هذه الأسباب: إنكشاف أمر مبلغ الثلاثة آلاف جنيه التي بعثها الزبير كهدية للحكومة العثمانية ، و لكن الحكمدار إستأثر بها لمصلحته الشخصية ، فأمرته الحكومة العثمانية بردها إلى الزبير ليبني بها مسجداً ة مكتبة في بحر الغزال .

ثالث هذه الأسباب: عدم نجدة الحكمدار إسماعيل أيوب الزبير عندما كان محاصراً في دارا من قبل قوات الفور .

---

(١) جهود الإنجليز في ذلك كانت واضحة تمام الوضوح لأن المتتبع لسياسة الإنجليز في السودان يكاد يجزم بأنهم وراء إرسال الزبير إلى القاهرة ذلك لأنه في هذا الوقت وصل بيكر باشا إلى خط الإستواء ، فإذا رجع الزبير إلى بحر الغزال فسيكون عقبة أمام سياسة الإنجليز في الجنوب ، و ربما دارت حرب بين بيكر والزبير ، لذا فالضرورة تقضي بسفره إلى القاهرة ، أما إستبقاؤه في القاهرة فقد كان للإنجليز يد واضحة فيه ، كما أن قدوم غوردون حكمداراً خلفا لإسماعيل أيوب أدى إلى عدم رجوع الزبير من القاهرة إلى السودان و هذا ما حدث بالضبط . و إن مسارعة محاربة الإنجليز للزبير و أسرته و الإساءة إلى سمعته دليل على أنهم كانوا وراء إبعاده عن السودان .



رابع هذه الأسباب: إنفراد الزبير بفتح دارفور وسقوط عاصمتها الفاشر ، وهو ما أجج نيران حقد الحكمدار عليه .

خامس هذه الأسباب : إختلاف الزبير و الحكمدار حول تولي الأمير حسب الله أمارة دارفور حيث سانده الأول و رفضه الثاني ، كذلك إعتراض الزبير على الضرائب الباهظة التي فرضها الحكمدارعلى أهالي دارفور، هذا بالإضافة إلى بعض الخلافات الشخصية التي كانت قائمة بين الحكمدار و الزبير حيث كان الأخير يتمتع ببعض القدرات الإدارية و العسكرية و المالية والتي قصرت عنها همة الحكمدار إسماعيل أيوب وجعلته يشعر بالنقص أمام الزبير وكل هذا أثار في نفسه نوازع الحسد و الحقد و الكراهية للزبير و دفعه إلى تشويه صورته أمام رجال الحكومة العثمانية و التشكيك في ولائه و إخلاصه لها فاستدعته الحكومة الخديوية إلى القاهرة للبقاء فيها وعلى صعيد آخر كان الإنجليز يحبذون بقاء الزبير في القاهرة و ذلك حتى يخلو لهم الجو لتنفيذ سياستهم المتمثلة في نشر المسيحية والثقافة الإنجليزية و محاربة اللغة العربية و الثقافة الإسلامية في السودان عموماً وفي جنوبه على وجه الخصوص .





الفصل الرابع

المبحث الثالث :

حملة جسي على بحر الغزال وعلاقة غوردون بمقتل سليمان إبن الزبير.




حملة جسي على بحر الغزال:

سبق أن ذكرنا أن الخلاف قد إستفحل بين إسماعيل باشا أيوب حكمدار السودان و بين الزبير باشا بعد سقوط الفاشر عاصمة سلطنة الفور في سنة ١٢٩٠هـ /١٨٧٤م و ذلك حين رأى الزبير باشا أن يتولى الأمير حسب الله عم السلطان إبراهيم آخر سلاطين دارفور السلطة في دارفور بإسم الحكومة المصرية مقابل أموال تقررها عليه الحكومة العثمانية يدفعها سنوياً، فرفض الحكمدار إسماعيل أيوب هذا الرأي و اعتبره تدخلاً من الزبير في شئونه كذلك إعترض الزبير في سنة ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م على الضرائب التي فرضها الحكمدار على أهل دارفور ، فما كان من الحكمدار إلا أن طلب من الزبير الخروج من دارفور والتوجه إلى بحر الغزال .

و عندئذٍ تيقن الزبير بأن الحكمدار يتآمر عليه و يعمل على تشويه صورته أمام الخديوي فأرسل الزبير برقية طالباً فيها من الوالي العثماني السماح له بالحضور إلى مصر لعرض قضيته هناك ، فأذن له الوالي (١) ، فوصل إلى القاهرة في السادس من جمادي الأولى سنة ١٢٩٢هـ الموافق العاشر من يونيو سنة ١٨٧٥م .

ذهب الزبير باشا إلى مصر ، و ترك إبنه سليمان و هو شاب يناهز العشرين عاماً على قيادة جيشه يعاونه قادة مخلصون من أمثال رابح فضل الله ، فخرج سليمان على رأس جيش قُدر بأربعة آلاف جندي إلى منطقة شكا و مكث بها حتى قدوم غردون باشا حكمداراً على السودان بدلاً من إسماعيل أيوب في سنة ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م ، و مما يجدر ذكره أن الوالي إسماعيل عندما أصدر قرار تعيين

---

(١) الدفتر رقم (٢٣) صادر عابدين ، التلغراف رقم ٢٠٨ ص ٣٦ في ١٦ من جماد الأولى سنة ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

غوردون حكمداراً على السودان كان يظن أن غردون سوف يعمل جاهداً على إعلاء شأن مصر في السودان و أنه سوف يقيم العدل و يبسط الأمن بإسمها ، ولم يدر أن طلائع الإنجليز الذين يمثلهم غردون و بيكر من قبله إنما جاءوا في المقام الأول للعمل على تنفيذ سياسة بلدانهم ، و هي محاولة تشويه صورة مصر في أذهان السودانيين ثم العمل على فصل السودان عن مصر تمهيداً لوضعه في يد إنجلترا في المستقبل (١) .

و لما وصل غردون إلى السودان أظهر العمل من أجل مصر و أخفى العمل على رفع يدها عن السودان ، فكان طبيعياً أن تمتلئ نفسه حقداً على أولئك الذين يكنون الود و الإخلاص لمصر و في مقدمة هؤلاء الزبير باشا و أهله (٢) لأنهم أدوا لمصرخدمات عظيمة و فتحوا لها أبواباً لم تكن في حسبانها ، حتى ظن رجال بريطانيا أن هؤلاء شجعوا مصر على منافسة الدولة الإنجليزية في أفريقيا (٣) ومطاولتها في إستعمار أراضيها ، هذه هي الأسباب الحقيقية وراء إنتقام غوردون من عائلة الزبير ، و أعظم أعماله الإنتقامية التي وجهها إلى تلك العائلة هي قتله سليمان بن الزبير باشا و أعمامه .

و لكن غوردون إلتمس أسباباً أخرى حيث أشاع أن ثورة سليمان بن الزبير كانت بتحريض من والده الزبير لكي تستبقيه الحكومة الخديوية في القاهرة وتمنعه من الرجوع إلى السودان (٤) .

---

(١) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل مرجع سابق ص ١٦٩ ـ ١٧٠ .

(٢) فتح الزبير دارفور بإسم مصر كما عمل على نشر الإسلام و اللغة العربية في منطقة بحر الغزال بجنوب السودان باسم مصر أيضاً .

(٣) محمود طلعت : غرائب الزمان مصدر سابق ص ١٠١ .

(٤) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٧٦ .




ثم لم يلبث غوردون أن أرسل إلى سليمان بن الزبير المتمركز بقواته في منطقة شكا ليأتي إلى دارا مع جيشه ، فصدع سليمان بالأمر و تحرك بقواته إلى دارا ، و هناك إجتمع بغوردون في شهر أغسطس سنة ١٢٩٤هـ /١٨٧٧م و لما كان غوردون يبحث عن ذريعة لايجاد أسباب العداوة بينه و بين سليمان الزبير فقد جاءت وشاية السعيد بك حسين أحد سناجق(١) الجيش لتصب النار على الزيت ، فقد إدعى السعيد بك أن الزبير أوصى إبنه بالثورة إذا لم يرجع من مصر سريعاً (٢)

و السؤال الذي يطرح نفسه هنا لماذا إنتظر سليمان هذه المدة التي تزيد على السنتين منذ أن وصل والده إلى القاهرة مع أن والده أوصاه بالثورة إذا لم يرجع سريعاً ؟ حسب إدعاءات السعيد بك ؟ .

أما غوردون فإنه عمل بهذه الوشاية دون أن يتحرى صدقها أو كذبها لأنها متوائمة مع مخططاته في السودان ، فقد قرر الإستفادة منها ، فعمل على تشتيت جيش سليمان لإضعاف مركزه ، فأعطى السعيد بك ألف رجل من جيش سليمان بن الزبير و نصبه مديراً على شكا ، و أعطى جزءاً للنور بك عنقرة أحد سناجق جيش سليمان و أرسله إلى كبكابية (٣) ثم أمر سليمان بأن يتوجه في قلة من رجاله إلى شكا .

و قد فعل غوردون ذلك بقصد الإهانة لسليمان أولاً ثم الإحالة بينه و بين الثورة ثانياً .

---

(١) السنجق : رتبة رئيس ألف جندي .
عائق بن غيث البلادي الكلمات الأعجمية والغربية في التاريخ الاسلامي مرجع سابق ص ٦٩ .

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٩٧ .

(٣) أنظر الخريطة رقم




و لكن كما قال كرومر إن غوردون رجل سريع التقلب في آرائه لدرجة الشذوذ (١) فما يعتقده بالأمس يعتنق ضده اليوم وما يبرمه اليوم ينقضه غداً . وقد وصفه الجنرال إستيوارت الذي رافقه إلى الخرطوم بقوله:(إنني لم أجد في حياتي رجلاً جامح التفكير و الخيال كالجنرال غوردون فإنه ما يكاد يعثر على فكرة ما حتى يسارع إلى تنفيذها) (٢) و معنى هذا أن غوردون كان يعمل دون تروٍ أو دراسة ، و هو أمر يعيب الرجل العادي فما بالك برجلٍ يشغل وظيفة كبرى كحكمدارية عموم السودان ؟ .

و إنطلاقاً من تصرفات غوردون المتناقضة ما كاد سليمان يصل إلى شكا حتى لحق به غوردون مطيباً خاطره و أنعم عليه برتبة بك ، و سماه مديراً على بحر الغزال (٣) فسر سليمان ، ثم توجه إلى مقر حكمه و قصبة ملك أبيه من قبل (ديم زبير) ، و التي خرج منها منذ أكثر من أربع سنوات عندما رافق أباه لمحاربة الفور ، و كان الزبير عند خروجه منها قد خلف وكيلاً عنه و هو رجل يسمى إدريس أبتر أحد تجار الدناقلة (٤) و كان الزبير قد حدد له راتباً معيناً إلا أن إدريس سار سيرة سيئة في الحكم و لم يهتم بشئ إلا مصالحه الشخصية .

و عندما أراد سليمان محاكمته أمام مجلس قضائي فر إلى الخرطوم ، ووشى به عند غوردون مدعياً أنه يريد الإستقلال ببحر الغزال ملك أبيه من قبل ، فما كان من غوردون إلا أن زود إدريس أبتر ببعض السلاح و الرجال و عينه مديراً على بحر الغزال فتوجه إلى بحر الغزال ليباشر سلطاته ، غير أن هذا التعيين النابع من المكيدة أثار حفيظة سليمان فعده إهانة شخصية له ، إذ كيف يمكنه أن يعمل تحت حكم رجل من عبيد أبيه ؟ فما كان منه إلا أن هاجم رجال ادريس أبتر و شتت

---

(١) اللورد كرومر : بريطانيا في السودان ص ١٥ . ترجمة عبد العزيز أحمد عرابي القاهرة ١٩٦٠م .

(٢) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٧٨ .

(٣) نعوم شقير : تاريخ السودان مصد سابق ص ٢٩٧ .

(٤) الدناقلة : قبيلة تقطن شمال السودان مركزها مدينة دنقله و رجالها الذين عملوا بالجنوب ساندوا الزبير باشا رغم العداء الذي بينهم و بين قبيلة الجعليين الذي كان ينتمي إليهم الزبير .

جمعهم ، و استولى على أسلحتهم ، أما إدريس فإنه نجا بأعجوبة . فلما أن وصل خبر هزيمة إدريس أبتر إلى غوردون إعتبر ما قام به سليمان بن الزبير خروجاً على طاعة الحكومة الخديوية فكتب في١٢٩٥هـ ٧من يونيو ١٨٧٨م إلىالخديوي البرقية التاليــة (١) .

(يوم تاريخه وردت لنا مكاتبة من خط الإستواء تفيد تأكيد ما بلغنا من أن إبن الزبير باشا تحارب مع مديرية بحر الغزال ، و أنه هجم على المركز ، و بارز بالعصيان ، و مستعد للمحاربة ، و قتل من قتله ، و أخذ ما أخذوه من أمتعة وأسلحة الميري . و حيث الآن تأكد عصيان إبن الزبير باشا فإذا وافق عظمة الخديوي يؤمر بالقبض على والده ووضعه في الحديد و ضبط جميع نقوده وأمتعته الموجودة معه كون بلغنا أنه يوجد معه زيادة على خمسة آلاف جنيه مع الترخيص لنا ببيع جميع أمتعته الموجودة بالسودان و توريدها للميري و ضبط أقاربه و سجنهم وإلا فالأمر مفوض) .

و لم ينتظر غوردون رد الخديوي (٢) بل أمر بالقبض على أقارب الزبير والزج بهم في السجن و بيع ممتلكاتهم لصالح الخزينة العامة ، ثم شرع في تجهيز حملة أسند قيادتها إلى ضابط إيطالي يدعى رومولوجسي (٣) ROMOLO GESSI

---

(١) دفتر رقم ٥٠ عابدين وارد تلغرافات في ٧ من يوليو ١٨٧٨م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) و هذا مما يؤكد سوء النية و القصد و الرغبة في الإنتقام و أنه ينفذ سياسات غير سياسات الحكومة الخديوية و إلا إنتظر رد الحكومة الخديوية و تصرف على حسب موجهات الرد .

(٣) رومولوجسي : إيطالي الجنسية ولد في القسطنطينية في عام ١٨٣٢م من أب إيطالي و أم أرمنية . عمل مترجماً للقوات البريطانية في القرم و ملحقاً بقيادة المدفعية ، ثم عمل مع غوردون في السودان ، فأرسله غوردون إلى جنوب السودان لإكتشاف منابع النيل ما بين عامي ١٨٧٣م إلى ١٨٧٦م ، كما إشتغل بكثير من المسائل السياسية و الإدارية ة أوكل إليه غوردون مهمة القضاء على ثورة سليمان بن الزبير و التنكيل بأهله بعد أن عينه غوردون حاكماً على بحر الغزال و أنعم عليه برتبة باشا و ظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٨٨٠ ، .

النيل الأبيض : جورهيد ص ١٧٥ و ما بعدها ، ترجمة محمد بدر الدين خليل .




فدارت عدة معارك ذكرغوردون أن عددها أثنتاعشر معركة (١) لم يحالف النصر فيها أحد الفريقين و إستمرت هذه المعارك عاماً كاملاً حتىوصلت رسالة مزعومة من الزبير باشا يطلب فيه من إبنه التسليم للحكومة و الإعتذارعما بدر منه (٢) فما كان من سليمان إلا أن عمل بوصية والده فاستسلم لجسي في ١٤ من يوليو ١٢٩٦هـ /١٨٧٩م بعد أن أعطاه الأمان و لكن جسي لم يوف بوعده فأعدم سليمان و ثمانية من أعمامه و لم يتجاوز عمر سليمان بن الزبير ٢٢ سنة في هذا الوقت و كان ذلك في السنة الثالثة من ذهاب أبيه إلى مصر و قد رفع الزبير قضية ضد الحكومة المصرية و التركية مطالباً بدية إبنه التي قدرت بمليوني جنيه مصري أو مليون ونصف مليون من الجنيهات المصرية و قد كسب الزبير القضية فعرض رجال الحكومة المصرية عليه ثلاثة آلاف فدان في القناطر الخيرية أو أن يأخذ معاشاً مستديماً يظل بعد موته لأولاده ، و قد نصحه صديقه عبد القادر باشا بأخذ المعاش (٣) و لكنه لم يرض به(٤) .

و لاشك في أن العلاقة بين غوردون حكمدار السودان و بين مؤامرة القضاء على سليمان بن الزبير و أعمامه كانت علاقة وثيقة لأنه صاحبها و مدبرها فهو دفع سليمان دفعاً إلى الثورة ثم عمل على القضاء عليه ليحقق أهدافاً إستعمارية خطط لها سلفاً (٥) وحتى لا يتحمل هو وزر هذه الجناية إدعى أسباباً شتى منها : أن الزبيرأرسل إلى إبنه سليمان خطاباً يحرضه فيه على الثورة (٦).

---

(١) تقرير كتبه غوردون عن أسباب مقتل سليمان بن الزبير يقع في ٢٤ صفحة ذكر فيها من ص ١٦ إلى ص ٢٣ أسباب هذه المعارك ، و أعداد الطرفين و عدد من مات و جرح خلال كل معركة من الطرفين دار الوثائق القومية بالخرطوم ١/١٥/٧٤

(٢) محمود طلعت : غرائب الزمان في فتح السودان مصدر سابق ص ١٠٠ .

(٣) رواية الياس الزبير : شريط كاسيت رقم ٢٦٨ معهد الدراسات الأفريقية جامعة الخرطوم .

(٤) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٨ .

(٥) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل مرجع سابق ص ٢١٩/٢١٧
عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ج١ مرجع سابق ص١١٣ /١١٤ .

(٦) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث مرجع سابق ص ٩٧/٩٦ .




ومنها أن سليمان خرج عـن طاعة الحكومة و أنـه يريد الإستقـلال بـالجنوب (١) . وقد أعد غوردون تقريراً مطولاً عن هذه الحادثة (٢) بدأه بمقدمـة شـرح فيهـا أسـباب تعيينه حكمداراً للسودان و هي في مجملها إقامة العدل و النظام و الأمـن و السـلام في كافة أرجاء السودان (٣) و هذه المقدمة ماكرة جداً فقد أراد غوردون أن يؤكد من خلالها أن ما تم كان من أجل الأمـن و إستتباب النظـام و السـلام فـي البـلاد ليخفـي مآربه الإستعمارية الخبيثة و فـي تلـك المقدمـة نفسـها تجنـي غـوردون علـى الزبـير وأهله و أدعى أنهم يعملون من أجل المكسب ، وأنهم فرقة متمردة و ذلك حتى يهيئ أذهان رجال الحكومة الخديوية إلى أن هذه الفئـة تستحق مـا نـزل بهـا مـن عقـاب ، وأن تمردهم سبق مجيئـه إلـى السـودان ، و إستمر بعـد ذلـك مـن خـلال الخطابـات المتبادلة بين الزبير و إبنه و زوجته (٤) . و قد طالبـه الزبـير فيمـا بعـد بإثبـات هـذه الخطـابات في المقابلة التي تمت بينهمـا فـي منـزل اللـورد كرومـر و التـي حضرهـا إيفلين وود و نوبار باشا (٥) لكن غوردون عجز عن إثبات ذلك .

و قد واصل غوردون في تقريره بتجنيه على الزبير و أسرته ووصفهم بـأنهم تجار رقيق و أن تمردهم مـا حـدث إلا لأن الحكومـة الخديويـة منعتهـم هـذه التجـارة البغيضة و التي كانت تدر عليهم أموالاً طائلـة (٦) ولكـي يؤكـد أن تمـرد آل الزبـير قـديم ذكـر فـي تقـريره المصـادمـة التـي وقعـت بيـن الزبـير و بيـن البلالـي سـنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٩٧ .
(٢) دار الوثائق القومية بالخرطوم رقم ١/١٥/٧٤
(٣) المصدر السابق ص ٢
(٤) المصدر السابق ص ٣
(٥) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٧٧ .
(٦) تقرير غوردون رقم ١/١٥/٧٤ ص ٤ .

والحق أن حسن مظهر حكمدار السودان في ذلك الوقت حقق في الواقعة التي حدثت بين الزبير و بين البلالي و أثبتت براءة الزبير (١) و لم يتهم الزبير بالخروج على حكومة الخديوي على الرغم من أنه أرسل من طرفها ، كذلك إعتبر غوردون مصادمة سليمان لإدريس أبتر خروجاً على الحكومة العثمانية ، ثم ادعى غوردون أن جهود الزبير في فتح دارفور كانت لمصلحته و لمصالح أبنائه و أنه إستأثر بالأموال و النفائس لنفسه (٢) ثم تحدث في بقية تقريره عن المعارك الأثنتي عشرة التي وقعت بين جيش سليمان بن الزبير و جيش الحكومة (٣) فذكر بشئ من المبالغة الأعداد التي قتلت و جرحت بين الطرفين و ذلك ليهيئ الرأي العام لقبول إدعاءاته بأن آل الزبير إرتكبوا كثيراً من الفضائع لذلك فهم يستحقون كل ما نزل بهم و زيادة و هاهم ينزل بهم العقاب الرادع فيُقتل سليمان و من معه و بموت سليمان و قادته إنتهت الثورة في بحر الغزال كما إنتهت بعدها بقليل الثورة التي قادها في دارفور السلطان هارون فيسنة ١٢٩٢هـ /١٨٧٦م و قد نجح غوردون في عدم تمكين سليمان من الإتحاد مع هارون كما كان يتوقع ، فهدأت الأحوال ، وتحققت نتائج ولكن ليست لصالح مصر أو السودان .

وقبل أن نناقش نتائج القضاء على ثورة سليمان نتساءل هل ما قام به الأوروبيون وعلى رأسهم غوردون و جسي كان فعلاً من أجل مصر؟ و من أجل إعادة هيبة مصر في ربوع السودان كما إدعى الأوروبيون و من سار من خلفهم ؟

---

(١) أنظر صفحة ٢٦٥ .

(٢) تقرير غوردون ص ٩

(٣) ذكر غوردون أن جيش الحكومة بقيادة يوسف باشا و حسان باشا و لم يتحدث عن قيادة جسي حتى لا يحمل الأوروبيون مسئولية قتل سليمان و أهله ـ تقرير غوردون ص ٢٦٥ .

و بالنظرة الفاحصة إلى الوقائع و الأحداث و ما ترتب على القضاء على ثورة سليمان من نتائج يتضح أن ما قام به غوردون و زمرته لم يكن من أجل مصر بل من أجل المصالح الإستعمارية التي كانت تهدف إليها بريطانيا في ذلك الوقت . يقول ضرار صالح ضرار (إن النتائج التي ترتبت على القضاء على هذه الثورة كانت متعددة ، فقد أصبحت قبيلة الجعليين و حلفاؤها من أبناء النيل معاديةً للحكومة الخديوية مرة ثانية كما كانت في سنة ١٨٨٢م ، و فقد الأهالي الثقة في الحكومة الخديوية التي عطلت القوانين و المحاكم ، و بدأت سياسة البطش والخيانة بإشراف غوردون و أعوانه الأوروبيين المسيحيين) (١) .

و مما لا شك فيه أن هذه النتائج كانت من مهام غوردون الأصلية التي عمل بجد و إخلاص لتحقيقها و هي تنفير الناس من الحكومة المصرية وتهيئتهم للثورة ضدها طلباً للإستقلال عنها وهو ماحدث بالفعل إبان الثورة المهدية بعد ذلك

و بمقتل سليمان بن الزبير نجح غوردون في عدم قيام الإتحاد الذي كان قيامه متوقعاً بين سليمان و بين هارون ، و بطريق غير مباشر جمع بين رغبة أعوانهما في القضاء على الحكم القائم في البلاد ، و ترك قبائل غرب السودان وأبناء الجلابة الذين نزحوا من النيل بغرض التجارة هناك متفقين على كراهية الحكومة و السعي إلى إسقاطها متى توفرت لهم الوسائل و تهيأت لهم الأسباب و هذا يفسر نجاح الثورة المهدية فيما بعد و إلتفاف الناس حولها في غرب السودان ، فهل كانت هذه البغضاء و هذا النزوح إلى الثورة في مصلحة مصر؟ .

فمما لا شك فيه أن سليمان بن الزبير كان يمثل وجوداً عسكرياً و عربياً وإسلامياً كبيراً في منطقة بحر الغزال ، و زوال سليمان و تشتيت رهطه معناه إضعاف هذا الوجود إن لم يكن نهايته ، وهي نتيجة كانت بالتأكيد في مصلحة بريطانيا خاصة وأوروبا عامة ، و لم تكن في مصلحة مصر على الإطلاق ٠

---

(١) ضرار صالح ضرار : تاريخ السودان الحديث مرجع سابق ص ٩٧ .




و تلك النتيجة المؤسفة عمل لها غوردون بجدٍ منذ أن كان مديراً للمديرية الإستوائية قبل عشر سنوات و من وسائله التي هدف بها إلى إضعاف الوجود العربي والإسلامي في جنوب السودان أنه قدم مساعدات عظيمة لدعم نشاط المبشرين الكنسيين .

ففي سنة ١٢٨٨هـ /١٨٧١م كتب غوردون الذي كان في هذا الوقت مديراً على مديرية خط الإستواء إلى جمعية المبشرين البريطانية يدعوها إلى العمل في مديريته ، و لكنها لم تتمكن من إجابة رغبته نظراً لإلتزاماتها في مناطق متعددة من أوروبا (١) غير أنها رغبت في العمل في الجنوب بعد فترة حيث إفتتحت محطة مالك للتبشير في عام ١٩٠٥م وسط قبيلة الدينكا (٢) و ذلك بعد مضي حوالي ربع قرن على مصرع غوردون في السودان .

و في الفترة التي كان فيها غوردون حكمداراً على السودان (١٨٧٧/١٨٧٩م) دفع بحركة التبشير قدماً في كثير من مناطق السودان و خاصة الجنوب (٣)، و سيمر بنا في ثنايا هذا البحث كيف أن سياسة غوردون باشا أدت إلى قيام الثورة المهدية ، ثم كيف إستغل الإنجليز أحداث الثورة المهدية لنزع السودان من مصر والإنفراد بحكمه و سلب خيراته .

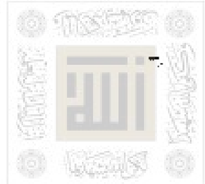
و خلاصة الأمر أن غوردون وصل السودان حكمداراً عاماً في سنة ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م و أظهر الولاء و الإخلاص لمصر ولكن في الحقيقة كان يخفي حقداً دفيناً على مصر والدولة العثمانية ، فسعى بجدٍ في الخفاء لبث نوازع الحقد والكراهية لمصر في نفوس السودانيين لتتحقق الفرقة و تحل الكراهية بين شعبي وادي النيل تمهيداً لفصل السودان عن الإدارة المصرية لتقوم إنجلترا باستعماره بعد إنسلاخه من قبضة السلطة الخديوية .

---

(١) محمد عمر بشير : جنوب السودان مرجع سابق ص ٣٧ .

(٢) حسن مكي : المشروع التنصيري في السودان في (١٨٤٣ ـ ١٩٨٦) الخرطوم ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

(٣) مصطفى خالدي و عمر فروخ : التبشير و الإستعمار في البلاد العربية ص ٢٣٩ . المكتبة العصرية صيدا . بيروت ١٩٨٦ م .

فعمل غوردون علـى تقريـب كـل مـن يحمـل العداء لمصـر مـن الأوروبييـن وغيرهم ، وإضطهد و حارب كل من إشتم فيه رائحة الـولاء والإخـلاص لمصـر ، وكان على راس هؤلاء الزبير باشا و إبنه سليمان و قواده و رجال أسرته .

ثم إستطاع غوردون أن يوعز إلى الحكومـة الخديويـة بخطـورة الزبـير باشـا و أكـد على وجوب حبسه في مصر و تشديد المراقبة عليه بـل طـالب بنفيـه إلـى قـبرص ، كما عمل على إهانة سليمان بن الزبير و تقليص نفوذه و تجريده من قوته العسـكرية و ذلك بإسناد قياداته إلـى بعـض القـادة الذيـن لمـس فيهـم حقداًعلـى الزبـير ، و إبنـه سليمان و هذا مـا دفـع سـليمان بـن الزبـير إلـى الثـورة فسـنحت الفرصـة التـي كـان ينتظرها غوردون حين أعدّ حملة بقيـادة جسـي الإيطـالي للقضـاء علـى سـليمان بـن الزبير و قواده المخلصين و رجال أسرته و ذلك حتى تخلو له السـاحة فـي السـودان من هؤلاء الرجال المؤمنين المخلصين لمصر و السودان .

و مما لا شك فيه أن قضـاء غـوردون علـى ثـورة سـليمان بـن الزبـير لـم يكـن مصادفـة و إنمـا تـم بعـد تخطيـط و تدبـير بريطـاني مـاكر لتحقيـق أهـداف السياسـة البريطـانية في وادي النيـل والتـي كـانت تعمـل علـى فصـل السـودان عـن مصـر ثـم إستعماره .

الفصل الرابع

المبحث الرابع:

إشتعال الثورات بعد خروج الزبير من السودان و إستبقائه في مصر.




اشتعال الثورات بعد خروج الزبير من السودان:

لقد مر بنا أن قبائل الفور بعد مقتل السلطان إبراهيم و دخول الزبير عاصمته الفاشر تجمعت ثم بايعت الأمير حسب الله عم السلطان المقتول سلطاناً عليهم و بعد أن تمت البيعة للأمير حسب الله التجأ إلى جبل مرة ، و تحصن به إستعداداً للإنقضاض على الحكم الجديد في الفاشر و إسترداد عرش آبائه و عندما وصل الحكمدار إسماعيل أيوب إلى الفاشر سلمه الزبير مقاليد الأمور ثم أعد جيشاً بلغ تعداده أثني عشر ألفاً و حاصر الأمير حسب الله في جبل مرة زهاء الثلاثة أشهر ولما رأى الأمير حسب الله بأنه لا طاقة له بمنازلة الزبير و جيشه إقترح على الزبير أن يتسلم الحكم في الفاشر بإسم الحكومة الخديوية على أن يدفع إليها مبلغ مائة ألف جنيه سنوياً ، فوافق الزبير على هذا الإقتراح بعد أن رأى أنه يحقق مصالح الطرفين أي مصالح أبناء السلاطين في دارفور و على رأسهم الأمير حسب الله من جهة و مصالح الحكومة الخديوية من جهة أخرى .

فأبناء سلاطين دارفور و على رأسهم الأمير حسب الله يرون بتنفيذ هذا الإقتراح قد حافظوا على ملك آبائهم و حكموا أنفسهم بأنفسهم و لم يخضعوا للغرباء ، و الحكومة الخديوية في رأي الزبير ستتحقق مصالحها بحصولها على عدة مكاسب ، إذ تصبح دارفور تحت إسمها و نفوذها دون ان تتحمل نفقات الإدارة و حفظ الأمن ، وفي الوقت نفسه سيضاف إلى خزانتها موردٌ آخر هو ماسيدفعه سلطان دارفورسنوياً إلى الحكومة الخديوية حسب الإتفاق الذي سيعقد بين الطرفين غير أن الحكمدار رفض هذا الإتفاق مع الزبير بإعتبار أن الغلبة تمت عسكرياً و أن الأمير حسب الله و من معه من أبناء السلاطين أسرى وليس من حق الأسير أن يشترط أي شروط ، و من ثم أرسل الأمير حسب الله ومن جاء معه من أبناء السلاطين إلى مصر (١) و ظن أن الفوراويين بعد إرسال الأمير حسب الله و من معه من أبناء السلاطين إلى مصر سوف تهدأ ثائرتهم

(١) الدفتر رقم ٢١ صادر عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ٩٦ التلغراف رقم ٧٠٦ في ١١ محرم سنة ١٢٩٢هـ/١٧ فبراير ١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .



ولايجدون من يلتفون حوله ، يضاف إلى هذا النكبات التي وقعت عليهم من قبل الحكومة الخديوية التي دفعت بجيوش الزبير باشا إلى إجتياحهم أضعفتهم وجعلت قيامهم بثوراتٍ أمراً بعيداً .

و قد أدّى هذا الموقف العدائي الذي وقفه الحكمدار إلى نشوب النزاع بينه وبين الزبير باشا ، أعقبه رفض الزبير باشا الضرائب الباهظة التي فرضها الحكمدار على أهالي دارفور ، فلم يطق الحكمدارُ الصبر على سياسة الزبير التي ظنها تحدياً له و رأى هذا تدخلاً من الزبير في شئونه فأمره بالذهاب إلى دارا والإقامة فيه بعساكره حتى يصدر إليه أمراً آخر بالرجوع إلى بحر الغزال .

و الحقيقة أن الحكمدار لم يستطع أن يصدر أمراً للزبير بالتوجه إلى بحر الغزال فيما بعد لأنه لم يكن مطمئناً إلى الموقف الأمني في دارفور و هو يعلم أن دارفور إنما غُلبت بجيوش الزبير ، و أن جيوش الحكومة قليلة لا تكفي لبسط الأمن هناك ، لذلك أمر الزبير بالتوجه إلى دارا فقط و البقاء بها حتى يكون قريباً من مسرح الأحداث إذا جدّ ما يستدعي حضور الزبير و مع هذا أخذ الحكمدار يجدد مطالبته للحكومة الخديوية بإرسال الجنود و العتاد الحربي من القاهرة .

والحقيقة أن الحكمدار لم يكف عن مطالبة القاهرة بإمداده بالقوات منذ الأيام الأولى التي بدأ فيها الزبير تنفيذ خطة ضم دارفور إلى أملاك الخديوية ، ولكن برقيات الحكمدار المتناقضة جعلت القاهرة تتردد في إرسال مطالب الحكمدار فتارةً يستعجل المدد ، و تارةً أخرى يطمئنها على هدوء الأحوال ، ويبدو أن إرسال السلطان حسب الله إلى القاهرة قد أزال مخاوفه ، فأبرق إلى الخديوية يطمئنها على الأحوال في دارفور، و يؤكد لها أن من بقي من الأمراء لا يشكلون خطراً لصغر سنهم

وعدم مقدرتهم على التأثير في الناس (١) كما إعتقد بأن زعماء الفور الذين أبقاهم الحكمدار في وظائفهم الأصلية بعد أخذه العهود والمواثيق منهم بأنهم سوف يقدمون خدماتهم للحكومة بإخلاص و صدق و تفانٍ (٢) و لتحقيق مزيد من الإطمئنان قام الحكمدار بتحصين العاصمة (الفاشر) فبنى حولها حصناً منيعاً مربعاً بلغ سمك كل ضلع من أضلاعه الأربعة ثلاثة أقدام ، كما بلغ طوله مائتين قدم ، وقد دعم الحكمدار أركانه الأربعة بأبراج زودت بالمدافع كما حفر من وراء السور خندقاً عرضه خمسة عشرة قدماً و أحاط الخندق بسور من الأشواك و جزوع الشجر(زريبة) (٣) و بنى داخل السور منزلاً للحاكم ، و ثكنة للعساكر النظامية، أما العساكرغير النظامية فقد أبقاها خارج السور وهدم المنازل القريبة من السور ، فجعل الأرض حوله مكشوفة ، ثم قسم بلاد دارفور إلى أربعة أقسام كما كانت قبل دخول الفاشر و هي مديريات الفاشر، ودارا ، و كلكل (أو كبكابية) و أم شنقة ، ثم بنى حصناً في كل من دارا وكبكابية كالحصن الذي بناه بالفاشر وأقام في كل مديرية أورطين من العساكر النظامية ، و ستة سناجق من الباشبوزق والشايقية و الأتراك و المغاربة ، وبطارية بست مدافع (٤) و لذلك رأى الحكمدار أنه في مقدوره مغادرة دارفور إلى مقر عمله في الخرطوم وهو مطمئن ، بعد أن غاب عنه طويلاً ، ثم لم يلبث الحكمدار أن أرسل إلى الخديوي كتاباً بذلك فوافقت الخديوية على عودته إلى الخرطوم على ما جاء في كتابه (٥) و قبل أن يحزم الحكمدار أمتعته متوجهاً إلى مقر عمله في الخرطوم فوجئ بأن أهالي دارفور

---

(١) الدفتر رقم ٢٩ ، وارد عابدين ، تلغراف عربي رقم ٥٢٥ في ١٧ من ذي الحجة ١٢٩١هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الوثيقة السابقة .

(٣) سبق شرحها أنظر هامش ص

(٤) نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٣ .

(٥) الدفتر رقم ٢٧ ، صادر تلغرافات عابدين . شفرة عربي ، تلغراف رقم ٣٥٦ ص ٦ في ٢٣ من محرم سنة ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .




يخلعون طاعة الحكومة و يعلنون العصيان و يتحصنون بجبل مرة ذاك الحصن المنيع (١) فأرسل الحكمدار في طلب قوات من مصر لتُحكم بها السيطرة على دارفور حتى لا تفلت من يده ، و كما عمل في الوقت نفسه على تكوين قوة كبيرة أوكل قيادتها على حسن حلمي باشا ، و أمره بتتبع العصاة و تأديبهم ، كما طلب من الزبير الحضور سريعاً بقواته للتعاون مع حسن حلمي(٢) .

و لكن الزبير أبطأ في الحضور مما أقلق الحكمدار و قد كان سبب تأخر الزبيرإنشغاله بإخماد حركة تمرد أخرى في منطقة دارا تحت قيادة رجل يدعى (الدابي) و كان الدابي أحد قوات الزبير ، ثم إنفصل عنه قبل عشرة سنوات ومعه ألف من العبيد المسلمين و لجأ إلى دارفور و قاتل معهم قوات الزبير (٣) .

و احتج الحكمدار على تأخر الزبير و لامه ورأى أن الأحرى بالزبير المبادرة للقضاء على الثوار في جبل مرة ، ثم يتفرغ بعد ذلك لمحاربة الدابي لأنه لا يشكل خطراً مثل ثوار جبل مرة ، كما عزا إصرار الزبير على محاربة الدابي إلى العداء الشخصي بين الرجلين(٤) .

و بعد أن تمكن الزبير من القضاء على حركة الدابي حيث لقي الدابي ومساندوه من الزعماء مصارعهم (٥) توجه بجزء من عساكره إلى دارا تنفيذاً لأمر الحكمدار و في الوقت نفسه أبلغ الزبير الحكمدار بالقضاء على ثورة الدابي و أنه تحرك بعساكره من دارا صوب جبل مرة تنفيذاً لأوامره التي صدرت إليه من قبل(٦) .

---

(١) الدفتر رقم ٣٠ وارد تلغرافات عابدين ، عربي الشفرة ، تلغراف رقم ٤٥٧ في٢٣ من صفرسنة١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم ٣٠ وارد تلغرافات عابدين ، تركي الشفرة ، تلغراف رقم ٢٨٧ ص ٤٢ في٧ من صفر ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم ٣١ ، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ٦٧ ص ١١ في٢٢ من ربيع الأول ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) الوثيقة السابقة

(٥) الوثيقة السابقة

(٦) الدفتر رقم ٣٢ ، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ١٦٠ في جمادي الآخرة سنة ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .




و كان الأمير بوش قد أبى الإستسلام للحكمدار كما استسلم أخوه الأمير حسب الله ، فعندما رفض الحكمدار شروط الأمير حسب الله و أرسله إلى القاهرة إعتقد بوش أن أخاه الأمير حسب الله خُدع ، و أنه غدر به و أصبح من اللازم عليه أن يأخذ بثأره ، و أن يسترد عرش سلطنة آبائه و أجداده ، فنادى بنفسه سلطاناً على الفور ، و دعا الناس إلى رفض النظام الجديد ، و العمل على إسترجاع سلطة الفور المسلوبة ، فالتف حوله رجال القبائل و من بقي من جنود الفور ، فقاد حركة عصيان مسلح هدفها إسترجاع الفاشر (١) و قبل أن يصل الزبير لمساندة حسن حلمي باشا شرح الحكمدار الوضع لحكومة القاهرة و بين لها أن الزبير مشغول في دارا بحركة الدابي ، و أن خلو منطقة الجبل من العساكر بما في ذلك مديرية كبكابية أغرى بوش بالتمرد و تنصيب نفسه سلطاناً ، وأن بوش يجري مراسلات مع واداي لإمداده (٢) و طالب الحكمدار المسئولين في القاهرة بإمداده سريعاً بقوة عسكرية لإنقاذ الموقف في منطقة الجبل ، كما طالب بإمداده بالمديرين و الموظفين اللازمين حتى يتمكن من المحافظة على سمعة الحكومة (٣) . وعندما علم الحكمدار بتحرك الزبير إلى منطقة جبل مرة حسب أوامره السابقة (٤) أرسل إليه في الحال يخبره بأن حسن حلمي قد قام بإرغام جزء من سكان الجبل على الطاعة وعلى الزبير أن يلحق به ، و أمره بأن يلحق بجيشه ناحية كبكابية حيث تتجمع فلول بوش للقضاء عليهم (٥) .

---

(١) الدفتر رقم ٣٥ ، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ٤٢٨ في ٢١من رجب ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم ٣١ ، وارد عابدين ، تلغراف رقم ٦٧ ص ١١ في ٢٢ ربيع أول سنة ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الوثيقة السابقة .

(٤) الدفتر رقم ٣٢ ، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ١٦ في ٢٢ جمادي الآخر سنة ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٥) الدفتر رقم ٣٢ وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم١٦ في ٢٢ من جمادي الآخر ١٢٩٢هـ /١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




كذلك أخبره الحكمدار أن فرقة من الجيش يقودها البكباشي مصطفى عبدالله ستتوجه إلى كبكابية لمحاصرة بوش و من تبعه كما أعد الحكمدار أمراً لإصداره إلى فرقة كبكابية لتتحرك صوب الثوار (١) .

و لم يلبث الزبير أن غادر دارا في ١٥ من جمادي الآخر سنة ١٢٩٢هـ /٢٩ من يونيو ١٨٧٥م ووصل كبكابية في غرة رجب (٢) من هذه السنة ، و هناك دارت بين الزبير و الأمير بوش معارك قبل وصول الفرق الأخرى إستمرت زهاء خمسة عشر يوماً ترك بعدها بوش الجبل و لاذ بالفرار ، إلا أن الزبير لحق به بالقرب من كبكابية ، فدارت بينهما حرب طاحنة دارت دائرتها على الأمير بوش و رجاله حيث قُتل هو و أخوه سيف الدين و سبع و عشرون رجلاً من كبارجيشه(٣) و أُسر أبو البشر بن السلطان حسين ، كما قتل نحو ألفين وسبعمائة من قوات بوش مقابل واحد و ستين رجلاً قتلوا من جيش الزبير ، وبذلك تم القضاء على ثورة بوش و أتباعه و كسرت شوكتهم (٤) .و ممن وقع في الأسر في هذه المعركة ثمانية من أسرة السلطان إبراهيم ، وأربعة منهم بلغوا سن الرشد وأربعة كانوا دون ذلك ، و قد رأى الحكمدارعدم تقديمهم إلى محاكم عسكرية لصغر سنهم ، ولأنهم أرغموا على تبعية بوش، فأرسلوا جميعاً إلى الخرطوم على أن يلحق الصغار بمدرسة سنار أما الكبار فيرسلون إلى مديرية فازوغلي لإلحاقهم بالخدمة العسكرية (٥) .

---

(١) الوثيقة السابقة .

(٢) دفتر رقم ٣٢ ، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي تلغراف رقم ٢٢٧ في١٩ من رجب ١٢٩٢هـ /١٨٧٥م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٢ .

(٤) الدفتر رقم ٣٢ وارد تغرافات عابدين ، شفرة عربي تلغراف رقم ١٦ في ٢٢ من جمادي الآخر ١٢٩٢هـ /١٨٧٥م . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٥) الدفتر رقم ٣٣ وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ، تلغراف رقم ٤٨٢ ص ٧٠ في١٩من شعبان سنة١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

كما تم القبض على ثلاثة عشر من أبناء السلطان إبراهيم ، بينهم عشرة صغار أرسلوا إلى مدرسة الخرطوم و الثلاثة الكبار ألحقوا بالخدمة العسكرية في فازوغلي كما تم القبض على الطاهر إبن الأمير حسب الله و يبلغ من العمر أربعين عاماً و قد أرسل إلى الخرطوم ليسجن هناك نظراً لما قام به من جهد لجمع الأسلحة و الناس ضد الحكومة (١) أيضاً تم ضبط أثني عشر طبلاً نحاسياً منها أثنان مذهبان أرسلت جميعها إلى الخرطوم بهدف إبعادها عن أهالي دارفور الذين يعتقدون أن بقاءها تحت أيديهم يدل على بقاء سلطانهم (٢) ، أما الزبير فإنه بعد القضاء على ثورة بوش سلم المديرية لمديرها الجديد محمد بك سعيد الذي بعث به الحكمدار إلى هناك ثم قفل الزبير راجعاً إستعداداً للسفر إلى القاهرة (٣) .

و قد سر الخديوي إسماعيل من القضاء على حركات التمرد في دارفور ، وأبرق مهنئاً الحكمدار و الزبير لما قاما به من جهد لإخضاع العصاة في دارفور وبسط الأمن في ربوعها (٤) كما أصدر أوامر للحكمدار بأن يعامل من يخرج على الطاعة بمثل ما يعامل به العصاه وفق القوانين العسكرية (٥) بمعنى أن المعاملة التى

---

(١) الدفتر رقم ٣٣ ، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغرافرقم٥٩٤ ص ٩٢ في ١٨ من رمضان سنة١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم ٣٣ وارد تلغرافات عابدين . شفرة عربي تلغراف رقم ٤٨٤ في ٢٩ من شعبان سنة ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم ٣٢، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ٤٢٨ في٢١ من رجب ١٢٩٢هـ /١٨٧٥م . دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) الدفتر رقم ٢٣ صادر تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ٥٣٦ في ١٨ من رجب ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٥) محفظة رقم ٢٣ صادر تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ٣٢٨ في ١٥ من جمادي الأخر سنة ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .



عومل بها حسب الله و من معه من أفراد الأسرة لم تكن رادعة مما دعا غيرهم إلى الخروج عن طاعة الحكومة فأراد بذلك أن يضع حداً للمقاومة بتوقيع أقسى العقوبات على من يقع منهم في قبضة الحكومة (١) ، و كانت الحكومة الخديوية قد أمرت الحكمدار بالتوجه إلى مقر عمله في الخرطوم بعد الإجراءات التي إتخذها أثر ثورة الأمير حسب الله (٢) سنة ١٢٩٢هـ /١٨٧٦م و لكن عندما قامت ثورة الأميربوش أمرت الحكومة الخديوية سنة ١٢٩٢هـ /١٨٧٦م الحكمدار بعدم مغادرة دارفور حتى يستتب الأمن فيها (٣) .

و بعد القضاء على ثورة بوش و قتل قادتها و تشتيت جموعها هدأت الأحوال في دارفور ، فأصدرت الخديوية أوامرها إلى الحكمدار(٤) سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٦م بمغادرة دارفوروالتوجه إلى الخرطوم مقر عمله الرئيسي و التي طال غيابه عنها .

---

(١) عثمان عمر : العلاقات بين سلطنة دارفور و الحكم التركي مرجع سابق ص ٣١٨/٣١٩ .

(٢) الدفتر رقم ٢٧ صادر تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ٣٥٦ ص ٦ في٢٣ من محرم سنة١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم ٢٥ صادر عابدين ، شفرة تركي ، تلغراف رقم ٤٨١ في غرة ذي القعدة ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) الدفتر رقم ٢٧ صادر تلغرافات عابدين ، شفرة عربي تلغراف رقم ٣٧٠ ص ٦٥ في ٢٥ من محرم ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .



ثورة الأمير هارون بن سيف الدين بن محمد الفضل :

لقد مرّ بنا أن الحكمدار إسماعيل أيوب رفض رأي الزبير و هو أن يصبح الأمير حسب الله سلطاناً على دارفور تحت سلطة الخديوي ، كما أن الحكمدار أقر الضرائب الباهظة و التي رفضها الزبير بحجة أن أهل دارفور لا يستطيعون دفعها و أن عجزهم عن دفعها و مطالبة الحكومة لهم سوف يدفعهم إلى الخروج عن طاعة الحكومة ، و قد صدق حدْ سُ الزبير فإن عدم تولية دارفور أحد أبنائها والضرائب الكبيرة التي فرضت كانا سببين دفعا أهالي دارفور نحو الثورة والخروج على طاعة الحكومة ، ومن العوامل التي أغرت بوش و أتباعه على الثورة قلة عساكر الحكومة في ذلك الإقليم البعيد وطرد الزبير و ذلك بعد أن أمره الحكمدار بمغادرة دارفور إلى بحر الغزال بقواته .

و قد مر بنا أن قوات الزبير باشا الخاصة هي التي ضمت دارفور إلى أملاك الحكومة الخديوية ، كما مر بنا أنها لعبت دوراً أساسياً في إخماد الثورات التي أعقبت ضم دارفور كثورة السلطان حسب الله و الثائر الدابي ، و ثورة بوش وبعد القضاء على ثورتي الدابي و بوش ذهب الزبيرإلى مصر و ترك قواته مع إبنه سليمان بعد أن أمره بالتوجه إلى بحر الغزال ، و لقد إستتب الأمن نوعاً ما في دارفور ، و لكن فداحة الضرائب و فظاعة جبايتها ، و عدوان جنود الحكومة (١) البازنجر على الأهالي و نهبهم أموالهم و متاعهم (٢) دفع أهل دارفور إلى البحث عن عرش سلطتهم المسلوب ، وكان في هذا الوقت يعيش بينهم من أبناء السلاطين هارون الرشيد إبن الأمير سيف الدين إبن السلطان محمد الفضل فالتفوا حوله وبايعوه سلطاناً عليهم في أواخر عام ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م (٣) ثم قاموا بثورة عامة حاصروا خلالها حاميات الفاشرو دارا و كلكل الخديوية ، وهاجموا الفاشر مرتين

---

(١) محمود طلعت : عجائب الزمان مصدر سابق ص ٧٠ .

(٢) محافظ عابدين : السودان موضوعات ـ شكا وي قاضي مديرية دارا في ٩ من شوال سنة١٢٩٢هـ .

(٣) الدفت رقم ٢٤ ، معية عربي ص ١٦ ، وثيقة ٣ في١١ من محرم ١٢٩٤هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .



و كادت أن تسقط لولا أن جنود الحامية دافعوا عنها ببسالة و صدوا الثوار عنها دون أن يقدروا على رفع الحصار مما إضطر حسن حلمي باشا حلمي الجوير مدير الفاشر إلى طلب المدد من الخرطوم فتحركت حملة من الخرطوم بقيادة عبدالقادر باشا فقابلت الثوارفي بروش بين أم شنقة و الفاشر حيث دارت معركة مريرة هزم فيها الثوار، وإستطاع عبد القادر باشا أن يدخل الفاشر بقواته وأن يرفع الحصار عنها ، ثم لم يلبث أن أرسل الجنود إلى دارا وكلكل فرفعوا عنها الحصارأيضاً (١) فتهاوت بهذا أحلام الثواروأصبح القضاء عليهم أمراً متوقعاً .

و بعد أن رفع الحصار عن الفاشر خرج حسن حلمي بقواته لمطاردة الأمير هرون ، فدارت بين الفريقين معركة في قرية الطينة قتل فيها خلق كثير من جموع هارون ، ففر هارون و أعوانه و من بقي من جيشه إلى بيرمرتان فلحقه حسن باشا حلمي هناك فقتل أيضاً من عسكره الكثير ، ففر هارون و أعوانه و من بقي من جنده إلى جبل مرة (٢) .

و لقد إنزعجت القاهرة عندما علمت أن الثورة عمت مديرية الفاشر وكبكابية و أن الثوار قتلوا ستين نفراً من العساكر المكلفين بترحيل الأموال ، وأن المسئولين منذ شهرين يبذلون الجهود للقضاء على هذه الثورة (٣) و باستخبار القاهرة عما جرى في دارفور(٤) علمت أنها حركة واحدة يقودها الأميرهارون (٥) .

---

(١) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٩٤ .

(٢) المصدر السابق ص٢٩٤

(٣) الدفتر قم ٤٥ ، تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ٢٩٠ ص ٥٧ في نهاية محرم ١٢٩٤هـ دلر الوثائق القومية بالقاهرة .

(٤) الدفتر رقم ٣٢ ، صادر تلغرافات عابدين ، شفرة عربي ، تلغراف رقم ١١٩ في١١ من صفر سنة ١٢٩٤هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٥) الدفتر رقم ٤٥ ، وارد تلغرافات عابدين ، شفرة عربي رقم ٤٤٤ ص ١٠٣ في٢٧ من صفر١٢٩٤هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .



و في أواخرعام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م وصل غوردون إلى الخرطوم و علم بثورة السلطان هارون فأسرع إلى الفاشر ، فتحصن هارون بجبل مرة و لم يُبد حراكاً ، فتركه غوردون و عاد إلى الخرطوم بعد أن أمر جباة الضرائب بالرفق في جمعها ، كما عزل بعضاً من عساكر الباشبوزق .

و في مطلع عام ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م عاد هارون إلى التحرك ضد الحكم الخديوي فجاء غوردون إلى الفاشروهناك رأى أن دارفورلا يصلح حالها إلا إذا حكمها من أهلها تحت سيطرة الحكومة على غرارما أشار به الزبير باشا سابقاً ،فأرسل إلى مصر يطلب الأرشد من أبناء السلطان إبراهيم ، وعزل حسن باشا حلمي، و عين مكانه بصفة مؤقته ضابطاً إيطالياً يدعى مسادالية إلى أن يصل إبن السلطان من مصر ، ولكن إبن السلطان وافته المنية بوصوله إلى دنقلا ، فبقي حكم دارفور على حاله حتى قيام الثورة المهدية في سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م وقد رأى غوردون الإستعانة بعرب الكبابيش ضد أهالي جبل الميدوب و لوعن طريق إغرائهم بالمال (١) وهذه الفكرة من السياسة التي ربح منهاالبريطانيون كذلك رأت القاهرة ضرورة إغراء مشايخ عرب الحمرٌ لتجهيز فرقة من الخيول و الأسلحة لمهاجمة بعض القبائل الخارجة مثل الزيادية (٢) إلى حين وصول العساكر النظامية كما طلب الخديوي العون من جماعة الزبير في شكا و بحرالغزال ، والعمل على تأديب العصاة وتشتيت شملهم (٣) كما طلب غوردون من النورعنقرة مدير كبكابية و شكا

---

(١) الدفتر رقم ٤٥ ، وارد تلغرافات عابدين . شفرة عربي ، تلغراف رقم ٣٦٦ في ٨من مارس ١٨٧٧م ٢٢من صفر ١٢٩٤هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٢) الدفتر رقم ٤٥ وارد عابدين ، شفرة عربي رقم ٤١٢ ص ٩١٢ في ١٣ من مارس ١٨٧٧م دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) الدفتر رقم ٣٢ صادر عابدين ، عربي شفرة رقم ٢٠٢ في نهاية صفر١٢٩٤م دار الوثائق القومية بالقاهرة .




الموجود بجهة بحر الغزال التحرك نحو دارفور بما لا يقل عن ألف و خمسمائة من البازنقر كذلك طلب مثل هذا العدد من إدريس أبتر ، و قد باركت القاهرة خطوات الحكمدار، كما طلبت منه الحرص الشديد على عدم تسرب أخبار الثورة إلى دارفور حتى إذا دعت الظروف إلى إحضار عساكر من مصر فسيكون ذلك بحجة أنهم سيحلون محل من خدموا في السودان لفترة طويلة ، أو بحجة الحاجة إلى لإجراءات إبطال تجارة الرقيق (١).

و في عام ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م قرر مساداللية الإيطالي القضاء على حركة هارون ، بعد أن صدرت إليه الأوامر من غوردون بذلك إلى سلاطين باشا و هو يومئذٍ مدير على دارا أن يجهز قوة تلتقي بقوات الحكومة التي تحركت من الفاشر وكلكل و شكا وبحر الغزال بالقرب من نيورينا حيث توجد قوات هارون ولما علم هارون بخبر تجمع هذه القوات خرج في جمع من رجاله و هاجم سرية كلكل في الطريق فقتل منها رجالاً و تمكن من إجبارها على التقهقر إلى كلكل ثم أمر رجاله بغنيمة دارا ، فطارده سلاطين باشا حتى رهد النبق بالقرب من مركز سلطان المسبعات جنوب غرب دارفور ، فقتل من أتباعه عدداً كبيراً ، غير أن هارون تمكن من الفرار إلى جهة الغرب ، فخرج في أثره النور عنقرة مدير شكا و كبكابية فباغته و إستولى على معسكره بعد معركة طاحنة قتل فيها هارون و جموع كثيرة من أتباعه ، وذلك في شهر مارس سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٨٠م .

و مما لا شك فيه أن إستمرار هذه الثورة تلك المدة الطويلة إنما كان نتيجة لخروج الزبيرو جيشه من دارفور ، و لو كانت قوات الزبير على مقربة من مسرح الأحداث ما إستمرت هذه الثورة زهاء الثلاث سنوات ، و لم تكد تندمل الجراحات التي فجرتها ثورة هارون حتى تجمع الفور بعد مقتله بقليل حول أمير آخر يدعى

---

(١) الدفتر رقم ٣٢ صادر تلغرافات عابدين، شفرة عربي ، تلغراف رقم١٧٧ ص ٣٦ في٢٤ من صفر١٢٩٤هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .




عبدالله دود منجه بن بكر بن السلطان محمد الفضل واعتصم بجبل مرة ، و ناصب الحكومة العداء ، و لكن خطره كان أقل من سابقه الأمير هارون ، فانحصر نشاط الأمير دود في جبل مرة و ظل كذلك حتى دخلت جيوش المهدية دارفور ، فأذعن لهم دون مقاومة (١) .

و لم يكن خروج الزبير و قواته من دارفور قد إقتصر أثره على دارفور وحدها ، و إنما كان لخروجه أثر على منطقة كردفان أيضاً ، إذ أنه في عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٩م و أثناء حركة هارون في دارفور نهض في كردفان رجلٌ يدعى صباحي الذي كان أحد قادة جيش الزبير ، فألف جماعة مسلحة تربو عن الأربعمائة نفر ، ثم أغار بها على منطقة الأضية في كردفان ، و قتل مأمورها ، و لكن قوات الحكومة في الأبيض طاردته و قبضت عليه ثم قتلته (٢) .

و إذا كان رحيل الزبير من دارفور و كردفان قد ترك فراغاً حربياً و أمنياً ساعد في قيام الثورات فإن خروجه من بحر الغزال قد ترك فراغاً إدارياً كان السبب في قيام أكبر ثورتين الثانية فيها تعد أثراً ترتب على الأولى .

فالثورة الأولى هي ثورة سليمان بن الزبير إحتجاجاً على إدارة إدريس أبتر ــ أحد الدناقلة التابعين للزبير ، و قد عينته الحكومة مديراً على بحر الغزال أثناء وجود سليمان في دارفور . و قد وجدت الحكومة العثمانية في الخرطوم و التي كانت يسيطر عليها الأوروبيون و على رأسهم هذا الصليبي المتعصب غوردون فرصة لاجتثاث أثر الزبير باشا الإسلامي في الجنوب و المتمثل في وجود سليمان ومن معه هذا الذي يعد في المقام الأول عربياً و إسلامياً فعملوا على القضاء عليه في عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٩م (٣) .

---

(١) موسى المبارك : تاريخ دارفور السياسي مرجع سابق ص ٤٠/٣٩

(٢) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٣٠٤ .

(٣) لمزيد من التفاصيل أنظر الفصل الرابع المبحث الثالث ص ٢٣٦.

و أما الثورة الثانية فقد اندلعت نتيجة للقضاء على سليمان الزبير حيث إنفصل أحد قواد الزبير بما يقارب الألف فارس و إتجه بهم نحو نهر شاري جنوب بحيرة تشاد مكوناً سلطنة عرفت باسم إمبراطورية رابح (١) .

و مما لاشك فيه أن الثورات السابقة الذكر كانت نتيجة لخروج الزبير من دارفور و كردفان و بحر الغزال .

أما أثر خروجه على السودان عامة فقد تمثل في قيام الثورة المهدية و كيف أن خروج الزبير من السودان كان من أسباب قيامها (٢).

و خلاصة الأمر هو أنه كان لإستبعاد الزبير عن الساحة السودانية عامة وبحر الغزال و دارفور بصفة خاصة أثر كبير ، حيث ترك إستبعاده و تحديد إقامته في مصر فراغاً كبيراً ، فقد كان الزبير يشكل في السودان قوة عسكرية كبيرة عملت على إستتباب الأمن في بحر الغزال و دارفور و جنوب كردفان ، كما كانت شخصية الزبير لها هيبة عظيمة في نفوس إعداء الحكومة الخديوية .

و بخروج الزبير من السودان إندلعت عدة ثورات في دارفور يقودها أبناء سلاطين دارفور السابقين مطالبين بعرش آبائهم و أجدادهم و قد إندلعت أول هذه الثورات في أوائل عام ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م بقيادة الأمير بوش إبن السلطان محمد الفضل و لكن الحكومة أخمدتها في حينهاكما سبق ذكره .

---

(١) لم أجد مايؤكد أن رابحاً هو الذي أطلق اسم ((الامبراطورية)) على سلطنته ولكن بعض الكتّاب أطلق ذلك وبما هو الاعجاب بشخصية رابح ومن هؤلاء سعد الدين الزبير ـ ألف كتاباً باسم ((امبراطورية رابح)) .

(٢) كان الرجال المقاتلون يلتفون حول الزبير ثم من بعد حول ابنه سليمان وعندما قتل سليمان وبدأ ظهور محمد أحمد المهدي التف حوله كبار القادة الذين كانوا مع الزبير وابنه سليمان مما أفاد المهدية فائدة عظيمة .

و لم يكن ينقض العام على نهاية ثورة بوش حتى انتفض أمير آخر يدعى هارون بن سيف الدين بن محمد الفضل و كان ذلك في أواخر عام ١٢٩٢هـ /١٨٧٦م ، فزعزع الأمن و الإستقرار في ظل حكومة الخديوي، و إستولى على كثير من المراكز الحكومية ، و ظل يثير الخوف و الإضطراب في نفوس رجال الإدارة الخديوية في السودان زهاء ثلاث سنوات حتى تمكنت الحكمدارية من القضاء على ثورته في عام ١٢٩٥هـ / ١٨٨٠م كما سبق ذكره و بعد مقتل الأمير هارون إندلعت الثورة في دارفور بقيادة الأمير عبدالله دُودْ و التي إستمرت حتى قيام المهدية فخضع دود لقوات الثورة المهدية .

أما في بحر الغزال فقد إندلعت ثورة سليمان بن الزبير باشا في عام ١٣٢٩٣هـ /١٨٧٨ م إحتجاجاً على سلوك غوردون معه الذي قصد الإساءة إليه ، وأخيراً تم القبض على سليمان و رجاله ونفذ فيه حكم الإعدام في عام ١٢٩٤هـ /١٨٧٩م .

و لم يكن ينقضي عام و بعض العام على نهاية ثورة سليمان بن الزبير حتى إندلعت الثورة الكبرى ـ الثورة المهدية ـ و التي قضت على نفوذ الخديوية في كافة أرجاء السودان منذ عام ١٢٩٦هـ /١٨٨١م .

فلو كان الزبير موجوداً بنفوذه السياسي والعسكري و حنكته الإدارية على الساحة السودانية لجرت أحداث التاريخ في السودان و منطقة حوض نهر شاري بغير الوجهة التي جرت عليه و لإنعطف تاريخ السودان منعطفاً آخر .




الفصل الرابـــع :

المبحث الخامس:

أثـر الزبـير فـي قيـام دولتـي المهديـة ورابـح ومحـاولات الانجليـز والفرنسيين استغلال الزبير في مواجهة ذلك .

أثر الزبير في قيام دولة المهدية في السودان:

سبق أن ذكرتُ أسباب إستدعاء الزبير إلى مصر (١) و أن حكومة الوالي في مصر و ممثلها الحكمدار في الخرطوم لم يدركا أهمية وجود الزبير بعد فتح دارفور فقد كان بقاؤه في السودان و العمل على تقوية مركزه إدارياً وعسكرياً والإستفادة من مقدراته الإدارية و العسكرية و المالية في إخضاع أقاليم جنوب السودان وكردفان و دارفور دعماً عظيماً للحكم المصري في السودان بل كان يمكن بواسطته أن تفتح القوات العثمانية مناطق جديدة مثل واداي و ما حولها وتضمها إلى أملاكها لكن الخرطوم و القاهرة توهمتا أن هذه الشخصية الطموحة لا يمكن أن ترضى بأقل من حكم السودان أو على أقل الفروض لا يمكن أن ترضى بأقل من حكم جنوب السودان بالإضافة إلى إقليمي كردفان و دارفور، وأن مطالبة الزبير بأن تؤول السلطة في دارفور إلى أحد أبناء السلطان السابق وكذلك مطالبته بتخفيض الضرائب المفروضة على الأهالي ماهي إلا خطوة أولى القصد منها إملاء إرادته على الحكومة العثمانية و ممثلها الحكمدار تمهيداً لبسط نفوذه في كردفان ودارفور بعد أن اطمأن إلى قوة شوكته في إقليم بحر الغزال ، و من أجل هذا عمل الحكمدار إسماعيل أيوب على تقليص نفوذ الزبير و توزيع جزء من قواته في أماكن مختلفة ليحد من قوته العسكرية في الوقت الذي أخذ يخابر فيه القاهرة بضرورة التخلص من هذا القائد السوداني الطموح ، فأوقع في روع الحكومة االعثمانية إنها أنها إذا لم تسرع بالتخلص منه فسوف يتخلص الزبير فيما بعد من نفوذها و ذلك بطي ظل سلطانها نهائياً في السودان .

---

(١) أنظر المبحث الثاني من الفصل الرابع ص ٢٢٤ .




و قد اعملت القاهرة فكرها واستقر رأيها على إستدعائه إلى مصر وإبقائه معها . و قد تم إستدعاء الزبير إلى القاهرة ثم أُمر بالبقاء فيها و ظنت القاهرة والخرطوم أنه بإبقاء الزبير في القاهرة قد توطد حكم الدولة العثمانية في السودان و أنها قد ودعت القلاقل و الفتن و الخوف و الحروب ، لكن الخطر في بعض الأحايين يأتي من مكمن الأمن .

فلقد جاء الزبير إلى القاهرة و هو يظن أنه جاء يحمل رؤيته لأحسن الوسائل في حكم البلاد ، و أنه إختلف مع الحكمدار إسماعيل أيوب حول الضرائب (١) كما إختلف معه في رؤيته للسلطة و السلطان (٢) كما أنه جاء إلى القاهرة و هو يحمل معه مشاريعه في ضم بلاد كواداي إلى حظيرة الحكم العثماني (٣) و قد ظن الزبير أن الحكومة العثمانية في مصر لابد أن تقر آراءه ومشروعاته و آماله و أن تلك الآراء و المشروعات والآمال بالإضافةإلى أنها تضيف أرضاً جديدة إلى الممالك العثمانية فإنها سوف تجنب الحكومة العثمانية في القاهرة و ممثلها حكمدار الخرطوم كثيراً من المتاعب و التكاليف و الإضطرابات التي سوف تفرزها سياسة الحكمدار اسماعيل أيوب في السودان .

---

(١) بعد فتح دارفور فرض الحكمدار إسماعيل أيوب ضرائب باهظة فاحتج الزبير و طالب بتخفيضها لأن الأهالي لا يستطيعون دفعها و أنها سوف تكون السبب في تمردهم على الحكومة ، أنظر مذكرات الزبير ص١٧

(٢) كانت نظرية الزبير نحو الحكم في دارفور تتلخص في أن يتولى السلطة أحد أبناء السلطان مقابل فرض أموال معلومة يدفعها لخزانة الدولة و قد رفض الحكمدار هذا الرأي : أنظر نعوم شقير : تاريخ السودان ص ٢٨١.

(٣) كان الزبير فعلاً قد وصل بقواته إلى مشارف واداي و جرت محادثة بينه و بين سلطانها ليدخل الأخير تحت السلطة الخديوية مقابل جزية معلومة و لكن الحكمدار إسماعيل أيوب طلب من الزبير سحب قواته و الرجوع عن واداي دون ذكر الأسباب . نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٢ .




و لكن الحكومة العثمانية في القاهرة ضربت بخبرة هذا القائد ز حنكته عرض الحائط فحدث ما توقعه الزبير إذ قامت فتن و ثورات وإضطرب حبل الأمن في كثير من مناطق السودان غير أن الثورة المهدية كانت أعظم و أكبر الثورات التي إندلعت في السودان كله فقد عملت على طي سلطان الخديوية في السودان إلى الأبد ، وسوف نستعرض في هذا المبحث الأسباب التي أدت إلى نشوب هذه الثورة وأهدافها و أثر إبعاد الزبير عن السودان في قيامها وإنتشارها .

كان للحكمدار إسماعيل أيوب كثير من المحاسن على الرغم من قسوته في إدارة البلاد بالاضافة الى فظاعة الضرائب التي فرضها على الأهالي وما تكلفته الدولة العثمانية و الحكمدارية من الرجال و الأموال بسبب بعض سياساته الخرقاء . إلا أنه كان للرجل جهود مقدرة في محاولته بسط الأمن وتنشيط التجارة و الزراعة و الصناعة وإنشاء مكاتب البريد و تطور العمران(١) .

و عندما رأت الحكومة الإنجليزية جهود إدارة الحكمدار إسماعيل أيوب في بسط الأمن و كذلك جهوده في السيطرة على الفساد الإداري الذي إستشرى في البلاد أوعزت إلى الحكومة في القاهرة بضرورة تعيين غوردون بدلاً عنه ، فتم إستدعاؤه إلى مصر و أرسل الجنرال غوردون الإنجليزي الجنسية المسيحي الديانة ليحل محله ، فاستمر غوردون حكمداراً على السودان زهاء ثلاث سنوات ما بين عامي ١٨٧٧م ـ ١٨٧٩م (٢) و قد قام غوردون خلال فترة حكمداريته بإرتكاب أفظع و أقسى أنواع التنكيل و التعذيب بالمواطنين بدعوى منع تجارة الرقيق (٣) وإقتلاع جذورها من المجتمع السوداني والذي كان يعتمد إعتماداً كلياً في إدارة آلته الإقتصادية من رعي و زراعة و نقل على نظام الرقيق فتعطلت معه الحياة اليومية ، و ساد الخوف و الهلع .

---

(١) عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل مرجع سابق ص ١٥٦ .
(٢) الشاطر بصلي : معالم تاريخ السودان مرجع سابق ص ١٦٤
(٣) نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٩٤
مكي شبيكة : السودان في قرن مرجع سابق ص ٨٠

وقد اعتبر الأهالي أن تحرير الرقيق و ما تبعه من تنكيل بالمواطنين في السودان على يد الإدارة العثمانية و عملائها الأجانب في السودان لم يكن مبعثه الشعور الإنساني نحو الرقيق بقدر ماهو إضطهاد أوروبي مسيحي للسودانيين المسلمين (١) وقد أكد هذا الإعتقاد (ميخائيل شاروبيم) (٢) صاحب كتاب (الكافي في تاريخ مصر القديم و الحديث) .

إذ قال :(و كان شيوخهم و علماؤهم يؤيدون لهم ذلك بالأدلة المقبولة و الشواهد المعقولة ، حتى أصبحت عندهم حقيقة لا شك فيها ، فكانوا يخفون ما يقولونهم من نار التألم و الحقد على أعمال الحكومة و يرقبون كل ساعة ، حتى ظهر محمد أحمد المهدي مدعي المهدية و أيقظ الفتنة الراكدة .) (٣) ونفس المعنى أشار إليه كل من ابراهيم شحاته ومكي شبيكة (٤) .

ثم عمد غوردون إلى إقصاء الموظفين المصريين و السودانيين و عين بدلاً منهم مجموعة من الأجانب الأوروبيين تحقيقاً للسياسة و الأهداف الإستعمارية فعين جسي باشا الإيطالي (GESSI) مديراً لبحر الغزال ، و مسداليا الإيطالي (MUSDALIE) مديراً لدارفور و فردريك روسي ROSSET قنصل ألمانيا في الخرطوم مديراً لإدارة الفاشر ، كما عين شارل ريجوليه RIGOLOI الفرنسي مديراً على دارا ومليامي مديراً لكبكابية ، كما عين سلاطين النمسوي مفتشاً للمالية في عموم السودان و جنكز باشا النمسوي أيضاً مديراً عاماً لمنع تجارة الرقيق (٥) .

---

(١) إبراهيم شحاته حسن : مصر و السودان ص ١٢٢ الاسكندرية ١٩٨٢م .

(٢) من رجال الإدارة المصرية عمل رئيساً للنيابة العمومية بمحكمة المنصورة ثم مفتشاً للمالية في عهد الخديوي توفيق باشا ــ ألف كتاب الكافي في تاريخ مصر القديم و الحديث و هو في أربعة أجزاء طبع لأول مرة في سنة ١٣١٨هـ /١٩٠٠م .

(٣) ميخائيل شاروبيم : الكافي في تاريخ مصرالقديم و الحديث ج ٤ ص ٣٧٩ .

(٤) إبراهيم شحاته حسن : مصر و السودان مرجع سابق ص ١٢٢ .
مكي شبيكة : تاريخ السودان ص ٨٠

(٥) عبدالرحمن الرافعي : عصر إسماعيل ج١ مرجع سابق ص ١٥٨ .




و هكذا أصبحت سلطات الحكم في أيدي هؤلاء الأوروبيين الإنتهازيين غير أنها كانت تتخبط في ظلمات الجهل و الفوضى فأدىّ هذا إلى إنتشار الهلع و الإرتباك و القلق و توقف النشاط العام و إنتشر السخط و التذمر ، فما قامت ثورة إلا وجدت لها أنصاراً من الجماعات المتذمرة الساخطة الناقمة .

فقد كانت مظالم هؤلاء الحكام الأوربيون من الأسباب الحقيقية التي دفعت بالناس نحو الثورة ، كذلك كان إحتكار الحكومة لتجارة العاج و هو من أهم مصادر الثروة في السودان من أسباب السخط العام و التذمر العام فنقم هؤلاء التجار والعاملون في تجارة العاج على الحكومة، و أحسوا أن هذا العمل من قبل الحكومة فيه ظلم شديد ، فكانوا أول من أيد و بارك و آذر و انضم إلى الثورة المهدية(١) كذلك كانت الحكومة بسياساتها الخرقاء سبباً في ثورة كثير من القبائل كالجعليين والجنوبيين و من أبرز مظاهر سياسة الحكومة الخرقاء غدرها بسليمان إبن الزبيرباشا (١) و أهله وعشيرته و مصادرتها أملاكه و أمواله ومن سياستها الخرقاء سلبها سلطان قبائل الفور و تقتيلها رجالها و أمرائها كالأميرين هارون وبوش(٢) ، كذلك تنكيلها بقبائل كردفان لمؤازرتهم لثورة صباحي (٣) .

---

(١) أنظر ثورة سليمان بن الزبير المبحث الثالث من الفصل الثالث ص ٢٤٢.

(٢) أنظر المبحث الرابع من الفصل الرابع (الثورات التي أعقبت خروج الزبير ص ٢٤٧/٢٥١ .

(٣) في عام ١٢٩٦هـ /١٨٧٩م خرج رجل يدعى صباحي كان أحد قادة الزبير باشا لكنه إنفصل عنه و خرج في أربعمائة من رجاله و هاجم بعض مراكز الحكومة في كردفان فطارده غوردون فهرب صباحي إلى جبال النوبة و لكن غوردون قبض عليه فحكم عليه بالإعدام في السنة التي خرج فيها . موسى المبارك ـ تاريخ دارفور السياسي مرجع سابق ص ٣٩ / ٤٠ .




و هكذا أصبح الأهالي في السودان قلوبهم تغلي كالمراجل بالكراهية والحقد على الحكام الأوروبيين الذين ساموهم سوء العذاب تنكيلاً وتقتيلاً ، وضايقوهم في أرزاقهم و فرضوا عليهم من الضرائب ما عجزوا عن أدائه ، ولم يهتموا إلا بمصالحهم الخاصة ففسدت أجهزة الحكم ، وانتشرت الرشوة والإختلاس (١) و تضررت مصالح الناس ، فتعدى هذا الحقد و الكراهية الحكام الأوروبيين في السودان إلى الحكومة الخديوية في القاهرة ، بل تعدى القاهرة إلى الأستانة حيث الخلافة العثمانية و أصبحت مظاهر الظلم في عرف الأهالي لصيقة بإسم الأتراك .

و في سنة ١٢٩٦هـ/١٨٧٩م غادر غوردون السودان بعد أن حكم السودان حكماً إختلف عما كانت عليه فتعطلت التجارة و الزراعة و شاع الفساد الذي إمتد إلى القيم الأخلاقية ، و إنحط بها إلى مايتنافى مع عادات البلاد و تقاليدها ،

و قبل أن يغادر غوردون السودان سلم الحكم إلى مساعديه من الأوروبيين والمتخلفين(٢) الذين أشرف على تعيينهم ، و كثر عدد المتعطلين من الأيادي العاملة على الأرض و الرعي بدعوى المدنية و الإنسانية لتحرير الرقيق ، و قد هيأ إرساء قواعد الحكم على هذه الصورة التربة الصالحة للتذمر و الفتنة فدفعت المجتمعات دفعاً قوياً إلى الإستجابة للدعوة التي نادى بها الإمام المهدي للخروج بالبلاد مما وصلت إليه تحت حكم الأوروبيين و من عاونهم من المتخلفين (٣) .

---

(١) ألان مورهيل : النيل الأبيض مرجع سابق ص ٢١٤ .
مكي شبيكة : السودان عبر القرون مرجع سابق ص ٢٣٠ .

(٢) المتخلفين : أي الذين دخلوا السودان بقصد السياحة أو الإستكشاف ثم مكثوا فيه و تولوا مقاليد الأمور السياسية و الإدارية و العسكرية و المالية .

(٣) الشاطر بصلي : معالم تاريخ السودان مرجع سابق ص ١٦٥ .




و قد شملت الفتن و الثورات معظم الفترة التي حكم فيها غوردون السودان وكان عهده نذيراً بنشوب الثورة المهدية ، و لم ينف غوردون هذا الإتهام بل أثبته حين قال (إن بيضة الثورة الحالية (أي الثورة المهدية) قد وضعت خلال الأعوام الثلاث التي أتيح لي فيها أن أحكم السودان على مبادئ غير المبادئ التركية (١)) بمعنى أنه نهج نهجاً في الحكم مغايراً لمبادئ القانون التركي المستمد من الدين الإسلامي .

و مما تقدم يتضح أن عهد غوردون هيأ العوامل و الأسباب لقيام الثورة المهدية كمال جعل الناس يترقبون بتحفز ظهور ذلك المنقذ الذي يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً و ظلماً و لم يكد عام ١٢٩٨هـ/١٨٨١م يُطل برأسه حتى أطلت معه ثورة عارمة بقيادة رجل إتصف بالتصوف و التواضع يسمى محمد بن أحمد وإشتهر بالمهدي (٢) ، فدعا الناس إلى التمسك بتعاليم الدين ، و الجهاد في سبيله ، والتمكين لشريعة رب العالمين في الأرض ، و قد لبّى الناس دعوته فاتجهوا إلى دفع ظلم الحكام و فسادهم ، و أعلنوا رغبتهم في الإستجابة إلى داعي الله بالجهاد والتمكن

---

(١) الشاطر بصلي : معالم تاريخ السودان مرجع سابق ص ١٦٥

(٢) ولد محمد بن أحمد في ٢٧ رجب سنة ١٢٦١هـ /١٢ أغسطس سنة ١٨٤٤/ بجزيرة لبب التي تبعد خمسة عشركيلو جنوب دنقلا ، و هو من سلالة عريقة و كان والده يعمل في بناء السفن ، فانتقل إلى كرري شمال أمدرمان ، و هناك إشتغل فترة بالعلم و التفقه في الدين و مالت نفسه إلى التصوف و الزهد و التقشف ، ودرس على أفاضل العلماء أمثال الشيخ محمد شريف (نور الدائم) و في سنة ١٢٨٦هـ/١٨٧١م رحل مع إخوته إلى جزيرة أبا الواقعة جنوب الخرطوم بحوالي مائة و خمسين كيلو على النيل الأبيض ، و في جزيرة أبا بنى مسجداً للصلاة و خلوة للتدريس ، و في شعبان ١٢٩٧هـ /يوليو ١٨٨٠م أسر بدعوته إلى بعض خاصته . و في شعبان ١٢٩٨هـ / يوليو ١٨٨١م جهر بدعوته ، و كتب إلى المشايخ و المريدين أنه رأى النبي صلى الله عليه و سلم و أن النبي صلى الله عليه و سلم أمره بإحياء الدين و طلب إليهم الحضور إليه في أبا و العمل على مؤازرته .

أنظر عبدالرحمن الرافعي : مصر والسودان في أوائل عهد الإحتلال ص ص١٠٢/١٠٣ ط٤ ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م القاهرة دار المعارف .




لدولة الإسلام في الأرض بدلاً من دولة الظلم و الفساد التي جعلت الدين وراء ظهرها فعينت النصارى في المناصب المهمة و حاربت مظاهره الإسلامية و ابتدلتها بالمظاهر النصرانية .

و قد ساعد على قيام هذه الثورة و أدى إلى إنتشارها و التفاف الناس حولها بالإضافة إلى ماذكرنا من أسباب سبب آخر مهم و هو ذلك الجو الصوفي الذي إنتشر منذ أوائل عهد الفونج في المجتمعات السودانية ، فانتشرت كتب التصوف والتي تضمنت الكثير عن المهدي و صفاته و زمانه و أنه متى ظهر يجالد أهل الباطل و يهزمهم و يرسخ قواعد دولة الإسلام التي يسودها العدل و الأمن والسلام ، و أن من آذره و أيده فاز في الدنيا و الآخرة ، و من عاداه فقد خسر الدارين ، و صار الناس كلما حزبهم الزمان و ضاقت عليهم الأرض بما رحبت تاقوا و تشوقوا إلى ظهور المهدي الذي سيخلصهم مما هم فيه من جور و ظلم .

و لمّا كان القرن التاسع عشر قد شهد إنتشار الأوروبيين و سيطرتهم على ديار المسلمين في أفريقيا فقد أخذت فكرة ظهور المهدي تنتشر بين المسلمين من سكان أفريقيا وخاصة سكان وادي النيل (١) و كما ذكرت فقد أدت الأحوال المتردية و إنتشار المظالم إلى الإعتقاد و الإيمان بقرب ظهور المهدي ، كما كان إنتشار التصوف في السودان عاملاً قوياً رسخ هذا الإعتقاد و ذاك الإيمان في نفوس أهل السودان فلذلك ما إنتهى محمد بن أحمد من إعلان دعوته و تقديم نفسه باعتباره المهدي المنتظر حتى هب الناس زرافات ووحداناً من كل بقاع السودان لينضموا إليه و لآزروه و يناصروه و ليجاهدوا في سبيل الله تنكيساً لراية الظلم والكفر والفسوق و العصيان ، و تمكيناً لدولة الحق و الإيمان و العدل و الإحسان في

---

(١) مكي شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص ٦٤٤ .




في الأرض و قد أبت الحكومة الحكمدارية في الخرطوم و من ورائها الخديوية في القاهرة إلا أن تتصدى للمهدي و أتباعه من أجل القضاء عليه وتشتيت أتباعه ودفن كل أثر لهذه الدعوة الوليدة (١) لكنه إنتصر عليهم في جميع جولاته و شتت شمل جيوشهم و غنم أسلحتهم و أموالهم ، فأخذت الأرض تتخلص من بين أيدي رجال الحكومة ، و تبسط تحت أقدام المهدي و أتباعه حتى إستسلمت له الخرطوم في ربيع الثاني سنة ١٣٠٢هـ / يناير ١٨٨٥م .

و بذلك طويت صفحة الحكومة العثمانية في السودان بعد أن فقدت الكثير من الرجال و الأموال و الأسلحة مما بذلته الحكومة الخديوية في سبيل الإحتفاظ بالسودان ففشلت و فشل أعوانها الأوروبيون فشلاً ذريعاً . و ثمة عامل يعد من أعظم العوامل و أقواها أدى إلى إنتصار المهدي و أتباعه كما أدى في الوقت نفسه إلى هزيمة الحكومة الخديوية و أعوانها الأوروبيون هذا العامل هو سياسة المهدي الإسلامية التي واجه بها سياسة الخديوية المنحرفة عن الإسلام . و بتلك السياسة الإسلامية ملك المهدي ناحية الرأي العام في السودان فدانت له المجتمعات بالحسب و الولاء .

و في الصفحات التالية سنبين أثر خروج الزبير باشا من السودان و بقاؤه في مصر مرغماً على ثورة إبنه سليمان و ثورة صباحي ثم قيام الثورة المهدية وإندفاعها في إتجاه القوة و التمكين ، فلو أن الزبير باشا بقي في السودان لم يكن بإمكان ثورة إبنه سليمان أن تقع و أبوه على قيد الحياة و تحت أمرته السلطة والنفوذ ، فلقد تمرد سليمان إحتجاجاًعلى حبس أبيه في القاهرة ،كماأن صباحي (٢)

---

(١) أنظر نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٣٥٥ و ما بعدها (وقائع الثورة المهدية)
عبدالرحمن الرافعي : مصر والسودان في عهد الإحتلال ص ص ١٠٤/ ١١٨ (وقائع الثورة المهدية)

(٢) صباحي أحد قادة الزبير خرج على الحكومة سنة ١٨٧٩م فحاربته الحكومة و أسرته ثم أعدمته
نعوم شقير تاريخ السودان مرجع سابق ص ٣٠٤ .

أحد قادة الزبير الذي تمـرد في كردفان ما كان باستطاعته أن يقـوم بثورتـه لو كان الزبير موجوداً علـى السـاحة فـي السـودان بقواتـه و مـا كـان باستطاعته أن يتفرد بسياسة لا يقرها الزبير ، و لو أنه خرج على سيده الزبير فإن مصيره سيكون مثل الدابي (١) أحد قواد الزبير السابقين الذي تمرد عليه قبل مغادرته السودان ، فمـا كان من الزبير إلا أن عمل على إخماد ثورته دون أن يفقد ولاء قبائل كردفـان التـي لـم تبد حراكـاً تقديـراً منهـا لقـوة الزبـير العسـكرية فـأدى هـذا إلـى إستتباب الأمـن والإستقرار في كردفان .

و لقد رأينا كيف أصبحت كردفان التربة الصالحة لنواة الثورة المهدية الأولى بل إنها كانت الحصن المنيع الذي ترعرعت فيه تلك الثورة و إستغلظ سوقها واشـتد سـاعدها (٢) ، و لوكـان الزبـير موجـوداً علـى مسـرح الأحـداث لأمكـن للحكومـة الخديويةأمام إغراء الزبير ووعيده و أمام الأمـر الواقـع أن ترضـى بنظريـة الزبـير وهي تسليم الحكم لأحد أبناء السلاطين من دارفور و العمـل علـى خفض الضرائـب وبهذا لا يمكن أن تقوم ثورة أبداً .

حتى لو افترضنا أن الحكومة لم ترض بنظرية الزبير في الحكم فـي دارفـور و لم تعمل على تخفيض الضرائب كما طلب فإن قوته العسكرية ستصبح سـداً منيعـاً دون الثورة المهدية في كردفان و دارفور فبغياب الزبيرأصبحت دارفـور و كردفـان الأرض الصلبة التي وقفت عليها الثورة المهدية .

---

(١) الدابي أحد قواد الزبير السابقين خرج على الزبير و هاجم بعض القبائل فتتبعه الزبير باشـا و قضـى عليـه سـنة ١٨٧٥م ، الدفتر رقم ٣١ وارد تلغرافات عابدين شفرة عربي تلغراف رقـم ٦٧ فـي ٢٢من ربيـع الأول سـنة ١٢٩٢هـ .

(٢) بدأ المهدي دعوته في الجزيرة أبا في سنة ١٢٩٨هـ /١٨٨١م على النيل الأبيـض و لمـا أحـس بـالخطر لقربهـا من الخرطوم إنتقل إلى جبل قدير في وسط كردفان ليكون في مأمن من بطش الحكومة .

و لقد مر بنا أن الزبير باشا أثناء حربه لقبائل الرزيقات قبض على عبدالله التعايشى(١) و كان هذا الرجل يؤكد أن الزبير مهدي هذه الأمة ، و أن الأقدار الإلهية قادته إليه و لم يلبث أن طلب الإذن من الزبير باشا بمبايعته و مصاحبته فما كان من الزبير إلا أن أمر بقتله ثم عدل عن هذا الأمر و أطلق سراحه بعد أن إشترط عليه ألاّ يرد ذكر المهدي أو المهدية على لسانه و بعد أن استوثق عبدالله من خروج الزبير و تعويقه في مصر إلتقى محمد أحمد و ألقى في ردعه أنه هو المهدي و عمل على نشر هذا الإعتقاد و لم يلبث التعايشي أن أصبح الرجل الثاني في الثورة المهدية بل إنه خلف محمد أحمد المهدي على كرسي الحكم في الدولة المهدي(٢) ولو كان الزبير باشا موجوداً على مسرح الأحداث لما كان لعبدالله التعايشي هذا ذكر بل لما حدثته نفسه بتأكيد المهدية لرجل آخر خوفاً من أن يقع مرة أخرى في يد الزبير لأنه يعلم جيداً أن مصيره سيكون الموت و ذلك لإخلافه الوعد الذي قطعه على نفسه أمام الزبير بألا يدعى المهدية أو يُلقى في روع رجل آخر بأنه المهدي . و مما لا شك فيه أن ثلاثة من أشهر قواد المهدية و هم حمدان أبو عنجة (٣) .

---

(١) نعوم شقير ـ تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٦٩ /٢٧٠ .

(٢) ب .م هولت : دولة المهدية في السودان ص ١٢٤ تعريب هنري رياض و آخرين دار الجيل بيروت ط ١٩٨٢م .

(٣) حمدان أبو عنجة: ولد في دار التعايشة غرب السودان عام ١٨٣٥م /١٢٥٠هـ و شارك في أغلب حملات الزبير كما شارك في غزوات رابح ، ثم إلتحق بالمهدية في قدير ، فكان من أعظم قوادها و يعتبر مؤسس الجهادية الأولى .

عصمت زلفو : كرري مرجع سابق ص ٥٦ .

والنور عنقرة (١) و الزاكي طمل (٢) قد لعبوا دوراً بارزاً و بذلوا جهداً عظيماً في نشر دعوة المهدية و تقوية شوكتها و بسط نفوذها و إدخال الرعب في نفوس أعدائها و هؤلاء الثلاثة من قادة الزبير باشا الكبار ثم أصبحوا تحت إمرة إبنه سليمان ، و لما قتل سليمان ما كان لقادته الذين لم يعرفوا الدعة و السكوت أن تهدأ نفوسهم الأبية التي لم تركن إلى الطمأنينة إلا تحت ظلال السيوف ووقع فرقعة البنادق و قصف المدافع فانضم بعضهم بقواته إلى قوات الحكومة ، و لكن ما أن هبت رياح الثورة المهدية حتى تنادوا و تجمعوا من جديد تحت رايتها كتجمعهم تحت راية الزبير وابنه سليمان من قبل .

ولئن كان حب المغنم و معالي الأمور قد جمعهم تحت راية الزبير فإن الإيمان بالعقيدة المهدية بالإضافة إلى حب المغانم و معالي الأمور قد جمعهم تحت راية محمد بن أحمد المهدي و هؤلاء كانوا يعتقدون في الوقت نفسه أنهم يخلصون النية بالجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمته و الفوز بإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة .

---

(١) النور عنقرة : النور بك محمد عنقرة بديري الأصل ولد في عام ١٨٣٤م تقريباً و عمل بالجيش المصري في عهد إسماعيل حوالي سنتين ثم عاد إلى السودان و إلتحق بجيش الزبير في الجنوب و بعد القضاء على الزبير عمل مرة أخرى في جيش الحكومة ثم إلتحق بالثورة المهدية و أصبح من مشاهير قوادها .

(٢) الزاكي طمل : أحد قادة الزبير المشهورين بايع المهدي في قدير و سار معه لحصار الخرطوم . و في أوائل سنة ١٣٠٦هـ /١٨٩٩م أصبح أميراً على قلابات شرق السودان حيث خاض عدة معارك ضد الأحباش كان النصر فيها لجيوش المهدية . وفي سنة ١٣٠٧هـ طلب إليه الخليفة عبدالله التعايشي إخماد ثورة الشلك في فشودة و ذلك لخبرته بالجنوب و بعد عودته من فشودة تم إرساله مرة أخرى إلى شرق السودان حيث عسكر بالقضارف ، ثم إتهمه الخليفة بالسعي إلى الإستقلال ، فسجنه و منع عنه الطعام حتى مات في السجن في يوم ١٦ من سبتمبر ١٨٩٣م .

سلاطين باشا : السيف و النار مرجع سابق ص ٢٦٠ / ٢٦١ ، ٣٨٨/٣١٢ .

نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٨١٩/٨١٨ .

ولو قُدِّر للزبير أن يكون على مسرح الأحداث فإن هؤلاء القادة ما كان في وسعهم أن يسقطوه و ينصبوا غيره ، و ما كان للمهدي و المهديين أن يستفيدوا من الدروس و الخبرات التي أفرزتها مدرسة الزبير الحربية التي خرّجت هؤلاء القادة الأفذاذ وقواتهم التي تحت أيديهم .

لقد استفادت الحركة المهدية من خبرات هؤلاء القادة الثلاث و خاصة أبو عنجة الذي يعتبر المؤسس الأول لجيش المهدية الذي عرف بالجهادية فعملوا على تنظيم و تدريب الجيش كما أنهم قادوا كثيراً من المعارك كانت شجاعتهم و حسن تدبيرهم من العوامل التي أكسبتهم النصر في معظم المعارك التي خاضوها ، فعلى أكتافهم قامت الثورة المهدية ، فهؤلاء القادة تربوا في كنف الزبير و كسبوا أعظم المهارات العسكرية تحت لوائه كما أن الزبير أغدق عليهم الأموال الطائلة و عاملهم معاملة الأخ الصديق فأحبوه من قلوبهم ، و بذلوا الغالي و الرخيص في كافة حروبه حتى سار النصر تحت لواء الزبير أينما سار ، و لم يقف إخلاصهم للزبير فقط ، بل أخلصوا لإبنه سليمان من بعده، و لم يتفرقوا إلا بعد أن قُتل سليمان ، فلو كان الزبير موجوداً في السودان أو ظل إبنه سليمان على قيد الحياة ما ترك هؤلاء القادة أشخاصاً عرفوهم و حياة ألفوها و لما إنضموا إلى أشخاص ما عرفوهم و لما دخلوا في حياة مجهولة لهم .

لقد كان هؤلاء القادة الثلاثة يعتقدون أنهم يقاتلون تحت راية الزبير في سبيل الله لأن الزبير كان يعتقد أنه يحارب باسم الخديوية التي تحكم بإسم الخلافة العثمانية التي تحكم بإسم الإسلام . و لذلك لا يوجد لهؤلاء القادة دافع يدفعهم لترك الزبير والإنضمام إلى المهدي .

إن جميع الوقائع التاريخية لتؤكد بأن غياب الزبير عن مسرح الأحداث في السودان قد مهد لظهور المهدي بطريقة غير مقصودة ، فمن المؤكد أن جميع القادة الذين إنضووا تحت راية المهدية لم يتطلعوا إلى الإنضمام إلى رجل ينافس الزبير باشا إذ أن شهرة الزبير و كرمه و فضله و تدينه و ثراءه و شجاعته قد ملأت سمع

الدنيا و بصرها في الوقت الذي كان فيه محمد أحمد المهدي مجهولاً مغموراً لايحس به أقرب المقربين إليه .

و بذلك يمكن القول بكل ثقة إن خروج الزبير من السودان و تعويقه في القاهرة فقد كان ذا أثر عظيم و مفيد للمهدية في آن واحد حيث خلت الساحة من منافس قوي للمهدي ، كما أنّ الثورات التي قامت في بداية غياب الزبير باشا عن الساحة في السودان و مواقف الحكومة الغاشمة ضدها مهدت السبيل لالتفاف الناس حول المهدي ثم أصبح لقادة الزبير بعد غيابه النصيب الأوفر و القدح المعلى في بسط نفوذ المهدية على السودان .

و خلاصة الأمر أن خروج الزبير باشا من السودان و بقائه في القاهرة قد مهد الساحة السودانية لقيام الثورة المهدية ، إذ أن عدم وجود الزبير جعل القادة الأوروبيين الحاكمين في السودان يستبدون و يسومون الناس خسفاً و ظلماً مما هيّأ النفوس للإتفاق حول أي رجل يسعى لتخليص الناس من نير الحكام الأوروبيين الظالمين ، فعدم وجود الزبير شجع عبدالله التعايشي للإلتفاف حول المهدي و العمل على تأكيد مهدويته ، و كان هذا الرجل قد سعى من قبل مؤكداً أن الزبير هو المهدي المنتظر إلا أن الزبير زجره و نفي هذا الإدعاء عن نفسه و ألزمه بعدم نشره و إلا كان القتل جزاؤه ، فلما علم بغياب الزبير في مصر شجع الشيخ محمد أحمد على القول بأنه هو المهدي و عمل على جمع الناس حوله كما أن قادة الزبير العسكرين من أمثال حمدان أبو عنجة و النور عنقرة و الزاكي طمل كانوا الركائز التي قام عليها نظام الجيش في المهدية ، فقادوا جيوش المهدية من نصر إلى نصر حتى قوضوا دعائم الحكم الخديوي في السودان ، و بنوا على أنقاضه دولة المهدية فاستفادت الحركة المهدية بطريقة غير مقصوده من عدم وجود الزبير في الساحة السودانية ، فخلت هذه الساحة من منافس للمهدي يمكن للناس أن يلتفوا حوله و له مقدرات الزبير الإدارية و العسكرية و المالية كما أن عدم وجود الزبير في الساحة جعل قادته يبحثون عن زعيم ليظهروا قدراتهم القيادية من خلاله فكان هذا الزعيم هو محمد أحمد المهدي و حركته الإيمانية العسكرية .



محاولات غوردون الإستعانة بالزبير لمواجهة الثورة المهدية:

إن الفترة التي قضاها غوردون باشا حكمداراً للسودان ما بين عامي ١٢٩٤ ــ ١٢٩٦هـ / ١٧٨٨ ــ ١٨٧٩م هي الفترة التي مهدت لقيام الثورة المهدية حيث أن غوردون عمل على تقليص نفوذ الموظفين المحليين و المصريين و عين بدلاً عنهم جماعة من الأوروبيون (١) و جعل لهم سلطات لم تكن لسابقيهم الذين شغلوا تلك الوظائف فعمل هؤلاء الأوروبيين على استفزاز الأهالي و تحريضهم على الإنشقاق ورفع راية العصيان في وجه مصر صاحبة الحكومة الشرعية في البلاد . وعلى الرغم من أن الخديوي توفيق كان يتوقع أن يقوم الأوروبيين بنشاط لا يتفق مع مصلحة مصر والسودان فإنه لم يكن قادراً على إتخاذ إجراءات مضادة للحد من ذلك النشاط نظراً لمركزه الدقيق فيما يختص بعرشه وولايته (٢) .

ولقد خرج غوردون من السودان في نهاية عام ١٢٩٦هـ /١٨٧٩م و البلاد تتميز من الغيظ والغضب وذلك لما إرتكبه الإداريون الأوروبيون ومن شايعهم من الموظفين من مفاسد ومآسي في حق الشعب السوداني .

وبعد مضي ستة أشهر من سفر غوردون جاء إلى الخرطوم محمد رؤوف باشا (٣) ليتولى منصب الحكمدارية و لم تكن لهذا الحكمدار القدرة و الحنكة و إتساع الأفق لمعالجة المشاكل القائمة بل سلك مسلك غوردون في تنفيذ معاهدة الرقيق والتي كانت القاهرة حريصة على تطبيقها بكل السبل إرضاءً للإنجليز الذين كانوا يسيطرون على مقاليد الأمور في القاهرة . و كما عملت القاهرة على إرضاء الإنجليز في مصر فقد عمل رؤوف في السودان على إرضاء الأوروبيين عامة

---

(١) أنظر ص ٢٧٢ من هذا البحث .

(٢) قام الإنجليز بخلع الخديوي إسماعيل من كرسي الخديوية عندما عجزت ميزانيته عن سداد ديونهم و تم تعيين إبنه محمد توفيق الذي أدرك أن أي مقاومة لسياسة الإنجليز سوف تطيح بعرشه كما أطاحت بعرش والده من قبل .
شبيكة : تاريخ شعوب وادي النيل مرجع سابق ص ٥٢٨ .

(٣) تم تعيينه في مارس ١٨٨١م و هو آخر الولاة الذين حكموا السودان قبل الثورة المهدية ، و كان ضعيفاً خلواً من الكفاية الحربية و الإدارية ، وفي عهده ظهرت الثورة المهدية التي قضت على نفوذ مصر و الأوروبيين في السودان ، و قد عينه الخديوي توفيق حكمداراً لعموم السودان و ملحقاته ماعدا هرر و زيلع و بربره وتاجورة و سواحل البحر الأحمر من مصوع و سواكن و غيرها إذ كان لها محافظون و مديرون آخرون .
أنظر عبدالرحمن الرافعي مصر والسودان في عهد الإحتلال مرجع ص ٩٣ /٩٦ .




والإنجليز خاصةً، و غض الطرف عن كل مساوئهم ، والحقيقة أنه لم يكن يملك من السلطان شيئاً يواجه به الأوروبيين فازدادوا غطرسة وازدراء للمواطنين فأمتلأت نفوس المواطنين نفوراً ، و تهيأت عزائمهم للثورة .

ففي عام ١٢٩٨هـ ـــ ١٨٨١م بدأ المهدي يُسر بدعوته للخاصة كما بدأ في إرسال الكتب و المناشير للمشائخ و الأعيان (١) ليوافوه في جزيرة أبا (٢) .

وفي عام ١٢٩٨هـ /١٨٨١م أعلن المهدي خروجه على الحكومة ، ودعا الناس للجهاد ، ووقع أول صدام بينه و بين الحكومة في ١٢ من أغسطس ١٨٨١م حيث انتصر على قوات أبي السعود الذي أرسلته الحكومة للقبض على المهدي في جزيرة أبا .

وكما بدأت الأحداث تتطورفي السودان كذلك أخذت الأحداث تتطور في الوقت نفسه في مصر حيث كسبت الثورة العرابية أول إنتصاراتها بإقصاء عثمان رفقي من وزارة الحربية (٣) مما شغل القاهرة عما يجري في الخرطوم ، و عندما دخلت سنة ١٢٩٩هـ / ١٨٨٢م رجحت كفة المهدي و أخذ الناس ينضمون إليه زرافات ووحدانا خاصة أن إنتصاراته تمت بالسلاح الأبيض (السيف و الرمح) في مواجهة السلاح الناري مما جعل الكثيرين يعتقدون في صلاحه و صحة دعوته .

---

(١) أرسل المهدي كتاباً إلى الشيخ محمد صالح و هو من علماء دنقلة يخبره فيه بدعوة المهدية و يطلب منه الإنضمام إليها فما كان من الشيخ محمد صالح إلا أن بعث بخطاب محمد أحمد المهدي إلى محمد رؤوف باشا حكمدار السودان لافتاً إنتباهه إلى ذلك الأمر .

عبدالرحمن الرافعي : مصر والسودان ص ١٠٤ .

نعوم شقير: تاريخ السودان مصدر سابق ص ٣٢٨ / ٣٨٤

(٢) جزيرة على النيل الأبيض حوالي ٩٠ كلم جنوب الخرطوم .

(٣) الثورة العرابية تنسب إلى أشهر قادتها و هو القائمقام أحمد عرابي، ولد في قرية (هرية رزنه) في مديرية الشرقية قرب الزقازيق في ٣١ من مارس ١٨٤١م ، و كان أبوه شيخ البلد و ألحقه سنة ١٨٤٩ بالجامع الأزهر و لكنه ترك الدراسة في الأزهر و التحق بالجندية و لما إرتقى في مدارجها لمع نجمه فحظي برضا الخديوي سعيد باشا ورافقه في زيارته للمدينة المنورة سنة ١٨٦٠م وقد قاد أحمد عرابي ثورته في سنة ١٨٧٩م لسببين رئيسيين أولهما التسلط التركي و الشركسي و الإمتيازات المرتبطة به و الثاني صلات الخديوية بالنفوذ الأجنبي و خضوعها لتيار هذا النفوذ .

أنظر إبراهيم شحاته : مصر والسودان مرجع سابق ص ٧٧/ ٨٠ .




وعندما وضح عجز رؤوف باشا في مواجهة الثورة المهدية إستُدعي إلى مصر ، فترك السودان في فبراير عام ١٨٨٢م ، فخلفه جيجلر باشا (١) على مقاليد الحكمدارية فلم يدرك مدى خطورة الحركة المهدية ، و لم يقدر مدى قوتها تقديراً سليماً وقد عمل جيجلر جاهداً على إضعاف الحاميات المصرية في النيل الأبيض مما عرضها للأخطار .

وقد أدركت مصر أن جيجلر لم يكن الرجل المناسب الذي يوكل إليه حسم الصراع مع المهدي لأنه من بيئة تختلف إختلافاً كلياً عن البيئة المحلية السودانية وذلك في الدين و اللغة و التقاليد لذلك لم يتأت له فهم طبيعة الثورة المهدية ، كما أنه عمل زمناً في تنفيذ معاهدة الرقيق بالصورة القاسية المدمرة التي رسمها غوردون فأصبح وجوده على قمة السلطة في السودان يزيد الناس نفوراً من الحكومة ويدفعهم نحو الإنضمام إلى المهدي ، لذلك أرسلت حكومة القاهرة عبدالقادر باشا حلمي (٢) إلى السودان في مايو سنة ١٨٨٢م ليتولى منصب الحكمدارية بالإضافة إلى منصبه كوزير لوزارة السودان (نظارة السودان) .

---

(١) ضابط إنجليزي حضر إلى السودان في عام ١٨٧٧م حيث عمل مفتشاً للتلغرافات ، قد سبق أن عمل مع غوردون لمنع تجارة الرقيق مستخدماً كل أساليب العنف و الوحشية ، كما عمل نائباً للحكمدار طوال فترة حكمدارية عبدالقادر حلمي.

(٢) كان عبدالقادر باشا حلمي ذا شخصية قوية و حنكة إدارية وخبرة في معالجة الشئون الإدارية و العسكرية ولما دخل الخرطوم وجدها غير محصنة فعمل على تحصينها ، فحفر حولها خندقاً بين النيلين الأزرق و الأبيض و بنى عليهما الأبراج كما ملأها بالجنود . ثم قاد عدة معارك في الجزيرة و سنار أدت إلى وقوع هزائم كبيرة بين صفوف الثوار .

أنظر نعوم شقير : تاريخ السودان مصدر سابق ص ٣٥٥ و ما بعدها .

الشاطر بصيلي : معالم تاريخ السودان مصد سابق ص ١٦٧ .




و قد بذل عبدالقادر باشا حلمي جهوداً عظيمة لتهدئة و استقرار الأوضاع في السودان ، و لكن في هذا الوقت كانت بريطانيا قد تذرعت بأحداث الثورة العرابية فاحتلت مصر تمهيداً لبسط سياستها على وادي النيل .

و لما كانت جهود عبدالقادر باشا حلمي في السودان لا تتفق و أهداف السياسة الإستعمارية الإنجليزية في حوض النيل عمل الإنجليز بوسائلهم المختلفة على نشر الشائعات المغرضة التي من شأنها إضعاف مركز مصر في السودان ، كما أنها عملت على إثارة مخاوف الخديوي توفيق من نشاط عبدالقادر باشا حلمي في السودان فاتهمته بالقيام بتدبير يرمي إلى فصل السودان عن مصر ، و تبعيته المباشرة للباب العالي ، فاستدعاه الخديوي في صورة توضح مدى خوف توفيق الذي كانت ولايته على مصر عرضة للخلع لولا مناصرة الإنجليز له ، الذين أرادوا ببقائه في خديوية مصر و هي في مركز الضعف تحقيق أهدافهم بأيسر الطرق وأسرعها (١) .

وقد غادر عبدالقادر باشا الخرطوم في عام ١٢٩٩هـ/٢٦ من أبريل سنة ١٨٨٣م متجهاً إلى القاهرة ، فاستولى على مقاليد الحكمدارية بعده علاء الدين باشا صديق ، كذلك تم تعيين الفريق هكس باشا رئيساً لهيئة أركان القوات المصرية في السودان وتم إسناد قومندانية القوات إلى سليمان باشا نيازي بناء على طلب هكس باشا (٢) .

ومما سبق يتضح أن مسئوليات الحكمدار في السودان قد قسمت إلى إدارتين، فاصبح هناك حاكم إداري و آخر عسكري ، فازدادت الثغرات و برزت المنازعات

---

(١) الشاطر بصيلي : معالم تاريخ سودان وادي النيل مرجع سابق ص ١٦٨ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦٩ .




والمشاحنات حول الإختصاصات ، و تمكن هكس من التدخل في كل صغيرة وكبيرة تتعلق بتحركات القوات و شئونها ، و بدأت سيطرة هكس مرحلة خطيرة في تاريخ الإدارة المصرية في السودان لأن هكس و من معه من الضباط البريطانيين الذين جاءوا لمعاونته قد كونوا شبكة خاصة ، و عمل هكس وزملاؤه بشتى الوسائل على إبعاد المصريين عن العمل في دائرتهم ، حتى لا تتكشف خططهم التآمرية (١) كما إستعان هكس بمترجم من هيئة المخابرات البريطانية في الشرق الأوسط (٢) حتى لا تتكشف أهدافه المشبوهة ، و في هذا الأثناء كان أمر المهدي قد إستفحل ، وقويت شوكته ، و إشتد ساعده ، حيث هاجر الناس إليه في مقر هجرته بجبل قدير في كردفان .

جهزت الحكومة حملة كبيرة قادها هكس باشا بنفسه لقضاء على المهدي وأعوانه و عندما وصلت القوات إلى غابة شيكان بالقرب من جبل قدير باغتها أنصار المهدي و أبادوها و قتل هكس باشا نفسه و ذلك في الخامس من نوفمبر سنة ١٢٩٩هـ /١٨٨٣م ، وقد رجع الأنصار المهديون بأسلحة الحكومة و عتادها مما زادهم منعة وقوة إلى قوتهم .

---

(١) هذا يؤكد أن الأوروبيين ما جاءوا لخدمة المصالح المصرية رغم الثقة و الإمتيازات التي وضعتها الحكومة الخديوية بين أيديهم ، و لكنهم عملوا لمصلحة بلادهم أولاً و أخيراً و التي كانت تقضي بفصم عرى الصلات بين السودان و مصر .

ومن أهم أهداف الخطة الإنجليزية في السودان إضعاف النفوذ الإداري و العسكري المصري في السودان ، و إثارة كراهية السودانيين للمصريين .

(٢) المترجم المشار إليه هو إدوارد بلدوين ليفانس ، إنجليزي ولد سنة ١٨٤٣م و توفى سنة ١٨٨٣م و عمل بالتجارة بين صعدة ومصر – إلتحق بالمخابرات البريطانية خلال الحملة الإنجليزية على مصر سنة ١٨٨١م ثم خدم مع هكس كرئيس مخابراته و مترجمه لإجادته اللغة العربية .

بصيلي : معالم تاريخ السودان مرجع سابق هامش ٥٨ ص ١٦٩ .




وما كادت أخبار إبادة جيش هكس تصل إلى الأسماع حتى تنصلت بريطانيا من مسئوليتها في تعيين هكس و ألقت بالمسئولية على الحكومة المصرية ، كما أنها وجدت في إبادة حملة هكس ذريعة لتخطو خطوات أخرى لتنفيذ سياستها الإستعمارية في وادي النيل عامة و في السودان خاصة هذه السياسة التي عمل كل من بيكر و غوردون وجسي و غيرهم من الأوروبيين على بذر بذرتها الأولى وهي العمل على فصل السودان من مصر و ضمه إلى شرق ووسط أفريقيا وبث الصلة بينه و بين عروبته .

فاستقر رأي الحكومة البريطانية على ضرورة إخلاء السودان (١) و الجلاء عنه و ذلك بحجة حماية مصر من الثورة المهدية بل إقترحت على الحكومة المصرية إبتعاث غوردون باشا لتنفيذ الجلاء عن السودان و عندما رفض شريف باشا رئيس الوزراء طلب الحكومة الإنجليزية أُجبر على تقديم إستقالته (٢) ضارباً بذلك مثلاً في الشجاعة و الحفاظ على وحدة وادي النيل .

وقد تم تعيين نوبار باشا (٣) خلفاً لشريف باشا فوافق على إخلاء السودان ،

---

(١) المقصود بالإخلاء أو الجلاء إخراج المصريين العاملين في إدارة حكومة السودان و كذلك سحب الحاميات العسكرية المصرية من السودان و ارجاعها إلى مصر بحجة وجود خطر على حياة المصريين و الأتراك في السودان من المهديين لكي يعلن المهدي إستقلال السودان عن الخديوية و بعد خروج السودان من يد السلطة المصرية يتذرع الإنجليز ثم يحتالون على السودان مرة أخرى منفردين بحكمه و ذلك تحت ستار إعادة الأمن و الإستقرار للسودان لأن إضطراب الأمن في السودان يؤثر سلباً على الأوضاع في مصر التي تذعن لمطالبهم وهي خطة عمل لها الإنجليز منذ قدوم بيكر و غوردون كما أشرنا من قبل .

(٢) كان شريف باشا رئيس الوزراء ووزير الخارجية المصرية و قد قدم إستقالته في السابع من يناير سنة ١٨٨٤م محتجاً على قبول الخديوي توفيق طلب إخلاء السودان الذي تقدمت به إنجلترا ، و قال شريف قولته المشهورة (إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا) .

عبد الرحمن الرافعي ــ مصر و السودان مرجع سابق ص ١١٩ ــ ١٢٠ .

(٣) نوبار باشا : أحد الساسة المصريين تولى رئاسة الوزاره مرتين الأولى في عهد الخديوي إسماعيل في أغسطس سنة ١٨٧٨م وسقطت في فبراير ١٨٧٩م ، و الثانية في عهد الخديوي توفيق من ١٠ يناير سنة ١٨٨٤م وذلك أثر إستقالة حكومة شريف باشا في ٧ يناير ١٨٨٤م وكان شريف باشا رفض أمر الإنجليز بإخلاء السودان فطلبوا من الخديوي تنحية شريف باشا وتعيين من يعمل على إخلاء السودان ، و كان ذلك الرجل هو نوبار باشا الذي تم إخلاء السودان على يديه تنفيذاً لرغبات الإنجليز .

عبدالرحمن الرافعي ــ مصر والسودان في عهد الإحتلال مرجع سابق ص ١١٩ / ١٢١ .




كما تم تعيين غوردون ليقوم بإجلاء المدنيين و الجنود المصريين عن السودان (١) وما كاد غوردون يصل إلى مصر في طريقه إلى السودان حتى أرسل إلى كرومر قنصل بريطانيا في القاهرة برقية في ٢٢ يناير ١٨٨١ م طلب فيه تشديد المراقبة على الزبير باشا الموقوف بالقاهرة بواسطة أحد الأوروبيين وذلك حتى لا يتمكن من إرسال رسل أو كتب إلى السودان يؤيد فيها الثورة المهدية و يدعمها برجاله وخبراته ويقترح إبعاده إلى قبرص (٢) .

و هكذا بدأت متاعب الزبير و هو مجبر على الإقامة في مصر مع أحداث الثورة المهدية في السودان .

ومنذ أن أخضع الزبير سلطنة دارفور لحكم مصر في أواخر عام ١٢٩١هـ /١٨٧٤م لم تتوقف متاعبه مع الحكام في السودان سواء المصريين أو الإنجليز فماكاد الأمر يستقر في دارفور حتى إتهمه الحكمدار إسماعيل أيوب بعدم الطاعة والتفاهم مع مرؤوسيه بل إتهمه بالعمل على الإستقلال ببحر الغزال و دارفور وهذا ما جعل الخديوية تعمل على إبقائه في القاهرة حتى تحول بينه و بين ما اتهم به من نزوعه إلى الإستقلال .

وما كاد إسماعيل يغادر السودان و يخلفه على كرسي الحكمدارية غوردون حتى إتهم الزبير بالوقوف خلف ثورة إبنه سليمان (٣) و قام بمصادرة أمواله وحبس أهله و ذويه ، بل طالب الخديوية بسجنه و إعدامه (٤) .

و لما إستفحل أمر ثورة المهدي أُتُهم الزبير بمراسلة المهديين ، وطالب غوردون بمراقبته بواسطة أحد هؤلاء الأوروبين بل طالب بنفيه إلى قبرص .ولكن ما حقيقة علاقة الزبير بالمهدي ؟

---

(١) مكي شبيكة : السودان عبر القرون مرجع سابق ص ٨٢ .

(٢) كرومر ــ بريطانيا في السودان مصدر سابق ص ٨٥ .

(٣) أنظر وقائع ثورة سليمان - الفصل الرابع ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ .

(٤) دار الوثائق القومية بالخرطوم رقم ١/١٥/٧٤ .




لقد ثبت تاريخياً أنه لم تكن هناك أدنى علاقة بين محمد أحمد المهدي وبين الزبير باشا و إنما كان هناك تعارف فقط بين الزبير و بين الرجل الثاني في الحركة المهدية وهو عبدالله التعايشي فقد أسر الزبير باشا عبدالله التعايشي بعد إنتصاره على عرب الرزيقات سنة ١٢٩٢هـ/١٨٧٤م ، كان الزبير قد قرر إعدام عبدالله التعايشي لأنه كان يحرض الرزيقات على القتال ، و لكن مستشاريه طلبوا من الزبير العفو عنه لأنه رجل يعتقد الناس في صلاحه فما كان من عبدالله التعايشي إلا أن إدعى أن الزبير هو المهدي المنتظر فنفى الزبير عن نفسه ذلك وطالبه بعدم ذكر ذلك وإلا عرض نفسه للقتل.

وبعد أن أتم الزبير فتح دارفور ونتيجة الخلاف بينه و بين الحكمدار إسماعيل أيوب تم إستدعاؤه إلى مصر و هناك لم يسمح له بالرجوع إلى السودان خوف الإستقلال بالسودان عن الحكومة الخديوية وقد مر بنا ذلك بالتفصيل في المبحث الثاني من الفصل الثاني (ص) .

وبوجود الزبير في مصر إنقطعت صلته بعبدالله التعايشي و لكن عبدالله وجد ضالته في الشيخ محمد أحمد الذي إشتهر بالزهد والورع و التقوى فألقى عبدالله في روح محمد أحمد المهدي أنه هو المهدي المنتظر ساعده في ذلك عدة أمور ، أولها وجود الزبيرخارج السودان ، وثانيها قبول الفكرة لدى محمد أحمد المهدي و شيوع فكرة أن الزمان زمان المهدي لأن الأرض ملئت جوراً وظلماً وآن الأوان لتملأ عدلاً و محبة وسلاماً فآمن الناس كما آمن عبدالله بأن محمد أحمد هو المهدي المنتظر فألتفوا حوله و أيدوه وناصروه و لم تكن للزبير إي صلة بهذه الدعوة من قريب أو بعيد ولكن الإنجليز بعد أن فشلوا في إيجاد أي صلة بين الزبير وثورة إبنه سليمان ورفض الخديوي إسماعيل طلب غوردون بإعتقاله أو إعدامه بل برأه بنفسه مشيراً إلى سلامة سلوك الزبير و إمتثاله التام لأوامر الخديوية وقوة إعتقاده بأن




الوالي العثماني صاحب السلطان لذلك يحرم الخروج عليه أو عصيان أوامره (١) فكان لابد للإنجليز أن يبحثوا عن ذريعة أخرى للقضاء على الزبير ووجدوا ضالتهم في الثورة المهدية فادعوا أن للزبير صلة بها و أنه يراسل قادتها سراً ويحرضهم على غزو مصر و أخذوا في مراقبته وتضييق الخناق عليه و لكن ظهر أمران غيرا في سياسة الإنجليز تجاه الزبير لبعض الوقت.

الأمر الأول : حملة سواكن لإخضاع حركة عثمان دقنة (٢)

الأمر الثاني: تحرج موقف غوردون في الخرطوم .

فرأت الحكومة الإنتفاع من خدمات الزبير في مواجهة حركة عثمان دقنه . فبعد موافقة الإنجليز طلبت الحكومة الخديوية من الزبير جمع آلاي من السودانيين الموجودين في مصر و قيادتهم في حملة ضد حركة عثمان دقنة في سواكن و بالفعل قام الزبير على رأس الآلاي السوداني وفي مدينة السويس فوجئ بأن الحملة تحت قيادة ضابط إنجليزي يدعى بايكر PAIKER يعاونه ضابط إنجليزي آخر يسمى

---

(١) سعد الدين : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ١٠١ .

(٢) ولد عثمان أبوبكر دقنه بمدينة سواكن حوالي عام ١٨٤٠م ويرجع أصله إلى أكراد ديار بكر الذين حضروا إلى سواكن مع السلطان سليم الفاتح ونسبه من جهة الأم تتصل بالبشارياب بطن من بطون الهدندوة ـ عمل بالتجارة بين سواكن و جدة ، آمنت أسرة الدقناوي بالمهدية و كان عثمان من أشهر رجالها الذين لحقوا بالمهدي في كردفان ،وبايعوه فعينهالمهدي أميراً على شرق السودان فقاد الثورة في الشرق مابين عامين ١٨٨١م إلى ١٨٨٤م .وحقق إنتصارات عظيمة على قوات الحكومة ، وحاصر سواكن عام ١٨٨٤م تم إعتقاله عام ١٩٠٠م و سجن بمصر حتى عام ١٩٠٨م ثم نقل إلى سجن حلفا حيث توفى سنة ١٩٢٦ م.
سعدالدين الزبير : الزبير رجل السودان هامش ١٨٩ .
محمد إبراهيم أبوسليم : مذكرات عثمان دقنة ص ٦ ، ١٠، ١١ .ط (١) دار التأليف و الترجمة والنشر جامعة الخرطوم .




سارتورياس SARTORIUs فرفض الزبيرالعمل تحت إمرة الإنجليز ورجع إلى مصر (١) فكان رجوعه أول عوامل الهزيمة بالنسبة لحملة بايكر التي أبادها عثمان دقنة في أوائل عام ١٣٠٠هـ /١٨٨٤م . وقد أكدت هذه الحقيقة زوجة الكولونيل سارتورياس بقولها:(وجاء عدم إشتراك الزبير باشا في الحملة ضربة حديدة قاصمة قضت عليها بالفشل منذ اللحظة الأولى فقد كان السود في حاجة لمن يتولى قيادتهم طبقاً لطريقتهم الخاصة في الحرب إذ لم يكن لديهم أي فكرة عن التدريب وقواعد التنظيم وكان الوقت ضيقاً بحيث لا يسمح بإعادة وضعهم في تشكيلات منظمة . ولووجد الزبير باشا على رأسهم لاستطاع بهم القيام بمجهود رائع ضد السودانيين ولحاربهم بنفس الطريقة التي يتبعونها .. أما بدونه فقد بدأت هذه القوات ضائعة مبددة)(٢) كما قالت خطأ جسيماً آخر أضاع الأمل في حملة سواكن من الإبتداء (٣) .

فكان رجوع الزبير و عدم إشتراكه في حملة بيكر ضد عثمان دقنه فرصة سانحة للإنجليز لتقوية شكوكهم حول الزبيرو صلته بالحركة المهدية . فأرسل غوردون إلى حكومته متهماً الزبير بالصلة بينه وبين ثورة المهدية وطالب غوردون بمراقبة الزبير بواسطة أحد الأوروبيين بل نفيه إلى قبرص زيادة في الحيطة(٤) .

---

(١) ارجع اللورد كرومر سبب رجوع الزبير إلى معارضة جمعية مكافحة الرق الإنجليزية (كتاب كرومر لبريطانيا في السودان ص ٣٦ ، و لكن الزبير أكد لنعوم شقير أنه رفض الإشتراك في الحملة تحت قيادة الضابط الإنجليزي . نعوم شقير تاريخ السودان مصدر سابق ص ٢٨٦ .

(٢) سعد الدين : الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ١٩٢ .

(٣) كرومر : بريطانيا في السودان مصدر سابق ص ٤٦ .

(٤) اللورد كرومر ــ بريطانيا في السودان مصدر سابق ص ٨٥ .




فأرسل اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية في ذلك العهد برقية إلى اللورد كرومرالمعتمد البريطاني في مصر ناقلاً إليه مقترحات غوردون بشأن الزبير لكن وزير الخارجية البريطاني ختم برقيته بأنه لا يرى وجهاً واحداً يسندهم في تصرف كهذا .

ورغم ذلك تمت مراقبة الزبير بل فتش قصره في عام ١٣٠٢هـ/١٨٨٥م بحثاً عن أي شئ يكون سنداً في صلته بالثوار المهديين وعلى الرغم من أنهم لم يجدوا شيئاً إلا أن الإنجليز إستطاعوا في النهاية إعتقال الزبير ونفيه إلى جبل طارق وكان قبل ذلك قبل تأزم موقف غوردون في الخرطوم بقليل فرأى أنه لا قبل له بمحاربة المهدي وأن الأسلم للحكومة الإنجليزية بعد أن أخرجت المصريين من السودان أن تنفذ بجلدها و تعين الزبير باشا حاكماً على السودان تمده بالمال و السلاح و تطلق يده في حرية التصرف في شئون السودان الإدارية و العسكرية وتتركه لمواجهة الثورة المهدية (١) وقد وجدهذا الرأي إستحساناً من الحكومة الخديوية بالإضافة إلى بعض الساسة الإنجليز و على رأسهم اللورد كرومر المعتمد البريطاني في القاهرة(٢) ولكن عدل عن هذا الرأي خضوعاً لرغبة جمعية مكافحة الرق البريطانية لأن في رجوعه عودة مرة أخرى لتجارة الرق في السودان حسب زعمهم وهذا إتهام واهي لأن غوردون حين وصوله الخرطوم عام ١٣٠١هـ /١٨٨٤م لإخلاء السودان أصدرللمواطنين أمراً يبيح لهم العمل بتجارة الرقيق (٣).

ومن هنا يتضح أن كل ماقيل عن إتصال الزبير بالمهديين مجرد إدعاء و تهم رفعها الإنجليز في وجهه حتى يحولوا بينه و بين عودته إلى السودان مما جعل الزبير يقف موقفاً متشدداً تجاه الحركة المهدية و قادتها ليدفع عن نفسه صلته بها فصور الحركة و رجالها تصويراً لا يخلو من قسوة (٤) .

---

(١) اللورد كرومر ــ بريطانيا في السودان مصدر سابق ص ٨٥ ، ٨٦ .

(٢) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٣) كرومر ـ بريطانيا في السودان مصدر سابق ص ٩٩ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٨.




ولكن رغم موقف الزبير المتشدد تجاه الثورة المهدية وقادتها إلا أننا نجده وقف موقفاً شهماً كريماً إبان محنة الأنصار(أتباع الحركة المهدية) وذلك أثر معركة توشكي الشهيرة عام١٣١٦هـ/١٨٩٩م و التي إنتصر فيها الإنجليزعلى قوات المهدية ثم أسر عدداً كبيراً من الأنصار وتم ترحيلهم إلى مصر وهناك قام الزبير بدور البطولي الشهم حيث آوى كثيراً من الأنصار وساعد بعضهم في الخروج من السجن و عندما أذنت الحكومة الخديوية للأسرى السودانيين بالرجوع إلى السودان ساعد الزبير الكثيرين منهم في الرجوع إلى بلده وأهله (٢) .

وفي جبل طارق عرض الإنجليز على الزبير أنهم على إستعداد لإسترجاع السودان من أيدي المهديين و أنهم مستعدون لتنصيبه حاكماً عاماً على السودان بشرط أن يحكم السودان مستقلاً عن الحكومة الخديوية أو الخلافة العثماينة ولكن الزبير لقنهم درساً لن ينسوه في الوطنية و عزة النفس و كرامة المسلم رافضاً أي خروج عن طاعة الخديوية التي تحكم باسم الخلافة العثمانية التي تحكم بإسم الإسلام (٣) .

تلك هي قصة الزبير باشا و علاقته بالثورة المهدية و التي حاول الإنجليز من خلالها الإستفادة من الزبير في حرب الثورة المهديةو محاربة المسلمين بعضهم البعض و سلخ السودان عن أيدي مصر ، و لكن عندما فشلوا في ذلك لجأوا لتلك التهم الواهية و تواروا خلف جمعية محاربة الرق الإنجليزية وملأوا سمع العالم

---

(٢) بابكر بدري – تاريخ حياتي ج١ ص ١٨٩ – تحقيق ومراجعة د: بابكر علي بدري طبع شركة العبيكان للطباعة و النشر الرياض ١٤١٠هـ .

(٣) سعد الدين الزبير : الزبير رجل السودان مصدر سابق ص ١٤٢ .

ظنيناً بأن جمعية مكافحة الرق هي التي حالت دون رجوع الزبير إلى السودان لأنه يمثل أغنى تجار الرقيق في نظر الإنجليز متناسين أن الإنجليز أنفسهم هم الذين عملوا على تطوير تجارة الرق عالمياً مستخدمين أحدث الأسلحة مرتكبين أفظع الجرائم في السودان خاصة (١) وفي أفريقيا عامةً .

---

(١) أنظر كتاب مآسي الإنجليز في السودان – الكتاب عبارة عن صحيفة سوابق الإدارة الإنجليزية في السودان - قدمه وفد السودان أثناء مباحثات الإستقلال عام ١٩٤٨م .
الخرطوم – دار الوثائق القومية رقم السجل ٣١١٠ – ٢٠/٩٦٣ .




أثر الزبير في قيام دولة رابح ومحاولات الانجليزوالفرنسيين

كسب رابح عن طريق الزبير :

لقد مر بنا أن إقليم بحر الغزال كان يشتهر بثرواته الطبيعية من العاج وريش النعام و الأبنوس و النحاس و غيره بالإضافة إلى تجارة الرقيق مما دفع بكثير من التجار السودانيين و الأجانب إلى تخصص مناطق نفوذ لهم في ذلك الإقليم و قد كان الزبير رحمه أحد أولئك التجار السودانيين الذين مدوا نفوذهم إلى داخل أحراش بحر الغزال .

وعندما وصل رابح فضل الله إلى بحر الغزال باحثاً عن المغامرة الشريفة والمال (١) وجد ضالته المنشودة بين يدي الزبير ، و إستطاع الأخير أن يدخل رابحاً في خدمته .

وهكذا قُدِّر لهذين الرجلين الزبير رحمت و رابح فضل الله أن يربطا كفاحهما معاً على الرغم من تباعد المولد و النشأة (٢) ، فالتقيا في بحر الغزال وتوثقت بينهما الروابط وبلغ رابح منزلة عظيمة من نفس الزبير و أصبح مقرباً إليه حتى إنتسب إليه برابح الزبير (٣) ،ولم يلبث رابح في خدمة الزبير طويلاً حتى توسم الزبير فيه حماسة الشباب وجرأته، وحبّ المغامرة ، فوثق به وسلّمه قيادة جيشه ولم يتجاوز بعد الثالثة و العشرين من عمره (٤) .

---

(١) عبدالرحمن الماحي – تشاد من الإستعمار حتى الإستقلال ١٨٩٤ –١٩٦٠م ، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس ١٩٨٥م ص١٢٩ .

(٢) يكبر الزبير عن رابح بعشر سنوات فقد ولد الزبير في الثامن من يوليو ١٢٤٧هـ/١٨٣١م بينما ولد رابح فضل الله في أواخر سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م .

(٣) أحمد شلبي : موسوعة التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية ج ٦ (القاهرة ١٩٧٨) ص٢٩٧ .

(٤) سعد الدين الزبير : إمبراطورية رابح ص ٢٢ . القاهرة ١٩٥٣م .

ولما كان رابح قد سبق له إستخدام السلاح أثناء تجنيده في جيش الخديوي إسماعيل بمصر فقد أظهر مقدرة وكفاءة غاليتين في إستخدام السلاح الناري فأهله ذلك لكي يصبح من أكبر قواد الزبيرو أقربهم إليه (١) ، وقد ربطت بين الرجلين صداقة متينة (٢) أقرب ما تكون إلى رابطة الأبوة و البنوة وكان الزبير رحمت هو المعلم الذي أمد رابحاً بالخبرات التي أعانته على الحياة القاسية التي كانت تنتظره من منطقة جنوب غرب بحر الغزال (٣) .

وظل رابح مرتبطاً بالزبير مخلصاً له إبان عمله تحت لوائه بالسودان ، فكان سيفه المنتصر في إقليمي بحر الغزال و دارفور .

و اشترك رابح في جميع المعارك التي خاضها الزبير بين عامي ١٢٨٣ ــ ١٢٩٣هـ / ١٨٦٢ ـ ١٧٧٢م فكان تحت إمرة الزبير عندما كان الأخير يعمل حراً لمصلحته الخاصة ، و ظل رابح تحت لواء الزبير بعد أن عمل الزبير تحت مظلة الحكومة الخديوية إثر مقتل محمد البلالي عام ١٢٩٣هـ / ١٨٧٢م كما كان رابح عضد الزبير في تكوين وتدريب الجيش الذي فتح بـه دارفور فيما بعد، وقد أشار سعد بن الزبير إلى ذلك بقوله : (إنه عندما ذهب الزبير إلى غرب بحر الغزال لأول مرة وجد أعداداً كبيرة من العبيد الذين هربوا من أسيادهم ببلاد الكلكلة ودار التعايشة (٤) فأقبلوا إلى هذا الإقليم يطلبون الأمان نظراً لشهرة الزبير رحمة الواسعة في بحر الغزال فاختار الزبير من هؤلاء ستمائة من الرجال الأشداء ودربهم وزودهم بالسلاح ، وأسند قيادتهم إلى رابح فكانوا نواة جيش الزبير الذي فتح به إقليمي بحر الغزال ودارفور

---

(١) عبدالله عبدالرازق ابراهيم : المسلمون والاستعمار الاوروبي ص ٢٣٩/٢٤٠ الكويت ١٩٨٩م .
تقرير المخابرات الإنجليزية . CO . 537 / 11 .P 134

(٢) شوقي الجمل : تاريخ سودان وادي النيل ج٢ مرجع سابق ص ١٧٥ .

(٣) إلهام محمد علي : التغلغل الفرنسي في النيجر و موقف الوطنيين (١٨٨٤ــ١٩٠٤م) رسالة ماجستير غير منشورة ــ معهد البحوث و الدراسات الأفريقية ــ جامعة القاهرة ١٩٧٧م ص ١٩٤ .

(٤) أنظر الخريطة رقم ١ .



وكان منهم أيضاً نواة جيش رابح الذي أسس به مملكته في غرب أفريقيا فيما بعد، وكان رابح في ذلك الوقت لم تتجاوز سنه الثالثة و العشرين ، ولم يمض منذ إنضمامه إلى جيش الزبير سوى عامين)(١) .

وفي عام ١٢٨٥هـ /١٨٦٥م شارك رابح الزبير في كل معاركه في بلاد النمانم و أبلى بلاء حسناً حتى خضع الإقليم كله لسلطة الزبيروقد بذل رابح جهداً كبيراً في تنشئة و تدريب جيش الزبير أيضاً حارب رابح بجانب الزبير في معاركه في إقليم دارفور في سنة ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م و ظل مخلصاً للزبير قبل خضوعه لحكومة الخديوي إسماعيل وبعدها .

ونظراً لكفاءته و بلائه الحسن فقد كان رابح ضمن من طلبت لهم الحكومة الخديوية من الحكومة العثمانية الإحسان بنيشان مجيدي من الدرجة الرابعة (٢) .

لقد تعلم رابح في كنف الزبير كثيراً من حكم الشعوب و طريقة قيادتها ، ولقد عُدت الفترة التي قضاها رابح محارباً تحت ألوية الزبير المدرسة الحقيقية التي أعدته ليلعب الدور الذي كان ينتظره في ممالك واداي وباجرمي ومملكة برنو على شاطئ بحيرة تشاد وحول نهر شاري (٣)، وهذا ماجعل رابحاً مديناً للزبير باشا بكل النجاح الذي أحرزه فيما بعد ، كما أن الزبير كان مديناً لرابح بالكثير من فتوحاته وإنتصاراته .

ولقد ظل رابح يعمل تحت لواء الزبير منذ أن أسس الزبير دولته في بحر الغزال متخذاً من ديم الزبير عاصمة له حتى تم إستدعاء الزبير باشا إلى مصر في سنة١٢٩٣هـ/١٨٧٥م فاستخلف الزبير إبنه سليمان في حكم مديرية بحر الغزال، ولم يكن سنة في ذلك الوقت يتجاوز الحادية و العشرين ، فبدأ يواجه المؤامرات التي أثارها في وجهه حاكم السودان الجديد (غوردون باشا) الذي خلف الحكمدار السابق إسماعيل باشا أيوب ، فأخلص رابح لسليمان كما أخلص لأبيه من قبل، وإستمر في خدمته

---

(١) سعد الدين الزبير : إمبراطورية رابح مصدر سابق ص ٢٥ ، ٢٦

(٢) دفتر معية عربي وارد إفادات ص ٨٦ مكاتبة في ٢٩ من جمادي الأول سنة ١٢٩٢هـ دار الوثائق القومية بالقاهرة .

(٣) سعد الدين الزبير : إمبراطورية رابح مصدر سابق ص ٢٣ .

وعندما أرسل غوردون حملة لمحاربة سليمان الزبير مدعياً أن سليمان قاد ثورة ضد الحكومة ممثلة في مدير بحر الغزال السابق إدريس أبتر و أن والده الزبير قد حثه على الثورة إنتقاماً من الحكومة الخديوية التي منعته من العودة إلى السودان وقف رابح إلى جانب سليمان ضد غوردون فأرسل غوردون جسي الإيطالي لمحاربة سليمان و القضاء عليه ، وحسب جسي أن الأمر سهلاً و أنه سوف يقضي على سليمان في بضع أيام أو أسابيع ثم يعود إلى الخرطوم وفوجئ جسي بسليمان يتبعه جيش منظم ومسلح و حوله رجال يحرصون على الموت أكثر من حرصهم على الحياة ، ودارت بين الفريقين عدة وقائع حالف النصر فيها سليمان أكثر من مرة ، وكاد جسي أن يعانق الموت الذؤام أكثر من مرة و أخذت النجدات تتوالى عليه من قبل غوردون و لكن دون أن تنال من سليمان أو تنحني له هامة أو تلين له عريكة ، وعندما أيقن جسي ومن ورائه غوردون أن لا فائدة من القتال مع سليمان ورجاله لجآ إلى الحيلة و المكر و الخديعة ، وأعدا رسالةً مزورة و إدعيا أنها من الزبير لإبنه سليمان يدعوه فيها للإستسلام للحكومة وعدم الخروج عليها ، و أن غوردون ورجاله سيحفظون حياته و حياة من معه من الرجال ، و إنطلت الحيلة على سليمان وفريق من رجاله حيث رأوا أن ينصاعوا لأمر الزبير ويسلموا أنفسهم ، ولكن رابحاً ومعه فريق آخر رفض هذا الرأي وأكد أن هذه الرسالة ماهي إلا خديعة ، و أن جسي كافر لا يؤمن له جانب و لاعهد له ولاذمة وكذلك من حوله من الدناقلة الحاقدين لأنهم من جماعة إدريس أبتر الذي طرده سليمان من بحر الغزال .

ولكن سليمان ومن معه أصروا على إنفاذ أمر الزبير و سلموا لجسي في يوم ١٤يوليو١٢٩٨هـ/١٨٧٩م معتقدين أن جسي سوف يفي بوعده ووعد سيده غوردون في الحفاظ على حياتهم غير أنه تبين فيما بعد صدق حدس رابح فما كاد سليمان و من معه يضعون السلاح و يستسلمون إلى جسي حتى قام جسي بأعدام سليمان وعشرة

من أعمامه في ١٧يوليو ١٨٧٩م خيانــة وغـدراً ولؤمـاً ، أمـا رابـح فرفـض أن يتبـع سليمان كماسبق أن ذكرتُ مؤكداً أنه لا يحمل أدنى ثقة لجسي ، ولـوى عنـان فرسـه وتبعه ألف فارس ومعظمهم مسلحين بالبنادق حيث إتجه بهـؤلاء الفرسـان المسـلحين إلـى الجنـوب الغربـي لبحـر الغـزال ليكـون فـي مـأمن مـن بطـش غـوردون وجسـي وأمثالهم من الأوروبيين الحاقدين و لم يدر أن الأقدار قد دفعت به إلى تلك الأصقـاع ليؤسس سلطنة تمتد من أقصى الجنوب الغربـي لبحـر الغـزال إلـى مشـارف بحـيرة تشاد حيث سارت هذه السلطنة على نمط سلطنة الزبير فـي بحـر الغـزال مـن حيـث الاهتمام بتأسيس العاصمة والاهتمام بالجيش والتجارة مع المناطق المجاورة والـدول الخارجية والعمل على نشر الدعوة الاسلامية والمؤثرات العربية فـي المنـاطق التـي تقع جنوب بحيرة تشاد حيث خلت هذه المنـاطق مـن المؤثـرات العربيـة والاسـلامية ولكن القوى الاستعمارية ممثلة في الانجليز والفرنسيين استشـعروا الخطـر مـن قيـام هذه الدولة وحاول الانجليز كسب ود رابح بواسطة الزبير ليقف في وجه الفرنسـيين (١) ولكن رابح رفض وساطة الزبير ثم حاول الفرنسيون أيضاً كسب ود رابـح بواسـطة الزبير ولكنهم فشلوا كذلك (٢) وأخيراً دارت عدة معارك بين رابـح والفرنسـيين أدت إلى مقتل رابح وزوال دولته في عام ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م .

---

(١) G.O 537/11 Africa No.2 .

(٢) سعد الدين الزبير ـ الزبير باشا رجل السودان مصدر سابق ص ١٤٥/١٤٦ .

(٣) عبده بدوي ـ السلطان رابح ـ مكتبة نهضة افريقيا العدد العاشر ص ٣١ ـ ١٩٥٨م .





الأيام الأخيرة من حياة الزبير:

تركنا الرجل قد وصل إلى القاهرة في عام ١٢٩٢هـ / ١٨٧٥م ليتشرف بمقابلة حاكم مصر إسماعيل باشا وأعضاء حكومته وليعرض من جانبه أسباب الخلاف بينه وبين الحكمدار إسماعيل أيوب ويتباحث معهم في كيفية إدارة الأراضي التي فتحها في افريقيا باسم الحكومة العثمانية في مصر ، الأراضي التي يمكن أن يضمها في المستقبل. ولكن الحكومة المصرية استبقته في القاهرة بتوجيه من الحكمدار إسماعيل أيوب وايعاز من الانجليز خوفاً من أن يستقل الزبير بالسودان عن سلطان الحكومة المصرية فمكث في القاهرة مذعناً لإرادة الحكومة العثمانية في مصر ولما ثار ابنه سليمان في بحرالغزال اتهم الإنجليز الزبير بأنه وراء ثورة ابنه ولكن الحكومة العثمانية في مصر برأته من تلك التهمة بعد أن اتضح لها عدم وجود علاقة بين الزبير وثورة ابنه سليمان .

وعندما قامت الثورة المهدية اتهمه الإنجليز أيضاً بالوقوف معها وتم اختطافه وسجنه في جبل طارق ثم أعيد إلى القاهرة ولما قامت حرب البلقان بين الخلافة العثمانية وروسيا في سنة ١٢٩٤هـ /١٨٧٧م اشترك الزبير في هذه الحرب كواحد من أشهر قواد الدولة العثمانية وقد أبلى بلاءً حسناً على أرض البوسنة والهرسك وقد كرمته الدولة العثمانية في تركيا وأنعمت عليه برتبة الفريق عرفاناً بجميله وتقديراً لدوره في حرب البلقان . وبعد نهاية الحرب عاد الزبير ليستقر في القاهرة حسب رغبة الحكومة العثمانية في مصر.

وبعد فشل الإنجليز في ضرب الثورة المهدية بالزبير وتعيينه حاكماً على السودان باسمهم حاولوا هم والفرنسيون الاستفادة من الزبير في كسب ود رابح فضل الله الذي أسس دولة حول بحيرة تشاد وقفت عقبة أمام المطامع

الإستعمارية الأوروبية في تلك المناطق ولكن محاولة الأوروبيين في كسب رابح باءت بالفشل أيضاً وكانت نهاية دولة رابح على يد الفرنسيين عام ١٣١٨هـ /١٩٠٠م .

وظل الزبير في القاهرة محط أنظار الساسة والأدباء والمؤرخين والعلماء من كل صوب ومن كل جنس إذ عمل في هذه الفترة على طباعة بعض الكتب على نفقته الخاصة ومن ضمنها المصحف الشريف والسيرة النبوية لابن هشام .

وقد مكث الزبير في القاهرة حتى عام ١٣٣١هـ /١٩١٢م وكانت قد تقدمت به السن وبسط الانجليز سطوتهم على السودان كما بسط الفرنسيون نفوذهم حول بحيرة تشاد وأصبح لا خوف من الزبير في إثارة القلاقل في وجه الأوروبيين وهنا كأن الرجل قد أحس بقرب نهايته فتمنى أن يوارى ثراؤه أرض السودان تلك الأرض التي شهدت مهد طفولته وأيام صباه وشبابه وأقام عليها عزه وملكه ومن فوقها ملأ بصر وسمع العالم بحروبه وانتصاراته ومغامراته وتناقل الناس روائع مقدراته العسكرية والإدارية وحظوته المالية . فاستأذن الحكومة الخديوية في الرجوع إلى السودان فاذنت له في ذلك وأعدت له قطاراً خاصاً لحمله هو والثلاثمائة من حاشيته الذين بقوا معه في القاهرة وفي محطة القاهرة تم له وداع رسمي وشعبي يليق بمقام الفريق الزبير كأحد كبار الموظفين الذين قدموا خدمات جليلة للحكومة الخديوية فتحرك القطار في أمسية العاشر من أغسطس عام ١٩١٢م متجهاً نحو السودان .

وفي السودان لم يطل المقام بالزبير حيث أسلم الروح في صباح السادس من يناير عام ١٩١٣م /١٣٣٢هـ ودفن بمسقط رأسه في قرية الجيلي حوالي ٨٠ كيلو متر شمال الخرطوم حيث أصبح قصره متحفاً أثرياً يزوره دارسو التاريخ والحضارة من الطلاب والعلماء وغيرهم وقد ترك الفريق الزبير أسرة كبيرة تتكون




من ثلاث وعشرين ولداً بالاضافة إلى ستة وعشرين (١) من الإناث لكن لم يبق منهم في الوقت الحاضر سوى ولد وبنت فقط وقد أجرت الحكومة الخديوية بعد مماته معاشاً على كافة أسرته لا ينقطع إلا بموت الوارث .

وكما كان لحياة الزبير دوي لفت انتباه الدنيا إليه من سياسيين وعلماء وأدباء ومؤرخين وغيرهم فالتفوا حوله يكتبون سيرته ومغامراته وينشرونها على الملأ ويحتفظون بها لخاصتهم .

كذلك كان موته دوياً آخر نبه الدنيا لمآثر القائد السوداني الفذ فكتب عنه الساسة ورجال الإعلام من كل جنس حتى أعداءه من الأوروبيين لم يملكوا إلا أن يصفوه بأسمى آيات التبجيل والتقدير وأنبل الصفات وأجلّها (٢).

وقد رثاه العديد من شعراء السودان على رأسهم محمد عمر البنا شيخ شعراء السودان في ذلك الوقت بقصيدة عصماء مشهورة مطلعها :

يا من يصد الجيش وهو عرمرم ... ويصده عن جارتيه حياء

كم روعة للمجد كبرى حينما ... مات الزبير وماتت العلماء

كما رثاه شارعر النيل حافظ ابراهيم بميميته المشهورة وقد جاء فيها :

يا روضة النيلين جئت مسلماً ... فعليك من لدن الإله سلام

لي في ربوعك من رجالك معشر ... شمٌ إذا جار الزمان كرام

أين الزبير ؟ أبو القواس والندى ... قد غيبته عن حماك رجام

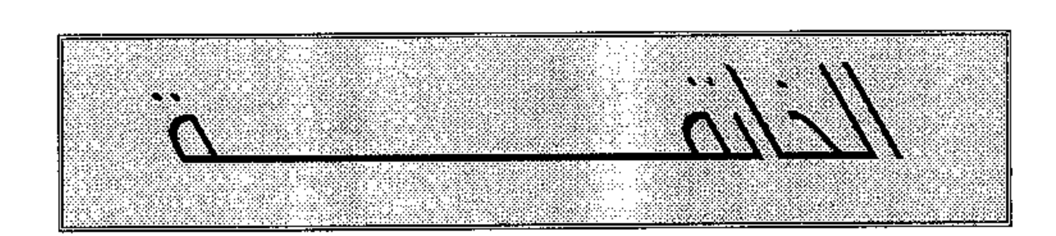
وقد كان فخراً للبلاد وذكره ... باقٍ ما كرّت الأيام (٣)

---

(١) دار الوثائق القومية بالخرطوم رقم . 1956 /156

(٢) سعد الدين الزبير ـ الزبير رجل السودان ـ مصدر سابق ص ٢٢٠ .

(٣) سعد الدين الزبير ـ الزبير رجل السودان ص ٢١٣ .



الخاتمة




الخاتمــــة

الزبير باشا رحمت بن منصور بن علي بسن محمد بن سليمان بن ناعم بن سليمان بن بكر بن شاهين بن جُميع بن جموع بن غانم العباسي . ينتمي إلى قبيلة الجميعاب التي أخذت اسمها من جميع الذي خرج من بغداد بعد سقوطها على يد المغول سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م وهي في السودان من أعز قبائل الجعليين القاطنين على ضفاف نهر النيل شمال الخرطوم .

دخل الزبير إلى أحراش الجنوب في عام ١٢٧٤هـ /١٨٥٦م مجرد عامل بسيط ضمن مجموعة عمال التاجر المصري علي أبو عموري ولكن بسالته وشجاعته ودوره في حماية التاجر أبو عموري كل ذلك أدى إلى رفع قدره عند التاجر أبو عموري مما جعل أبوعموري أن يجعل الزبير وكيلاً عنه في تجارته كلها ثم عرض عليه المشاركة لكن الزبير رفض ذلك وعمل على حسابه الخاص ليصبح واحداً من ابرز تجار الجنوب في تلك الفترة .

إن إقامة الزبير في جهات الجنوب مكنته من معرفة أحوال تلك البلاد وطبائع أهلها حيث رأى المصاهرة خيراً وكون جيشاً وقاتل حيث رأى القتال هو الأفضل ، حتى لبس تاج الملك وجلس على عرش السلطان بالاضافة إلى رداء التاجر الكبير ، فعمل على بسط الأمن وإقامة العدل وازدهار التجارة في تلك الأصقاع وأقبل عليه التجار مسلمين وغير مسلمين وجُلبت التجارات من مصر والحديدة ومصوع وطرابلس الغرب وغيرها كما قام الزبير بتخطيط

قصبة سلطانه وسماها (ديم الزبير وعمل على عمرانها لتكون عنواناً لسلطته وقد أقر فيها بعض نظم الحكم حيث قام الحكم في سلطنة الزبير على أحكام الشريعة الاسلامية وجعل له مجلس حكم مكوناً من أثني عشر قاضي يعملون كمجلس شورى حتى تاتي الاحكام موافقة لأحكام الشرع الاسلامي .

كذلك عمل الزبير على تكوين جيش وجلب له الاسلحة الحديثة كما نظم الزراعة والتجارة وعمل على زراعة بعض المحاصيل الجديدة وعموماً عمل الزبير لنقل الناس في سلطنته من حياة البداوة إلى حياة التمدن وعمل على توثيق عرى الإخوة بين السودانيين في الشمال والجنوب .

وتعتبر حكومة الزبير في الجنوب أول حكومة اسلامية في الاقليم حيث صارت ملجأً للتجار المسلمين الذين شردتهم الادارة البريطانية وقد اتخذ الزبير من هؤلاء التجار حلفاء أقوياء واجه بهم أعداءه واقتدى به بعضهم فتزوجوا من بنات الملوك والسلاطين الجنوبيين وأصبحوا الطبقة الراقية التي قلدها أهل الاقليم في عاداتها من ملبس ومأكل وفي عباداتها ومعتقداتها وبهم خضع الاقليم للزبير سياسياً وإدارياً وتجارياً وعسكرياً .

وكان لابد لسلطة الزبير بعد أن وطدت سلطانها الداخلي أن تلتفت إلى القوى المحيطة بها فوقع الزبير حلفاً مع عرب الرزيقات لحفظ الأمن وصيانة طرق التجارة ولما أخل عرب الرزيقات بهذا الحلف دخل الزبير معهم في حرب أخضعتهم لسلطانه وطالب الحكمدارية في الخرطوم بارسال من تراه لحكم عرب الرزيقات بعد أن أدخلهم الزبير تحت سلطان الخديوية ولكن الخديوية في مصر عملت على تعيين الزبير نفسه حاكم مناطق عرب الرزيقات بالاضافة





الى مناطق الجنوب التي تحت يده وطلب من الحكمدار في الخرطوم مده بالاسلحة وما يحتاجه من رجال وغيره . وقد قادت حرب الزبير مع عرب الرزيقات الى حربه مع سلطنة دارفور التي لجأ إليها بعض قادة عرب الرزيقات فهزم الزبير سلاطين دارفور ودخل عاصمتهم الفاشر في سنة ١٢٩١هـ /١٨٧٤م وضمها إلى أملاك الخديوية فأصبحت علاقة الزبير بالخديوية في مصر علاقة قوية مخلصة كما كانت علاقته بالحكمدارية في الخرطوم علاقة الامتثال لكل الأوامر والنواهي اعتقاداً منه بأن الحكمدارية هي ظل الخديوية التي تحكم باسم الحكومة العثمانية في تركيا التي هي محط رجاء المسلمين كافة فالامتثال والولاء والاخلاص للحكمدارية والسلطة في مصر والدولة العثمانية في نظر الزبير أمر واحد لا ينفصم كالرباط الذي يربط الحكمدارية بالخديوية بالسلطة العثمانية .

فالولاء والاخلاص للدولة العثمانية وممثلها في كل من مصر والخرطوم ظل عقيدة ثابتة عند الزبير الزم نفسه بها حتى آخر يوم في حياته .



من خلال هذا البحث وضحت عدة حقائق تاريخية كان بعضها يعرض في ساحة التاريخ معكوساً ، وسأعرض فيما يلي أهم هذه الحقائق:

أولا:

لعب التجار العرب دوراً هاماً في تاريخ افريقيا عموماً و تاريخ جنوب السودان على وجه الخصوص ، فكانوا قوةً ضاربة ارتادت مناطق متخلفة بما تحمله معها من لغة ودين و تقاليد و معاملات و سلوك ، فاستطاعت هذه القوة الحضارية أن تؤثر تأثيراً مباشراً في تلك الأرجاء شعوبها و زعمائها .

و الزبير رحمت كواحد من أولئك التجار استطاع بث المؤثرات العربية الإسلامية في مناطق واسعة من جنوب السودان . ثم أفلح في إقامة دولة تحكم بالشريعة الإسلامية في بحر الغزال و تعمل على نشر اللغة العربية و الإسلام بالإضافة إلى نشر نظمه الإجتماعية و الحضارية الموافقة لحضارة العصر . مما عُدّ عملاً رائداً في وضع لبنة هامة في بناء السودان المعاصر .

كما أن جهود الزبير في إستتباب الأمن و إزدهار التجارة أدى بدوره إلى إنتشار الإسلام و اللغة العربية .

كذلك كان لعلاقات المصاهرة التي أقامها الزبير و بعض التجار المسلمين من جهة مع ملوك و سلاطين الجنوب من جهة أخرى أثرها في إظهار التجار كطبقة راقية قلدها أهلُ الإقليم الوثنيون في عاداتهم من ملبس ومأكل و في أخلاقهم و معتقداتهم.

ثانيا :

استطاع الزبير بمجهوده الشخصي أن يقضي على سلطنة الفور الواسعة ، المنيعة الحصون ، و التي ظلت أكثر من ثلاثة قرون قوية شامخة مستقلة ، و بعد أن قضى عليها الزبير ضمها إلى أملاك الحكومة العثمانية في مصر .

وكان الزبير يتمتع بمقدرة عسكرية و إدارية شهد له بها الأعداء قبل الأصدقاء .

وقد حرص الزبير على ترسيخ علاقاتٍ قويةٍ مخلصةٍ مع الحكومة العثمانية في مصر بإمتثاله لكافة أوامر و نواهي الحكمدارية في الخرطوم إعتقاداً منه بأن الحكمدارية هي ظل السلطة العثمانية في مصر التي تحكم باسم الدولة العثمانية التي هي محط رجاء المسلمين كافة . فالإمتثال و الولاء و الإخلاص للحكمدارية في السودان والامتثال والولاء والاخلاص للحكومة العثمانية في مصر والامتثال والولاء والاخلاص للخلافة العثمانية في اسلامبول هي في نظر الزبير أمر واحد لا ينفصم

ثالثــاً :

مما لاشك أن الأوروبيين كانوا وراء انتشار تجارة الرق في العصر الحديث و ذلك بما أدخلوه في البلاد المستعمرة من نظام الشركات و رؤوس الأموال بالإضافة إلى الأسلحة الحديثة .

ومما لا شك فيه إن الإسلام أغلق كل أبواب الرق ماعدا باب الحرب و ذلك للمعاملة بالمثل في الوقت الذي فتح كل الأبواب لخروج الأرقاء من رقهم .

وقد شجعت الحكومة العثمانية تجارة الرق في بداية عهدها لحكم السودان لحاجتها الى الرجال للخدمة العسكرية و لكن في أواخر عهدها بذلت جهوداً جبارة لمحاربة تلك التجارة الذميمة .

ولقد أثبتت الدراســـة: أن الإتهامات التي ألصقها الأوروبيون بالزبير باشا زوراً ووصموه فيها بأنه تاجررقيق إتهامات زائفة الغرضُ منها الكسب السياسي لبعض الأحزاب و الساسة البريطانيين ليظهروا أمام مواطنيهم والعالم أنهم دعاة التحرر وحماة الإنسانية ، كما كان الغرض منها تشويه صورة الوجود العربي المسلم الذي يمثله الزبير في جنوب السودان ، كذلك أرادت انجلترا بتلك الإتهامات إبقاء الزبير بمصر حتى لا ينضم الى الثورة المهدية ضد الإنجليز فيشكل بذلك عقبةً أمام مشروعاتها الإستعمارية في السودان .



رابعـــاً :

إستدعت الحكومة العثمانية في مصـر الزبـير إلـى مصـر لتحـول دون زيـادة الخـلاف بينـه و بيـن الحكمـدار فـي الخرطـوم كمـا عملـت الحكومـة العثمانيـة علـى استبقاء الزبير بمصـر خشـية أن يسـتقل بـإدارة السـودان و ذلـك لقوتـــه العســكرية والمالية والإدارية .

وكان الأوروبيون ممثلون في غوردون الإنجليزي و جسـي الإيطـالي وراء مقتل سليمان بن الزبير وكان هدفهم من هذا ابعاد الوجود العربي المسلم مـن جنـوب السودان والذي كان يمثله سليمان و جنده في تلك الأرجاء أصدق تمثيل .

كما كان خروج الزبير من السودان و استبقاؤه في مصـر منعطفاً خطـيراً فـي تاريخ السودان خاصة و في تاريخ منطقة وسط أفريقيا عامــة ، فلـو كـان الزبـير قد استمر بنفوذه السياسي والعسكري و حنكته الإدارية على السـاحة السـودانية لجـرت أحداث التاريخ في السودان و في منطقة حوض نهر شاري بغير الطريقة التي جرت عليها.

خامســاً:

إن القضاء على سلطنة الزبير كان له أثره الإيجـابي فـي قيـام دولـة المهديـة فبخـروج الزبـير مـن الجنـوب ونهايـة سـلطنته قـامت عـدة ثـورات أضعفـت النفــوذ العثماني في السودان الذي كان يديره الأوروبيون بأمر الحكومة العثمانية في مصـر ويمثلها الأوروبيون في السودان .

كما أدى خلو الساحة من الزبير إلى التفاف الناس حول المهدي .

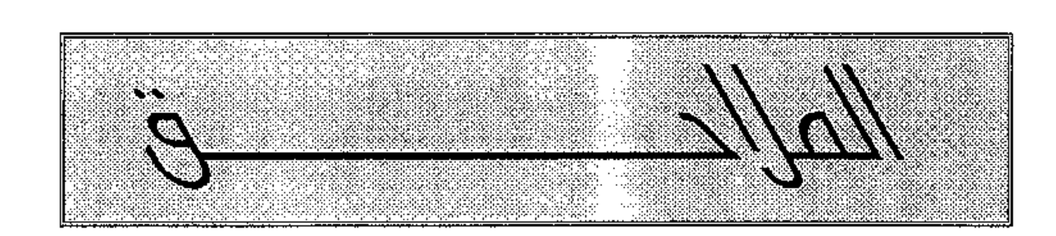
فبخروج الزبير انضم أشهر قادته العسكريين حمـدان أبـو عنجـة ، و الزاكـي طمل ، و النور عنقرة ، إلـى الثـورة المهديـة ممـا جعـل الدولـة المهديـة تسـتفيد مـن مدرسة الزبير الحربية فوائد جمه حيث استطاعت تلك الثورة المهدية الفتيـة القضـاء على النفوذ الأوروبي ونفوذ الخديوية المصرية في السودان كله .

وبعد القضاء على سلطان الزبير أسس رابح وهـو أحد قـادة الزبـير المقربيـن سلطنةً له حـول بحيرة تشاد كانت صــورة لسلطنة الزبـير فـي نظمهـا الإداريـة والعسكرية والتجارية ، و حرصت هذه الدولة على إظهار المظاهر الإسلامية في كافـة أحوالهـا ونظامها كما عملت على نشر الإسلام و اللغة العربية بين القبائل الوثنية.




كذلك اجتهدت في التصدي للأوروبيين الذين كانوا يطمعــون فــي استعمارتلك المنطقة ثم اصطدمت بالفرنسيين الذين كان من أهدافهم الأساسية القضاء علــى هذه الدولة ليتمكنوا من بسط نفوذهم على أكبر قدر مـن الأراضــي والأصقـاع الأفريقيـة ، أسأل الله أن يوحد كلمة المسلمين فــي أرجـاء العـالم الإســلامي وأن يهيــئ لهـم مـن أمرهم رشدا والله ولي التوفيــق .





الملاحق




ملحـق رقم (١)

وثائق القاهـــرة

تلغراف من خيري باشا الى حكمدار السودان بخصوص براءة الزبير من قضية مقتل الشيخ محمد الهلالي والعمل على استمالته لجانب الحكومة والانعام عليه برتبة قائمقام ، وتعيينه مديراً على بحر الغزال ، وانجاده بمقدار من العساكر والذخيرة لاعانته ضد عربان الرزيقات صادر بتاريخ ٢ ذي القعدة سنة ١٢٩٠هـ الموافق ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٣م .

النـــــــص

من خيري باشا

الى حكمدار الســــودان

تلغرافكم الوارد لهذا الطرف المؤرخ ٢٩ شوال ١٢٩٠هـ مفصلاً للأعتاب السنية والذي صدر به النطق السامي هو أنه مادام أنكم أوضحتم من حال الأصل ما يقتضي براءة ساحة الزبير من كان نسب له في قضية الهلالي كما أن بعد ذلك ظهرت الحسبة والغيرة في توجهه إلى شكا لنجدة التجار الذي كانوا وقعوا في يد عربان الرزيقات بقصد انقاذهم وادخال أولئك العربان تحت طائلة الحكومة كما هو الغرض الأصلي من تشكيل مأمورية بحر الغزال ثم أنه في هذه الدفعة أيضاً أورى ماجرت به المكاتبة بينه وبين السلطان دارفور بهذا الشأن ويطلب عساكر وجبخانه لاعانته ، نرى أن هذه مجرد خدمة منه لجهة الحكومة وحينئذٍ لاينبغي سوى استعمال الحزم والاحتياط ماجرى كافة الوسائل والوسايط الموجبة لاستعماله وتودده واجتناب مايوجب تغيره من جهة الحكومة وقد أحسن اليه برتبة قائمقام وسيرسل البيور لدى العالي الإذن بتوجه هذه الرتبة لعهدته وتقليده مديراً على جهة بحر الغزال فيصير اعلانه من طرفكم بذلك ولابأس من ارسال مقدار من العساكر والجبخانة لاعانته بحيث أن ما يرسل من ذلك لايكون بكثرة بل بقدر الضروري فقط وهذا حسب ما تعلقت الارادة السنية (١) .

" صبحي أسعد خليفة "

---

(١) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تلغراف شفرة عربي ص ص (٨٢ /٤٢ ، ٨٤ / ٤٢) تلغراف رقم (٥٠٦) تاريخه ٢ ذي القعدة سنة ١٢٩٠هـ الموافق ٢٣ ديسمبر ١٨٧٣م .

(مصورة ـ مسلسل ٢٦، ٢٧) .




ملحق رقم (٢)

وثائق القاهرة

تلغراف من مهردار خديوي عالي مدير عموم قبلي السودان بخصوص تبليغه بموافقة الخديوي على تشكيل مديرية بحر الغزال وتنصيب الزبير مديراً عليها للعمل على تمدينها وعمارتها صادر بتاريخ ٨ شوال سنة ١٢٩٠هـ الموافق ٣٠ نوفمبر ١٨٧٣م٠

النص

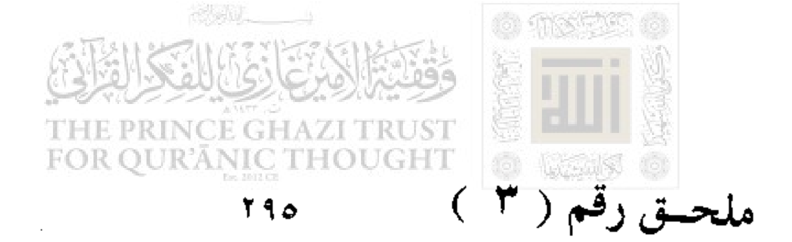
من مهردار خديوي

الى مديرعموم قبلي السودان

مكاتبتكم الغير رسمي المؤرخة ٢٩ شعبان ١٢٩٠هـ والاوراق مرفوقها المتعلقين بمسألة الزبير رحمة عرضوا مفصلاً للمسامع الذكية وصدر النطق العالي بأنه يلزم منكم المبادرة والاهتمام في اجراء الطرق الموافقة المؤدية لاستمالة قلب الزبير رحمة المذكور وترغيبه وتشويقه لسرعة حضوره طرفكم ومتى حضر لايحصل تأخير بالخرطوم حالا تجروا معه المكالمة اللازمة واعطاه التعليمات المقنعة مع تشكيل مديرية بحر الغزال وتنصيبه مديراً عليها ويصير اعادته بسرعة الى محل مأموريته ليباشر ادارتها ويسعى فيما يوجب لمحاربة جهلها وتمدن أهاليها وحسن توطنهم وعماريتهم حسب المرغوب العالي فيلزم الاجراء حسب الأمر ٠ (١)

---

(١) دفتر رقم (١٦) صادر عابدين تلغراف شفرة عربي ص ص (٢٦/٥٢ ، ٥٣ / ٢٧) ت تلغراف رقم (٣٤٦) تاريخه ٨ شوال سنة ١٢٩٠هـ الموافق ٣٠ نوفمبر ١٨٧٣م٠
(مصورة ـــ مسلسل ٢٥ ، ٢٣)



وثائق القاهـــــرة

أمر كريم صادر الى الزبير بخصوص الانعام عليه برتبة أميرلواء (اللواء) المفتخرة والنيشان المجيدي مكافأة له على جهوده في فتح دارفور تاريخه غرة ذي الحجة سنة ١٢٩١هـ الموافق ٩ يناير سنة ١٨٧٥م.

النـــــص

زبير رحمـة باشـــا

أمر كريم منطوقه هنا على ما علم لدينا مما حصل منك من الاقدام على حفظ شرف حكومتنا ومابذلته من العهد وكمال السعي في مقاومة سلطان دارفور وجيشه الذي بعث اليك دفعة بعد دفعة وانهزامهم مرة بعد مرة بواسطة عساكرنا وحسن تدبيرك وادارتك حتى آل الأمر الى ازالتهم قد استحقيت بهذه الفعال الحميدة حسن الثناء واستوجبت المكافأة من لدنا كما جرت عادتنا في مكافأة من قام بوفاء وظائف مأموريته ولهذا أحسنا اليك برتبة امير لوا المفتخرة وبالنيشان المجيدي من الدرجة الثالثة فاحفظ بها العرف الرفيع وجد واجتهد في أداء خدمات حكومتنا بالصدق والاستقامة قياما بواجب شكر هذا الاكرام والافضال الباعث لافتخارك به بين الاقران والامثال (١).

" من عابدين "

---

(١) دفتر رقـــم (٢) أوامـر عربية ص (٤٤) أمر رقم (٧٥) تاريخه غـرة ذي الحجـة سـنة ١٢٩١هـ الموافق ٩ يناير سنة ١٨٧٥هـ .

(مصورة ـــ مسلسل ١٢٥)




وثائق القاهـــرة

تلغـراف مـن حكمـدار السـودان بالفاشـر الى مهرمـار خديـوي بخصوص التعيينات المقترحة لهيئة غــرب الســودان ودارفـور وقومنـدة العسـاكر وكردفـان ورد بتـاريخ ليلـة ٢٦ ذي الحجـة سـنة ١٢٩١هـ الثلاثـاء السـاعة ١٠ر٣٥ ليلاً الموافق ٥ فراير سنة ١٨٧٥م .

النـــــص

من حكمدار السودان بالفاشر لسعادة مهردار خديوي

اذا سبق وكان بتعين خالد باشا مدير عموم غـرب السـودان وأحسن عليه هو ومن معه بالرتب وكسابقة معروضنا لامانع مازال من تعيين الزبير باشا مدير على دارفور وحسن بك قومندان على العسـاكر وحسـن بك رفعت مديراً على كردفان وتتبع المديريـة المذكـورة لغرب السـودان لاعانتها وقربها منها وسعيد بك مدير على كردفان ينظر لـه خدمـة أخرى بمعرفتنا وان كان لم يسبق تعيين خالد باشا أو من معـه كلمـا ذكـر ولم صدرت أوامـر عليـه بذلك فالرأي الآخير الموضح بالتلغرافين المعروضين مـع هـذا هـو أوفـق للحالـة الراهنة كما ذكر ومع مـاذكر جميعـه بمعرضاتنـا السـابقة واللاحقـة الـرأي فيهـا مفوض لولي النعم أفندم (١) .

---

(١) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٦٢ ، ٣١ ، ٦٣/ ٣٢) تلغراف رقم (٤١٨) تاريخه ٩ ذي الحجة سنة ١٢٩١هـ الموافق ١٧ يناير سنة ١٨٧٥م . (مصورة مسلسل ١٣٤) .



ملحـق رقم (٥)

وثائق القاهـــرة

تلغراف من حكمدار السودان بالفاشر الى خيري باشا بخصوص ابقاء الزبير بك مديراً على بحر الغزال وشكا ، واحالة ادارة مديرية دارفور عليه وتكليفه بفتح برقـو وذلـك بصفة مؤقتـه ضمانـاً لوجود جيوشه ، وقيامها بالقضاء على الثورات التي يقوم بهـا الخـارجون عـن الطاعة بدارفـور وذلـك بصفة مؤقته تمهيداً لتعيين حسن حلمي بك مديراً على دارفور ورد بتـاريخ ٢٦ ذي الحجـة ١٢٩١هـ ليلة الثلاثاء الساعة ٧ ليلاً الموافق ٣ فبراير سنة ١٨٧٥م.

النـــــص

من حكمدار السودان بفاشر الى سعادة خيري باشا

من المعلوم ان أغلب جهات بحر الغزال هي مشارع الزبير باشـا وهـو الـذي أنشـأها وأجـرى توسيع تلك الجهات وفتحها بماله ورجال مسلحة من طرفه ولما قصدت الحكومـة السـنية انجهـال تلـك الجهة مديرية ترتب عليها شخص من الاعراب يقال له الهـلالي يعضده جعفـر باشـا فمعلـوم جيـداً لـدى سعادتكم ما حصل بينه وبين الزبير باشا فلأجـل ادخـال تلـك الجهـة بـدون مقـابل في حـوزة الحكومـة بطرق متحسنة كما التمسنا ترتيب الموصى اليه مديرا عليها هام لاجل عيش العســاكر الذيـن يقيمـون بها من نفس ايرادها وهام لاجل مقاصد الحكومة في حق دارفور وقـد كـان ترتـب علـى ذلـك ممنونية الزبير باشا وقتها لابقاء مشارعه تحت يده مع ترتيبه مديـراً عليـه وفي نظـير ذلـك بـذل كافـة مجهـوده ووجهز نحو السبعة الاف عساكر من عبيده وأقاربـه وجنسـيته والـتزم بكافـة مصـاريفهم نحـو السـنة والنصف بدون أن يلزم الحكومة بشـئ سـوى البـارود وبعـض مـن السـلاح ومـازال متكلـف بـأغلب مصاريفهم من نفسه الان ومن المعلوم ان تلك المصاريف أغلبها هي من تجارتـه ببحـر الغـزال فبعـد أن كان يؤمل أن يعد فتوح دارفور يصير احالة ادارتها هي الاخرى عليه مـع ابقـاء جهـة بحـر الغزال تحت ادارته اذا صار نزع الجهتين من يده وتلقب بعنوان مدير برقو التي هي تحت الفتـوح والزامـه بالمداومـة على التعب والمشاق هو عليه من منذ سنة فحتماً أنه يتأثر من ذلك غاية التأخير وتنقص غيرته هو ومن معه في تكميل اطاعـة أهـالي دارفـور الذيـن ابتـدأوا بالعصاوة والخيانـة وبالتـالي ان العسـاكر الجهاديـة الموجودة معنا غير كافية لاجرى ذلك كمـا أعرضنـا في ذلـك الخصـوص مـراراً وحيـث يـرى الحـاضر مالايرى الغائب وملزومين بحسب عبوديتنا ان نعرض ما هو مـتراء لنـا بوجـه الصـدق فنقـول ان كـان قصد الحكومه اتمام دخول دارفور تحت الطاعة وفتح جهة برقو قريباً وهذا بدون ارسال عساكر من المحروسـة ولا التحمل بالمصاريف يصير احالة ادارة دارفور وفتح برقو علـى الزبـير باشـا مـع ابقـاء بجهـتي شـكا وبحـر الغزال بطرفه كما هو عليه ويتلقب بعنوان مـدير عموم غـرب السودان انما بشرط يكون خارجاً عن




يتبـــع ملحق رقم (٥)

الحكمدارية كمديرية شرق السودان ولانكون مسئولين في ما بعد من خير و شر الجهة المذكورة اذ من المعلوم أن الانتظام لا يكـن الا بالمصاريف وألا يصير ترتيب خالد باشا بتلك العنوان ومن معه كسابقة العرف والزبير باشا يبقى على ما هو عليه مدير بحر الغزال وشكا ثم تنبه على الزبير باشا مداومته هو ومن معه بدارفور لحين اتمام اطاعة وحضور العساكر الكفاية من المحروسة مع اعانة جبهة دارفور سنوي بقدر سبعة أو ثمانية آلاف كيسه من الحكمدارية لتكميل مصاريفها حتى تنتظم كونها خالية بالكلية من النقود وفيما بعد يترتب قوتين أحدهم من بحر الغزال والثاني من دارفور وقتها يصير الحصول ليس له الباري ونفوذ ولي النعم على برقو بسهولة هذا وان لم يوافق ترتيب خالد باشا يصير ترتيب حسن حلمي بك مدير عموم دارفور برتبة لـواء لكي يجد مع الزبير باشا في اتمام ماذكر وعلى أي وجه فالاحرى على حسب الاوجه الثلاثة مفوض لاعتاب ولي النعم أفندم (١) .

" كامل عثمان أحمد "

---

(١) دفتر رقم (٢٩) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص (٥٣ / ٢٧ ، ٢٧/٥٤ ، ٢٨/٥٥) تلغراف رقم (٤١٢) تاريخه ٢٦ ذي الحجة سنة ١٢٩١هـ الموافق ٣ فبراير سنة ١٨٧٥م .

(مصورة ـ مسلسل ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢)



ملحق رقم (٦)

وثائق القاهـــــرة

تلغراف من حكمـدار السـودان بالفاشـــر الى مكتوبي خديـوي بخصـوص صـرف النظر عن ترتيب الزبير باشا مديراً على دارفور ، واعادته كما كان مديـراً على بحر الغـزال واقـتراح تعيين حسن بك حلمي أو واحد برتبة لواء مديراً على دارفـور، وضـرورة ارسـال المـأمورين والمديريـن اللازمين لدارفور حتـى يتـم اسـتكمال ترتيبهـا وتنظيمهـا فـورد بتـاريخ ليلـة ٢٠ صفـر سـنة ١٢٩٢ الخميس الساعة ٩ ليلاً الموافق ٢٨ مارس سنة ١٨٧٥م.

النـــــص

من حكمدار السودان بالفاشر الى مكتوبي خديوي

ولو أن بتاريخ ٩ ذي الحجة ١٢٩١هـ كنا أعرضنا بالتلغراف عن ترتيب الزبـير باشـا مديـر عموم دارفور للاسباب التي أوضحناها بمعروضنا والان تشرفنا بالارادة السنية المزينـة في ٦ محـرم سـنة ١٢٩٢هـ تلغراف بالوعد عن ترتيب الموصى اليه حسب التماسنا لكن حيث من عهد احالة دارفور من طرفنا مؤقتاً على الموصى اليه وجدناه غير مستدرك على الادارة حسب قوانين نظام الحكومة المرحسنية فاذا صار احالة ادارة المديريات الاربعة عليه بما فيهـا مـن الـزوات اربـاب الرتـب واوردى الباشـبوزق الترك وعساكر الجهادية وباقي المستخدمين المحضرين من المحروسة حتما لا يحصـل له ولا هم راحة لعـدم معلوميته بادارتهم وميله ورغبته لاستخدام جنسية من أهالي البحارة ويخشى من وقـوع خلـل في الادارة واتعاب الاهالي وباقي المستخدمين باسباب ذلك الاولى ان ترتيب مديريات دارفور يكون علـى اسـاس متين من ابتدى الامر لاتساعها وكثرة نفوسها وعماريتها حيـث بالممازحـة معـه في كيفيـة الادارة فقـد اعترف لنا بعدم استدراكه عليها واورانا بأنه اذا صار أبقاه على ماهو عليه مديراً على بحر الغزال فقـط يكون ممنون ومتشكر ومستعد لفتح جهة برقو حيث المرغوب العالي الذي كنا أخبرناه سراً فلذلك قـد نزعنا ادارة دارفور منه بطريقة مستحسنة بدون أن يحصل له أدنـى تغيـير خـاطرهوقد عينـا حسـن بـك حلمي رسمـاً في تاريخه مديراً على أحد مديريـات دارفـور الـتي هـي مديريـة الفاشـر وحولنـا عليـه ادارة مديرية أم شنقة ومديرية كبكبية مؤقت لحين حضور مدير لهم أما المديرية الرابعة التي هـي مديريـة دارة وموقعها قبلي دارفور فقد حولنا ادارتها مؤقت على الزبير باشا ليقيم فيها هو وجماعته لسـهولة تعيشـهم وردع بعض المفسدين الموجودين بها وطلبه بجماعته لطرفنا عند اللزوم لحين تكامل ورود العسـاكر مـن المحروسة بناء على ذلـك نؤمـل صـرف النظـر عـن ترتيـب الموصـى اليـه بوظيفـة مديـر عمـوم دارفـور كالتماسنا الاول مادام مكارم ولي النعم سنحت بارسال الـلازم مـن المديريـن والخدمـة والعسـاكر مـن المحروسة وابقاه على ماهو عليه مديراً على بحر الغزال لحين تتميم وتنظيم مديريات دارفور وقتها لامانع من صدور الامـر بتوجهه الى جهة برقو خصوصاً على حسب تعريفه لنا

يتبع ملحق رقـم (٦)

إن بعضاً من مشارعه ملاصقه حدود برقو من قبليها وأمر بأنه عند صدور الأمر يتوجه لها من هناك كون تلك الطريق أقرب وأسهل وبمنته تعالى بعد فتوح برقو وقتها لامانع من ترتيبه رسمياً مديرا عليها ونزع جهة بحر الغزال من ادارته كالتصميم الأول وحيث بعد تكامل ورود المديرين والعساكر وباقي المستخدمين وترتيب وتنظيم مديريات دارفور الأربعة من المهم ترتيب واحد ذو تجربة برتبة لواء يقيم بالفاشر بوظيفة مدير عموم دارفور والمترای للداعی لايق جداً لهذه وهو حسن بك حلمي الموجود معنا الآن فترتيبه أو ترتيب خلافته منوط لولي النعم وها نحن منتظرين بالفاشر صدور الأمر و ورود العساكر وباقي المستخدمين والكتاب حتى يصير الشروع وفي ترتيب المديريات حسب المرغوب أفندم (١) .

---

(١) دفتر رقم (٣٠) وارد عابدين تلغرافات شفرة عربي ص ص(٩/١٨، ١٠/١٩ ، ١٠/٢٠) تلغراف (١٤٦) تاريخه ٢٣ محرم سنة ١٢٩٢هـ الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٨٧٥ م .
(مصورة مسلسل ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢)




ملحــق رقم (٩)

وثائق القاهــــرة

تلغراف من الزبير باشا الى الحضرة الخديوية بخصوص الدعوة التي وصلته من الخديوي بالحضور الى مصر ، والاعتذار عن التأخير بسبب قيامه بمطاردة الامير بوش أخو الامير حسب الله المتمرد وشكر الجناب العالي على هذه الدعوة وارد بتاريخ ١٠ رجب سنة ١٢٩٢هـ يوم الخميس الساعة ٤٠ر١٠ الموافق ١٩ اغسطس سنة ١٨٧٥م.

النــــــــص

من عبد الحضرة الخديوية الزبير رحمة باشا

الى الحضرة الخديوية

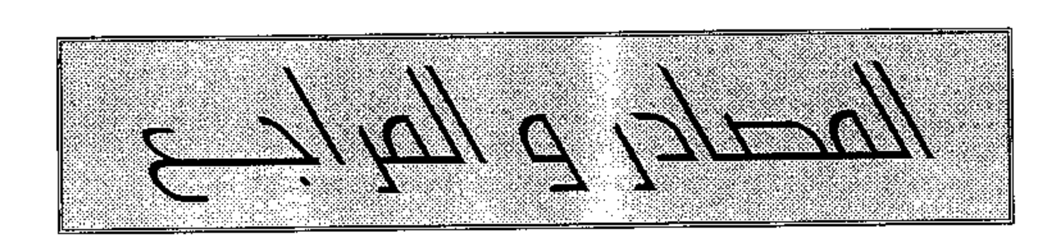
قبل تشريفنا بورود التلغراف العالي بطلبنا لمقابلة الذات السنية صار قيامنا في يوم الثلاثاء المبارك الموافق في ١٥ جمادى آخر سنة ١٢٩٢هـ الى جبل مرة ارد أهاليه العصاه من الامور المغايرة ودخولهم في سلك طاعة ولي النعم الخديوي الاعظم مع الامير بوش بن السلطان محمد الذي تسلط الان بعد أخيه حسب الله بتعصبات أهالي المفسدين عليه بجملة أخوانه وأقاربه وأربابه ودولة الباقين ولما اتضح لنا الامر وشاع في البلاد الفوراوية قد قمنا وبلادنا اليهم بالهمة العالية وعدم التراخي وبعون الله سبحانه وتعالى ونفوس الحضرة الخديوية صار نفاذ المرغوب في الجميع في برهة سبعة وعشرين يوم فقط وأعرضنا لسعادة أفندم الحكمدارية بذلك ونحن مقيمين ببندر كيكايين محل معركة وقتل السلطان يوسف قريب من البلاد البرقاوية فرحانين مسرورين لهذه النصرة العجيبة ومنتظرين حضور العساكر الذي توجهوها على أثر الهربانين فما نشعر الا وقد تشرفنا بورود التلغراف العالي في غرة رجب سنة ١٢٩٢هـ يطلبنا وحضورنا للمحروسة للتشرف بمقابلة الذات السنية فحينئذٍ زدنا فرحاً وسروراً تاماً واشتدت اعنانا وقمنا مبادرين في توضيب أموال وتصليح شاننا وفقط منتظرين قدوم العساكر الينا كما ذكر ولمعلومية ولي نعمتنا بوصول التلغراف الى عبده في غرة رجب سنة ١٢٩٢هـ ومصادقته مع حركات السلطان بوش ومشغولية اهتمامي في القيام والحضور مهما أمكن سريعاً لمشاهدة الذات السنية وبلوغ مقصودي ومأمولي ونسأل الله تعالى اتمام نعمتي لهذا الرجاء والله الموفق (١) .

" صادق عثمـــان "

---

(١) دفتر رقم (٣٢) وارد عابدين تلغراف عربي ص (٢٠/٤١) تلغراف رقم (٢٢٧) تاريخه ٢٩ رجب سنة ١٢٩٢هـ الموافق ١٩ اغسطس سنة ١٨٧٥ م.

(مصورة ـ مسلسل ١٤٣)


المصادر والمراجع




الوثائــق :

أ ـ وثائق القاهرة . (دار عابدين)

رقم الدفــتر أو الصنــدوق الذي يحوي رقم الوثيقة	رقم الوثيقة	فحوى الوثيقة
دفتر رقم (٢)	رقم (٧٥)	بخصوص الإنعام على الزبير برتبة لواء
دوسيه رقم ٣	ملف رقم ١	خطاب من السلطان ابراهيم للخديوي بخصوص تسليمه الحكم بعد والده .
دوسيه رقم ٣	ملف رقم ٥	شكـوى مـن السـلطان ابراهيـم مـن تعـدي الزبير عليه .
دفتر رقم ٥	مكاتبة رقم ٥	بخصوص قتل السلطان ابراهيم و ارسـال أموالـه و أسلحته إلى مصر .
دفتر ١٦	تلغراف رقم ٧٠	توصية الخديوي باشا بانشاء مسجد و مكتبـة في بحر الغزال .
دفتر رقم ١٦	تلغراف رقم ٢٠٠	ارسـال أسـلحة و قـوات لمساعدة الزبـير ضـد الرزيقات .
دفتر رقم ١٦	تلغراف رقم ٢٠٧	الموافقة على مساعدة الزبير من كردفان .
دفتر رقم ١٦	رقــم ٣٣٦	اخطار سلطان دارفور بتعيين الزبير على بحر الغزال
دفتر رقم ١٦	رقم ٣٤٦	تشكيل مـديرية بـحر الغـزال و تعيـن الزبـير مديراً عليها .
دفتر رقم ١٦	رقم ٣٤٨	طلب اسماء أصحاب القومبانيات الذين لم يقدموا مساعدة للزبير في حربه ضد عرب الرزيقات .
دفتر رقم ١٦	رقم ٥٠٦	براءة الزبير من قضية مقتل الشيخ الهلالي .
دفتر رقم ١٧	رقم ٢١١	و عد الزبير بارسال شبان أقوياء للجندية .
دفتر رقم ١٧	رقم ١٣٨	بخصـوص التعدي الـذي حصـل مـن سـلطان دارفور و أنصار الزبير .

تابع وثائق القاهــرة (دار عابدين)

رقم الدفتر أو الصندوق الذي يحوي رقم الوثيقة	رقم الوثيقة	فحوى الوثيقة
دفتر رقم ١٧	رقم ١٣٩	منع سلطان دارفور موظفي الحكومة من التعرض لتجارة الرقيق .
دفتر رقم ١٧	رقم ١٤٢	يتعلق بمنع تجارة الرقيق .
دفتر رقم ١٧	رقم ١٥٥	امداد الزبير بالأسلحة .
دفتر رقم ١٧	رقم ٢٧٥	عدم استطاعة الحكومة مساعدة الزبير في فتح دارفور من مصر .و امكان مساعدته من الخرطوم.
دفتر رقم ١٨	رقم ١٧	إرسال شبان من قبل الزبير .
دفتر رقم ١٩	تلغراف رقم ١٥٠	إجراءات الحاق دارفور بحكومة الخديوي
دفتر رقم ١٩	تلغراف رقم ٢٥٦	تقديم شكر للزبير لانتصاره على قوات دارفور.
دفتر رقم ١٩	تلغراف رقم ٢٥٧	حجز رقيق السلطان .
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ٢٤	يتعلق بتجارة الرقيق .
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ٧٦	مصادرة أموال و مكاتبات رسل السلطان ابراهيم و تخبرهم بالرجوع أو الوصول الى مصر
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ١٣٢	مصرع سلطان دار فور على يد الزبير .
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ٢٣٨	مساعدة الزبير للاستيلاء على إمارة برقو .
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ١٤٣	بخصوص تنظيم مديرية دارفور .
دفتر رقم ٢١	تلغراف قم ٣٢٢	دخول الزبير عاصمة دار فور .
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ٣٣٣	بخصوص المصادمات بين الزبير و عرب الرزيقات
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ٢٩١	تعيين الزبير مديراً على دار فور .
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ٤٢٩	تعقب الزبير عائلة سلطان دار فور .

تابع وثائق القاهرة (دار عابدين)

رقم الدفتر أو الصندوق الذي يحوي رقم الوثيقة	رقم الوثيقة	فحوى الوثيقة
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ٦٥٥	ضرورة ترحيل الأمير حسب الله الى القاهرة .
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ٧٠٦	إكرام عائلة الأمير حسب الله و إرسالهم الى القاهرة
دفتر رقم ٢١	تلغراف رقم ٨٥٨	تعذر مساعدة الزبير من القاهرة و طلب ذلك من كردفان .
دفتر رقم ٢٢	تلغراف رقم ٨	أسماء أصحاب القومبانيات الذين لم يساعدوا الزبير في حربه ضد عرب الرزيقات .
دفتر رقم ٢٢	تلغراف رقم ٢٧٤	مساعدة الزبير و إعطائه رتبة قائمقام
دفتر رقم ٢٢	تلغراف رقم ٢٧٥	اخطار سلطان دار فور بتعيين الزبير على بحر الغزال .
دفتر رقم ٢٣	تلغراف رقم ٢٩	ارسال أسلحة إلى كردفان لمساعدة الزبير .
دفتر رقم ٢٣	تلغراف رقم ٣٥	مهاجمة سلطان دار فور للزبير
دفتر رقم ٢٣	تلغراف رقم ٦٥	ارسال مزيد من الأسلحة و الجيوش لفتح دار فور
دفتر رقم ٢٣	تلغراف رقم ٦٦	صرف الأموال على جيوش فتح دار فور .
دفتر رقم ٢٤	تلغراف رقم ــ	تلغراف للزبير لتنظيم مديرية بحر الغزال .
دفتر رقم ٢٤	تلغراف رقم ٣٧٤	صرف أموال للزبير في حربه في دار فور .
دفتر رقم ٢٤	تلغراف رقم ٥٤٥	إصرار الزبير على فتح دار فور .
دفتر رقم ٢٥	تلغراف رقم ٥٤٤	توجه الزبير لمحاربة سلطان دار فور .
دفتر رقم ٢٥	تلغراف رقم ٥٦٨	مشاركة الحكمدار في فتح دار فور .
دفتر رقم ٢٦	تلغراف رقم ٢٢٩	توجيه لوم من الخديوي لمدير كردفان على ضبط أموال الزبير باعتباره احد ماموري الحكومة .
دفتر رقم ٢٦	تلغراف رقم ٢٣٠	الاعتذار للزبير بخصوص حجز أمواله .
دفتر رقم ٢٧	تلغراف رقم ٣٠٦	بخصوص امداد الزبير بالجيش و الأسلحة لفتح دار فور
دفتر رقم ٢٨	تلغراف رقم ٢٥	اخبار حملة الزبير في دار فور
دفتر رقم ٢٨	تلغراف رقم ٢٦	بخصوص الرسل الذين أرسلهم سلطان دار فور للإستانه
دفتر رقم ٢٨	تلغراف رقم ٣٢	طلب أسلحة من حكمدارية السودان للزبير .
دفتر رقم ٢٨	تلغراف رقم ١٣١	سقوط دار فور على يد الزبير .




تابع وثائق القاهرة : (دار عابدين)

رقم الدفتر أو الصندوق الذي يحوي رقم الوثيقة	رقم الوثيقة	فحوى الوثيقة
دفتر رقم ٢٨	تلغراف رقم ٣٩٣	بخصوص الأموال المضبوطة مع سلطان دار فور
دفتر رقم ٢٨	تلغراف رقم ٤٥٢	
دفتر رقم ٢٩	تلغراف رقم ٢٣١	تنظيم مديرية دار فور و تعيين الزبير مديرا مؤقتاً
دفتر رقم ٢٩	تلغراف رقم ٤١٣	وقف الشروع في فتح أمارة برقو
دفتر رقم ٢٩	تلغراف رقم ٢١٨	موافقة الحكومة على امداد الزبير بالاسلحة و الجيوش .
دفتر رقم ٢٩	تلغراف رقم ٤١٠	طلب من الحكمدار بضرورة ابقاء الزبير مديراً على دار فور .
دفتر رقم ٢٩	تلغراف رقم ٤١١	تعيين الزبير مدير عموم غرب السودان .
دفتر رقم ٢٩	تلغراف رقم ٤١٥	الابقاء على الزبير مديراً لدار فور .
دفتر رقم ٢٩	تلغراف رقم ٤١٦	السماح للزبير بأخذ ٤٠٠ قنطار سن فيل مقابل خدماته للخديوية .
دفتر رقم ٢٩	تلغراف رقم ٥٢٥	القبض على الأمير حسب الله و بقية أولاد السلطان .
دفت رقم ٢٩	تلغراف رقم ٦٨٨	ارسال أولاد السلطان الى سنار و اكرامهم .
دفتر رقم ٣٠	تلغراف رقم ١٤٦	صرف النظر عن تعيين الزبير مديراً على دار فور و ابقائه مديراً على بحر الغزال .
دفتر رقم ٣٠	تلغراف رقم ٥٦٧	بخصوص الوقائع الحربية بين الزبير و سلطان دار فور .
دفتر رقم ٣٢	تلغراف رقم ٢٢٧	دعوة الزبير إلى مصر و الاعتذار عن التأخير بمطاردة الأمير حسب الله .
دفتر رقم ٣٦	تلغراف رقم ٣٩٥	
دفتر رقم ٥٧٣	مكاتبة رقم ٤	تعيين محمد الهلالي ناظراً على بحر الغزال .
دفتر رقم ١٨٦٤	مكاتبة رقم ٤	بخصوص المصادمات بين الزبير و محمد الهلالي .
دفتر رقم ١٨٧٢	مكاتبة رقم ٧٨	اعطاء الزبير الأمان
دفتر رقم ١٨٧٥	مكاتبة رقم ١٠	المصادمات بين الزبير ووزير سلطان دار فور .
دفتر رقم ١٨٦١	مكاتبة رقم ١٧	شكوى أقارب محمد الهلالي .




تابع وثائق القاهـرة (دار عابدين)

رقـم الدفـتر أو الصنـدوق الذي يحوي رقم الوثيقـة	رقم الوثيقة	فحوى الوثيقـة
دفت رقم ١٨٧٥	مكاتبة رقم ٢٤	بخصوص تعذر حضور الزبير للخرطوم بسبب قطع الطريق من الرزيقات .
دفتر رقم ١٨٧٥	مكاتبة رقم ١١	امداد الزبير بالعساكر .
دفتر رقم ١٨٧٥	مكاتبة رقم ٢٨	الاشياء التي غنمها الـزبير عـن وزيـر سـلطان دار فور .
دفتر رقم ١٨٧٥	مكاتبة رقم ٧١	صرف استحقاقات الزبير
دفتر رقم ١٩٤٨	مكاتبة رقم ٢٧	بخصوص مستحقات مالية للزبير .
دفتر رقم ١٩٤٨	مكاتبة رقم ٩٧	الانعام على الزبير لدوره في فتح دار فور .
محفظة رقم ٥١	وثيقة رقم ٣٧٧	بخصوص الرتـب و النياشـين للضبـاط و الجنـود الذين اشتركوا في فتح دار فور .





ب : وثائق الخرطوم : (دار الوثائق المركزية) .

رقم الدفتر أو الصندوق الذي يحوي رقم الوثيقة	رقم الوثيقة	فحوى الوثيقة
٦٧/١	١١٩٠	تاريخ حياة النور بك محمد عنقرة بقلمه سنة ١٩٣٤م .
٤٧/١	٩٢٩	مذكرات الزبير باشا ١٨ صفحة بخط يده .
٢٣٤/١	٣٠٣٥	كتاب نظم المقصود في الصرف عبارة عن قصيدتين في ورقة واحدة بخط الزبير باشا واحدة فيها بعض الارشادات الأخلاقية و الأخرى في فن الصرف .
٧٢/١	١٢٥١	خطابات من الزبير باشا مدير عموم بحر الغزال خطاب الى سلطان دار فور ، خطاب الى علماء دارفور ، خطاب الى أبناء سلطان دار فور .
٤٠/١	٢٤٥	أوراق للمخابرات المصرية و هي عبارة عن خطابات متبادلة بين الزبير و بعض الحكام .
٣٨/١	٢٢٢	أوراق المخابرات المصرية خطابات متبادلة بين الزبير و بعض موظفي الحكومة الخديوية .
١٥٦/١	١٩٥٦	أوراق تتعلق ببعض أسماء ورثة الزبير باشا و بعض مرافعات المحاكم .




قائمة المصادر والمراجع

المصادر العربية:

ـ القرآن الكريم

ـ أبو داود ـ سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٠٤هـ) مسند أبي داود بيروت لبنان١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

ـ الإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ) مسند الإمام أحمد ـ القاهرة .

ـ ابن سعد ـ محمد بن سعد بن منيع الزهري (ت ٢٣٠هـ) ـ الطبقات الكبرى دار صادر للطباعة والنشر بيروت ١٣٧٧هـ/١٩٥٨م .

ـ أحمد بن جابر (البلاذري) فتوح البلدان ـ تحقيق صلاح الدين المنجد دار العدالة للطباعة والنشر ـ القاهرة .

ـ أحمد بن إسحاق بن يعقوب (ت ٢٤٢هـ) ـ تاريخ اليعقوبي ـ بيروت ١٣٧٩هـ/١٩٦٠ م .

ـ البخاري ـ محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ) صحيح البخاري ـ دار المعرفة ١٣٠٠هـ .

ـ مسلم بن الحجاج بن مسلم ـ صحيح مسلم تحيق محمد فؤاد عبد الباقي بيروت ١٣٧٤هـ /١٩٥٥م .

ـ المقريزي ـ تقي الدين أحمد بن علي ـ المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ـ مكتبة احياء العلوم ـ الشياح لبنان .

ـ الزبير رحمت ـ مذكرات الزبير ـ دار الوثائق القومية بالخرطوم .

ـ سعد الدين الزبير ـ الزبير باشا رجل السودان ـ القاهرة ١٩٥٢م .

ـ سعد الدين الزبير ـ امبراطورية رابح ـ القاهرة ١٩٥٣م .




ـ سلاطين باشا ـ السيف والنار ـ دار الجيل لبنان ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

ـ محمود طلعت ـ غرائب الزمان في فتح السودان ـ مطبعة الاسلام القاهرة ١٣١٤هـ .

ـ نعوم شقير ـ تاريخ السودان تحقيق د/ محمد ابراهيم أبو سليم ـ دار الجيل بيروت ١٩٨١م .

ـ النور عنقرة ـ مذكرات النور عنقرة ـ دار الوثائق القومية بالخرطوم .

ـ كرومر ـ بريطانيا في السودان ـ تعريب عبد العزيز أحمد عرابي ـ القاهرة ١٩٦٠م .

المراجع العربيـــة :

ـ ابراهيم شحاته حسن ـ مصر والسودان ـ الاسكندرية ١٩٨٢م .

ـ ابراهيم الزبير ـ شريط كاسيت ـ معهد الراسات الافريقية جامعة الخرطوم رقم ٢٦٥ .

ـ أحمد الحته ـ تاريخ مصر الاقتصادي ـ القاهرة ١٩٧٨م .

ـ أحمد شلبي ـ موسوعة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية ـ القاهرة ١٩٦١م .

ـ أحمد علي كاتب الشونه ـ تحقيق الشاطر بصيلي القاهرة ١٩٦١م .

ـ أحمد محمد عطية ـ دفاع عن الزنوج .

ـ آلان مورهيد ـ النيل الأبيض ـ ترجمة محمد بدرالدين خليل دار المعارف المصرية ١٩٥٦م .

ـ بابكر بدري ـ تاريخ حياتي ـ تحقيق بابكر علي بدري ـ الرياض ١٤١٠هـ .

ـ ب .م . هولت ـ دولة المهدية في السودان ـ تعريب هنري رياض وآخرين ـ دار الجيل ١٩٨٢م .

ـ جميل عبيد ـ المديرية الاستوائية ـ دار الكاتب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٣٨٦هـ/١٩٦٧م .

ـ جلال يحيى ـ مصر الافريقية والأطماع الاستعمارية في القرن التاسع عشر ـ دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٤م .




ـ حمدنا الله مصطفى ـ التطور الاقتصادي والاجتماعي في السودان .

ـ جون جنز ـ داخل افريقيا ج ٢ اشراف حسين جلال العروي ـ مكتبة الانجلو المصرية

ـ حسن أحمد محمود ـ الاسلام والثقافة العربية والافريقية ـ القاهرة ١٩٨٦م .

ـ حسن مكي محمد أحمد ـ السياسة التعليمية والثقافة العربية في جنوب السودان ـ المركز الاسلامي الافريقي الخرطوم .

ـ حسن محمد ابراهيم ـ محمد علي في السودان ـ دار التأليف والترجمة جامعة الخرطوم .

ـ حسين أحمد حسين ـ من زوايا التاريخ السوداني المعاصر .

ـ حسين مؤنس ـ الاسلام الفاتح دار أصفهان للطباعة بجدة ١٤٠١هـ .

ـ رفاعة رافع الطهطاوي ـ مناهج الألباب .

ـ رولاند أوليفر وجون فيج ـ موجز تاريخ افريقيا ترجمة دولة أحمد صادق ـ الدار المصرية للتأليف والكتب ـ القاهرة .

ـ زاهر رياض ـ السودان المعاصر منذ الفتح حتى الاستقلال (١٨٢١ ـ ١٩٥٣م) مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٦م .

ـ زاهر ياض ـ استعمار افريقيا ـ القاهرة ١٩٦٥م .

ـ زاهر رياض ـ الاستعمار الاوروبي لافريقيا في العصر الحديث جامعة القاهرة .

ـ السيد يوسف نصر ـ الوجود المصري في افريقيا في الفترة (١٨٢١ ـ ١٨٩٩م) . القاهرة ١٩٨١م .

ـ الشاطر بصيلي ـ تاريخ وحضارة السودان ـ القاهرة ١٩٦٦م .

ـ شوقي الجمل ـ تاريخ سودان وادي النيل ج٢ ـ مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٧١م .

ـ ضرار صالح ضرار ـ تاريخ السودان الحديث ـ مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٨م .




ـ عاتق بن غيث البلادي ـ الكلمات الاعجمية والغريبة في التاريخ الاسلامي ـ مكة المكرمة ١٤١١هـ /١٩٩٠م .

ـ عبد الله عبد الرازق ـ المسلمون والاستعمار الاوروبي ـ الكويت ١٩٨٩م .

ـ عبد الله حسين ـ السودان من التاريخ القديم إلى البعثة المصرية القاهرة ١٣٥٢هـ/١٩٣٥ م .

ـ عبد الله خورشيد ـ القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الاولى من الهجرة دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ١٩٦٧م .

ـ عبد الرحمن الرافعي ـ مصر والسودان في أول عهد الاحتلال ـ القاهرة ١٤٠٤هـ / ١٩٨٣ م .

ـ عبد الرحمن الرافعي ـ عصر محمد علي ـ دار المعارف القاهرة ١٩٨٢ .

ـ عبد الرحمن الرافعي ـ عصر إسماعيل ـ دار المعارف القاهرة ١٩٧٨م .

ـ عبد السلام الترمانيني ـ الرق ماضيه وحاضره ـ الكويت ١٩٧٩ م .

ـ عبد المجيد عابدين ـ تاريخ الثقافة العربية في السودان ـ بيروت ١٩٧٠ م .

ـ عباس محمد مالك ـ العرب العباسيون في السودان ـ الخرطوم بحري ١٩٨٧ م .

ـ علي ابراهيم عبده ـ مصر وافريقية في العصر الحديث ـ دار الفكر ١٩٦٢م .

ـ علي ابراهيم عبده ـ أضواء على المنافسة الدولية في أعالي النيل ١٩٦٣م .

ـ علي حسن عبد الله ـ الحكم والادارة في السودان ـ دار المستقبل العربي القاهرة ١٩٨٦م .

ـ عمر طوسون ـ تاريخ مديرية خط الاستواء ـ مطبعة العدل ـ مكتبة الامريكان الاسكندرية ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م .

ـ عصمت حسن زلفو ـ كرري ـ مطبعة التمدن الخرطوم ١٩٧٨م .

ـ محمد قطب ـ شبهات حول الاسلام ـ دار الشروق ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .





ـ محمد ابراهيم أبو سليم ـ مذكرات عثمان دقنة دار التأليف والترجمة جامعة الخرطوم .

ـ محمد فؤاد شكري ـ مصر والسيادة على السودان ـ دار الفكر العربي المعاصر القاهرة

ـ محمد فؤاد شكري ـ الحكم المصري في السودان ـ دار الفكر العربي القاهرة .

ـ محمد عمر بشير ـ جنوب السودان ترجمة أسعد حليم القاهرة ١٩٧١م .

ـ محمد صبري ـ الامبراطورية السودانية .

ـ محمد محجوب مالك ـ المقاومة الداخلية للثورة المهدية ـ بيروت دار الجيل ١٤٠٧هـ/١٩٨٧ م .

ـ محمد عوض ـ السودان الشمالي سكانه وقبائله ـ القاهرة ١٩٦٥م .

ـ محمد عمر التونسي ـ تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ـ القاهرة ١٩٦٥م

ـ محمد المعتصم ـ جنوب السودان في مائة عام ط أولى ١٩٧١م .

ـ مصطفى مسعد ـ المكتبة السودانية العربية ـ القاهرة ١٩٧٢م .

ـ مصطفى مسعد ـ سلطنة دارفور ـ مكتبة دار الوثائق القومية بالخرطوم .

ـ مصطفى خالد وعمر فروخ ـ التبشير والاستعمار في البلاد العربية ـ المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت ـ ١٩٨٦م .

ـ محجوب برير محمد نور ـ قبس من الفكر والتاريخ ـ الخرطوم ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م .

ـ مكي شبيكة ـ تاريخ شعوب سودان وادي النيل ـ دار الثقافة بيروت ١٩٦٤م .

ـ مكي شبيكة ـ السودان في قرن ـ القاهرة ١٩٦٧م .

ـ موسى المبارك الحسن ـ تاريخ دارفور السياسي ـ جامعة الخرطوم .

ـ ميخائيل شارويم ـ الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث .

ـ يوسف فضل ـ مقدمة من تاريخ الممالك الاسلامية في السودان الشرقي ـ جامعة الخرطوم ١٩٧١م .

الدوريات والرسائل الجامعية :

الدوريات :

ـ المجلة المصرية ـ مجلد ١٤ سنة ١٣٨٨هـ /١٩٦٨م ـ رحلة واد بختون في السودان عرض نسيم حقار .

ـ مجلة كلية الآداب ـ العدد الثامن ١٩٤٦م ـ رحلة محمد علي في السودان ـ عرض محمد فؤاد شكري .

ـ الوقائع المصرية العدد (٣) سنة ١٢٥٤هـ .

ـ مكتبة نهضة افريقيا ـ العدد العاشر ١٩٥٨م ـ السلطان رابح ـ عرض عبده بدوي .

الرسائل الجامعية :

ـ الهام محمد علي ـ التغلغل الفرنسي في النيجر وموقف الوطنيين ١٨٨٤ ـ ١٩٠٤م . رسالة ماجستير معهد البحوث والدراسات الافريقية جامعة القاهرة ١٩٧٧م .

ـ صلاح حامد عبد الرحمن ـ السياسة البريطانية ومشكلة جنوب السودان ـ رسالة ماجستير جامعة أم القرى ١٤١٢هـ .

ـ عبد الرحمن الماحي ـ تشاد من الاستعمار حتى الاستغلال (١٨٩٤ ـ ١٩٦٠م) رسالة ماجستير جامعة عين شمس ١٩٨٥م .

ـ عثمان عمر فضل ـ العلاقات بين سلطنة دارفور والحكم التركي المصري (١٨٢١ ـ ١٨٨٤) رسالة دكتواره جامعة القاهرة .

ـ كمال الدين نور الدين ـ آثار الأتراك العثمانيين في السودان (١٢٣٦ ـ ١٣٠١هـ) (١٨٢١ ـ ١٨٨٥م) رسالة ماجستير جامعة أم القرى ١٤١٠ .





المراجع الأجنبيـــة :

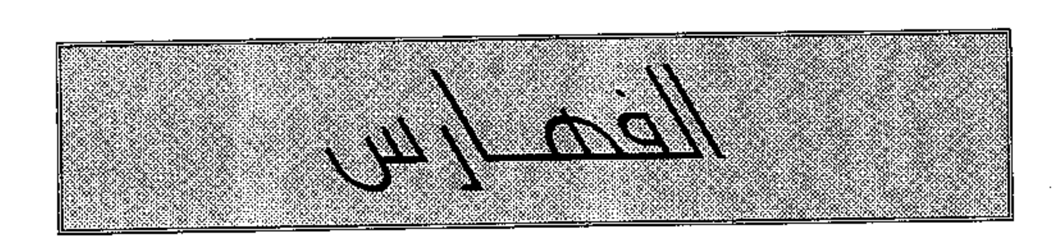
- Arkele , History of the Sudan .
- Basil Damdson , Guide of Africa History , London 1971 .
- Burkhandt , J. L, Travels in Nobia , London 1922 .
- Douin , Historie du Sudan Egyptien . Cairo 1944 .

London 1968 .

- Gessi R. seven Years in the Sudan . London 1968 .

Basha and his son Suliman . khartoum 1869.

- H.C Jakson . Black Ivory . Khartoum 1913.
- Hill . R. Egyption in the Sudan . London 1958 .
- The Incyclopedia of Islam . London 1934 .
- Shokry , Khedive Ismail and Slavery in the Sudan Cairo .1938.
- S pencer Trimgham , Islam of the Sudan (1839 - 1889) Oxford University .


الفهارس




الفهارس

الموضوع	الصفحة


وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT


الفهارس




الفهارس



وقفية الأمير غازي للفكر القرآني
THE PRINCE GHAZI TRUST
FOR QUR'ĀNIC THOUGHT



الفهارس